الحج عبر الحضارات والأمم

دراسة مقارنة بين الحج في الإسلام وطقوس الديانات الأخرى



تأليف ماجد عبد الرزاق الموسى

بسم الله الرحمن الرحیم

الحج عبر الحضارات والامم

كاتب:

ماجده آل مرتضى مومن

نشرت فى الطباعة:

مشعر

رقمى الناشر:

مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

الفهرس

الحج عبر الحضارات و الامم

اشارة

سرشناسه : آل‌مرتضی مومن ماجده
عنوان و نـام پدیـدآور : الحـج عبر الحضارات و الامم دراسه مقارنه بین الحـج فی الاسـلام وطقوس الـدیانات الاخری تالیف ماجـده آل‌مرتضی المومن مراجعه محسن الاسدی
مشخصات نشر : تهران دارمشعر، ۱۴۲۲ق = ۱۳۸۰.
مشخصات ظاهری : ۲۸۸ ص مصور، عکس
شابک : ۹۶۴-۶۲۹۳-۹۷-۲۱۱۰۰۰ریال ؛ ۹۶۴-۶۲۹۳-۹۷-۲۱۱۰۰۰ریال
یادداشت : عربی
یادداشت : کتابنامه ص [۲۸۱ - ۲۷۷]؛ همچنین به‌صورت زیرنویس
عنوان دیگر : دراسه بین الحج فی الاسلام وطقوس الدیانات الاخری
موضوع : حج
شناسه افزوده : اسدی محسن مترجم
رده بندی کنگره : BP۱۸۸/۸/آ۷۶ح۳ ۱۳۸۰
رده بندی دیویی : ۲۹۷/۳۵۷
شماره کتابشناسی ملی : م‌۸۰-۱۳۳۸۹
ص: ۱

اشارة

ص: ۲

ص: ٣

الإهداء

ص: ۴

إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّهَٔ مُبَارَكاً وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ا ۹۶ فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْ الْعَالَمِينَ (۹۷)

سورهٔ آل عمران

ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ ا ۳۲ لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ (۳۳)

سورهٔ الحجّ

الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِى الْأَلْبَابِ (۱۹۷)

سورهٔ البقرهٔ

ص: ۵

إلی أبی الأنبیاء إبراهیم الخلیل علیه السلام أول من وضع قواعد الحج ومناسکه...

إلی خاتم الأنبیاء محمد بن عبد اللَّه صلی الله علیه و آله الذی أحیا الحجّ ونزّه مناسکه من کلّ ما علق بها من شوائب الجاهلیّة وعاداتها..

ص: ۶

ص: ۷

المقدمة

نحن أمام موضوع شرعی یخرج الفرد من فردیته إلی الدائرة الأوسع، دائرة المجتمع العالمی المتنوع، فالحج ممارسة شرعیة فی أصلها ضمن مجتمع کبیر، لا ـ تتاح فی الفرائض الأـخری .. لهـذا السـبب أخـذ أهمیـة خاصـة، علی مسـتوی الفرد والدولـة، وصار متمیزاً بین الفرائض الدینیة الأخری

والحج فریضة عامة لم تقتصر علی دین معین، وإنما هو رکن دینی مهم عرفته الأجیال البشریة ومارسته منذ زمن النبی ابراهیم الخلیل علیه السلام، بل وحتی قبل زمانه، إلی یومنا هذا، مارسته سائر الأدیان السماویة التوحیدیة، ومارسته الأدیان الوضعیة، والجاهلیة أیضاً وبأشکال مختلفة.. ووضعت له قوانین وأحکاماً وشعارات، فمنهم مَن اتجه إلی الکعبة الشریفة قبل الإسلام (فی الجاهلیة)، ومنهم من اتجه إلی مکان آخر، قدّسه وعدّه مکاناً یحلّ مشاکله ویقرّبه إلی آلهته زلفیً...

وإذا رجعنا إلی أصل الحج، إلی حقیقته وانتمائه، فسنعرف أنه ذو مصدر إلهی، شرعه اللّه تعالی علی وفق کیفیة معینة لیؤدیه العباد، وینالوا الثواب علیه والجزاء

ص: ۸

المناسب الذى قدره اللَّه سبحانه وتعالى ..

هذا هو الحج الحقيقى الذى أداه الأنبياء ومن أخذ بتعاليمهم ولا سيما نبينا الكريم محمد صلى الله عليه و آله وأتباعه من المسلمين أينما كانوا، وقد جاء هذا الحج (الحج عند المسلمين) تتويجاً لكلّ الحج السابق فى الفكر والممارسة، جاء نظريةً وهدفاً رائعاً، وجاء ممارسةً وتطبيقاً عظيماً، ينسجم وتطلعات الإنسان الأساسية والفطرية؛ ليبقى مع الإنسان ملازماً له طالما هو حىّ على سطح الكرة الأرضية.

لكن الإنسان المتطلع إلى كلّ ما يشبع الفطرة والحاجات الأولية، حاول- حين ابتعد عن الدين وعن الاقتراب من اللَّه تعالى أن يلبى نداء هذه الفطرة الملحّة...

فقلّد ووضع حجّاً مماثلًا فى شكله وبعض مضامينه لعلّه يملأ هذا الفراغ الروحى، فذهب إلى هذه المنطقة وعطف على تلك البقعة ممارساً طقوساً وحركات خاصة لعلّه يلبى النداء الداخلى، لكن لم يفلح؛ لأنه صدر من مخلوق أرضى ناقص قاصر لا يمكن أن يرقى إلى جزء صغير من ذلك الحج الإلهى الكبير...

وبقى حجُّ الأنبياء وأتباعهم حجّاً حقيقياً، وحجُّ أولئك المقلدين حجّاً شكلياً خاصاً بهم، يُرضى أنفسهم ولا يرضى اللَّه تعالى ..

لقد شرع اللَّه تعالى الحج؛ ليدخل الفرد ضمن الجماعة ويتفاعل معها ويتكامل بها، فينطلق الإسلام بفضله إلى روح الأخوة والتعاون، ينطلق كتلةً واحدةً مجتمعةً على من سواها، ينطلق محلّقاً فوق الذاتيات والأفراد والتمايزات والألوان والتفاوتات بمختلف أنواعها...

وهذا الكتاب- عزيزى القارئ- دارسة مقارنة للحج، بين تلك الفريضة التى تجمع الناس فى مكان واحد وزمان واحد وموقف واحد ولهدف واحد، وذلك الحج الآخر الذى حرّفه الإنسان وأدخل عليه من ذاتياته وصناعته، فصار بعيداً عن الأصل الإلهى، كحج الحضارات والأمم المختلفة التى سادت ثم بادت... ولم

ص: ۹

یبق منها سوی آثارها أو أسمائها أو بعض مواقعها...

إنّ الفارق بین الحج الإلهی الصحیح کحج الإسلام، والحج الإلهی المحرّف أو الوضعی هو کالفرق بین الحق والباطل...

وقد قسّمت الکتاب إلی عشرهٔ فصول، یحتوی کلّ فصل علی عدد من النقاط.

وفیما یلی خلاصهٔ موجزهٔ لهذه الفصول العشرهٔ...

الفصل الأول: «الحج: المعنی والمغزی ویحتوی علی معنی الحج فی اللغهٔ وفی الاصطلاح والشرع، وذکرت مغزی الحج وتحدثت عنه فی نقطتین: المغزی الروحی والأخلاقی، والمغزی الاجتماعی والاقتصادی والسیاسی.

الفصل الثانی: وهو تحت عنوان «من تاریخ الحج» ویحتوی علی الحج فی الحضارات والأمم المختلفهٔ کحضارهٔ وادی النیل وحضارهٔ وادی الرافدین، والحضارهٔ الفارسیهٔ القدیمهٔ والحضارهٔ الرومانیهٔ وغیرها. ثم الحج فی الجاهلیهٔ وحج الأنبیاء والرسل ودورهم فی الحضارات المختلفهٔ.

الفصل الثالث: وهو تحت عنوان «الخلیل علیه السلام المعلم الأول» ویحتوی علی ذکر منزلهٔ الخلیل ابراهیم علیه السلام ونبوته وإمامته، ثم بنائه البیت الحرام، ودعوته إلی الحج، واستجابهٔ اللَّه تعالی لدعائه، ثم تحدثت عن کیفیهٔ الحج الإبراهیمی وما ورد فی الروایات عنه، ثم محاولهٔ ذبحه ابنه قرباناً للَّهتعالی وأنهیتُ الفصل بالحدیث عن الانحراف عن ملهٔ ابراهیم علیه السلام.

الفصل الرابع: وعنوانه «الحج فی الدیانهٔ الیهودیهٔ» ویحتوی علی وجههٔ النبی موسی علیه السلام فی الحج، وکیفیهٔ انحراف الیهود فی الحج وعدم اتباعهم له، ثم بینت وجهاتهم المتعدّدهٔ فی الحج کحجهم إلی جبل موسی علیه السلام فی صحراء سیناء، وحجهم الی بیت المقدس، وحجهم إلی بئر الحی الرائی والی معبد بیت إیل وإلی ظواهر من الطبیعهٔ، ثم وضعت فقرهٔ بعنوان «تلخیص واستنتاج» لبیان عدم قبول حجهم؛

ص: ١٠

لأنهم لم يتخذوا الوجهة الصحيحة فى الحج.

الفصل الخامس: وعنوانه «الحج فى الديانة النصرانية» ويحتوى على ذكر وجهة النبى عيسى عليه السلام فى الحج، وكيفية انحراف النصارى فى الحج وعدم اتباع نبيهم عيسى عليه السلام، ثم ذكرتُ وجهاتهم المتعدّدة فى الحج كحجهم إلى بيت المقدس وعود الصليب الأصلى، وحجهم إلى فاطيما فى البرتغال، والى رومة فى ايطاليا والى لورد فى فرنسا والى أماكن ومقدسات أخرى وآخر الفقرات، فقرة «تلخيص واستنتاج» لبيان عدم قبول حجهم، وحالهم حال اليهود فى ذلك...

الفصل السادس: وهو تحت عنوان «القدس: فى تاريخ الأنبياء» ذكرت فيه أنّ القدس لم تكن يوماً مركز حج للأنبياء والرسل، ولكنها دار مقدسة ومشرَّفة بما احتضنت من أنبياء ورسل فى طول تاريخها الشريف، ثم ذكرت أشهر الأنبياء الذين قدّسوها وعمروها واهتموا بها واستقبلوها فى صلاتهم، ثم أتيت على ذكر خاتمهم نبينا محمد صلى الله عليه و آله وإسرائه إليها، ثم بيّنتُ أنّ الكعبة هى مركز حج الأنبياء جميعاً وليس القدس.

الفصل السابع: وعنوانه «الحج فى الإسلام» ويحتوى على حج الحبيب محمد صلى الله عليه و آله قبل الإسلام وبعده واقتداء المسلمين بنبيهم صلى الله عليه و آله. ثم ذكرت فريضة الحج فى الإسلام والاستطاعة للحج وأنواع الحج فى الإسلام وأفضلها ثم أفعال الحج وأركانه وأهم التروك فى الاحرام للحج...

الفصل الثامن: وهو تحت عنوان «أهمية الحج فى الإسلام وأفضليته» ويقع فى قسمين: القسم الأول أهمية الحج فى الإسلام والثانى أفضلية الحج فى الإسلام، وكلّ قسم يحتوى على عدة نقاط تؤكد تلك الأهمية والأفضلية معزِّزةً ذلك بعدد من الشواهد: آيات وروايات.

الفصل التاسع: وهو تحت عنوان «الكعبة فى التاريخ» ويحتوى على تاريخ

ص: ۱۱

الكعبة المشرّفة من هبوط آدم عليه السلام الذى بناها إلى زوال معالمها فى الطوفان.

ثم تحـدّثت عن تجديد إبراهيم عليه السـلام لبنائها وولاية أبنائه عليها، ثم ذكرت منزلتها وحادثتى تُبّع والفيل، وأخيراً تحدثت عن بعثة النبى محمد صلى الله عليه و آله وفريضة الحج إلى الكعبة، وأنها أحبّ بقاع الأرض إلى اللَّه تعالى

الفصـل العاشـر: تحت عنوان «الحـج فى النظريـة والتطبيق: المشتركـات والاختلافـات» ويحتوى هـذا الفصل على عـدد من المشتركات والاختلافات بين الحج السماوى (الحقيقى) وبين الحج الوضعى.

ففى المشتركات تحـدثت عن أنه تلبيـة حاجـة إنسانيـة ضـرورية، وفيه القصد والزيارة وممارسة طقوس وشـعائر وتقديم أضاحٍ وقرابين وغيرها.

وفى الاختلافات ذكرت أنّ الحج الوضـعى، هو انحراف عن خط الأنبياء والرسل، وأنه تقليد أعمى للأسـلاف وبِدع وخرافات وشـرك باللَّه تعالى وغيرها من النقاط.

وختمتُ الكتاب بكلمة أخيرة تحت عنوان «خاتمة».

ويسعدنى ويزيدنى فخراً واعتزازاً أن أكتب فى هذا الموضوع الكريم تلبيةً للدعوة الموجهة إلىَّ فى هذا الخصوص، راجية أن أكون قد وفقت فى تحقيق دراسة هادفة تسهم بحق فى رفد هذا المشروع المبارك.

وأخيراً أقـدم جزيل شـكرى إلى السادة العاملين فى مؤسـسة الحـج والزيارة خاصّـ ة الأسـتاذ محسن الأسدى الذى تعهّد بمراجعة كتابى هذا، وبارك اللَّه فى جهودهم الكريمة فى سبيل إرساء قواعد حج واع وشامل.

وفقهم اللَّه تعالى وسدد خطاهم، وبارك فيهم، وأخذ بيدهم نحو الكمال، واللَّه من وراء القصد.

المؤلفة

ص: ١٢

الفصل الأول: الحج: المعنى والمغزى

اشارة

ص: ۱۳

الفصل الأول: الحج: المعنى والمغزى

ص: ۱۴

ص: ۱۵

من الضروری- ونحن فی صدد الدخول فی رحاب الحج وقراءته فی التاریخ، والدیانات السماویة و التشریعات الوضعیة- أن نلقی ضوءاً علی ما قالته اللغة العربیة فیه؛ لنفهم أصله اللغوی والتاریخی.. وإکمالًا لمعناه المعروف فی الدیانات المختلفة، علینا أیضاًأن نعرف‌ما هوالحج فی الاصطلاح وفی لغة الفقهاء والشریعة الإسلامیة.

الحجّ لغةً:

فعلی مستوی اللغة جاء فی لسان العرب:

الحجُّ: «القصد، حجَّ إلینا فلان أی قَدِمَ، وحجّهُ یحُجهُ حجّاً: قصده.

وحججتُ فلاناً واعتمدتُهُ أی قصدته. ورجلٌ محجوج أی مقصود. وقد حَجَّ بنو فلان فلاناً إذ أطالوا الاختلاف إلیه قال الُمخبّلُ السعدی:

وأشهَدُ من عَوْفٍ حُلولًا کثیرةً یحجونَ سِبَّ الزِّبرِقانِ المزعفرا

أی یَقصدونه ویزورونه. قال ابن السکیت: یکثرون الاختلاف إلیه، هذا

ص: ۱۶

الأصل، ثم تُعوُرِفَ استعماله فی القصد إلی مکة للنُسک، والحجّ إلی البیت خاصة، تقول: حَجَّ یحجُّ حجّاً إذا قصدته، وأصله من ذلک.

وقال سیبویه: وقالوا: حَجَّةٌ واحدةٌ، یریدون عَمَلَ سنة واحدة. قال الأزهری: الحَجُّ قضاءُ نُسُکِ سَنةٍ واحدةٍ، وبعضٌ یکسر الحاء، فیقول: الحِجُّ والحِجَّةُ، وقُرِئ: ولِلَّه علی الناسِ حِجُّ البیت، والفتح أکثر. وقال الزجاج فی قوله تعالی ولِلَّه علی الناس حَجُّ البیت، یُقرأ بفتح الحاء وکسرها والفتح الأصل والحِجُّ: اسم العمل... واحتج البیت: کحَجّهُ. والحَجُّ والحِجُّ لیس عند الکسائی بینهما فرقٌ. وغیره یقول: الحَجُّ حَجُّ البیت، والحِجُّ عَمَلُ السنة.

وتقول: «حججتُ فلاناً إذا أتیته مرّةً بعد مرّة، فقیل: حج البیت؛ لأنّ الناس یأتونه کلّ سنة» (۱).

وعرّفه الراغب الأصفهانی: «القصدُ للزیارة» (۲).

وعرّفه الفیومی فی المصباح بقوله: «حجَّ: حجّاً من باب قَتَلَ قَصَدَ فهو (حاجّ) هذا أصله» (۳).

وقال الجرجانی: وتعریفه فی اللغه «الحج: القصدُ إلی الشیء المعظّم» (۴).

وجاء فی ترتیب القاموس: «فالحجُّ فی اللغة العربیة: هو القصد المتکرر» (۵).

وفی المعجم الوسیط: (حجَّ) الیه- حجّاً: قَدِمِ و- المکان: قصده... والبیت الحرامَ: قصده للنُسک. وفی التنزیل العزیز: ولِلَّه علی الناس حج البیت. ویقال:

۱- ۱ لسان العرب، ابن منظور ۲: ۲۲۶.

۲- ۲ المفرادت فی غریب القرآن، الراغب الأصفهانی ت ۵۰۲: ۱۰۷.

۳- ۳ المصباح المنیر، الفیومی، ت ۷۰۷: ۱۲۱.

۴- ۴ کتاب التعریفات، الجرجانی، ت ۸۱۶: ۳۶.

۵- ۵ ترتیب القاموس، مادة حَجَّ ۱: ۵۹۱.

ص: ۱۷

حجَّ بنو فلان فلاناً. أكثروا التردد عليه» (۱).

ومن هذا المعنى اللغوى الذى يؤكد أنّ الحجَّ هو القصد أو الزيارة أو تكرار الزيارة إلى مكان معين، أخذ هذا اللفظ معناه العام، وصار يُطلق على كلّ زيارة بهيئة وكيفية مخصوصة إلى مكان مقدّس يؤمن به الزائر أو الحاج.

وبكلمة أخرى: أنّ المعنى اللغوى للحج هو الذى أعطى العمومية لكلّ زيارة الى مكان يؤمن به قاصدوه فى وقتٍ معين، زيارة جماعية.

الحجّ اصطلاحاً وشرعاً:

اشارة

أما الحجُّ فى الاصطلاح والشريعة الاسلامية، فسنذكر عدداً من الأقوال والآراء فيه.

فبعدما ذكر الفيومى تعريفه للحج فى اللغة قال: «وقُصِرَ استعماله فى الشرع على قصد الكعبة للحج أو العُمرة، ومنه يُقال (ما حجَّ ولكن دجَّ) (فالحج) القصد للنُسك (والدّجُّ) القصد للتجارة. والاسم (الحِج) بالكسرة و (الحجةُ) المرةُ بالكسرة على غير قياس والجمعُ (حِجَجُ) مثل سِدرَةٍ وسِدَرٍ، قال ثعلبُ: قياسُهُ الفتح، ولم يُسمع من العرب، وبها سُمىَ الشهر (ذو الحجة) بالكسرة، وبعضهم بفتح فى الشهر وجمعه (ذوات الحِجّةِ) وجمعُ (الحاجّ) (حُجّاجٌ) و (حجيجٌ) و (احججتُ) الرجلَ بالألف بعثته ليحُجَّ» (۲).

وقال الراغب الأصفهانى: خُصَّ فى تعارُفِ الشرع بقصد بيت اللَّه تعالى إقامةً للنسك فقيل: الحَجُّ والحِجُّ، فالحجُّ مصدرٌ والحِجُّ اسمٌ، ويوم الحجِّ الأكبر،

۱- ۱ المعجم الوسيط ۱: ۱۵۶.

۲- ۲ المصباح المنير، مصدر سابق: ۱۲۱.

ص: ۱۸

يوم النحر، ويوم عرفة، ورویَ العُمرةُ الحجُّ الأصغرُ (۱).

وذكر الجرجانی فی تعريفاته قائلًا: «وفی الشرع قصدٌ لبيت اللّه تعالی بصفة مخصوصة فی وقت مخصوص بشرائط مخصوصة» (۲) وفی المعجم الوسيط جاء:

(الحِجّ): أحد أركان الإسلام الخمسة وهو القصد فی أشهر معلومات إلی البيت الحرام للنُسك والعبادة. و (الحج الأكبر): هو الذی يسبقه الوقوف بعرفة. وفی التنزيل: وأذان من اللّه ورسوله إلی الناس يوم الحجّ الأكبر و (الحجّ الأصغر) الذی ليس فيه وقوف بعرفة، ويُسمی العُمرة (۳).

وقال العلّامة الحلّی: «الحجّ اسم لمجموع المناسك المؤداة فی المشاعر المخصوصة، وهو فرضٌ علی المستطيع، ويجب بأصل الشرع مرّة» (۴).

وقد عرفه العلّامة الطباطبائی قال: «هو العمل المعهود بين المسلمين» (۵).

والحجُّ «رحلة إلی مكان مقدس؛ لغرض دينی، عرف منذ القدم، ودعت إليه الديانات السماوية الثلاثة. وكان اليهود يحجون سنوياً إلی القدس فی عيد الفصح. ويحج المسيحيون إلی أماكن كثيرة مثل روما فی ايطاليا، ولورد فی فرنسا، وفاطيما فی البرتغال وأهم مكان لديهم جميعاً هو القدس، ومن أجله قامت الحروب الصليبية فی القرون الوسطی أما المسلمون فالحج عندهم القصد إلی الكعبة فی مكة، والطواف بها سبعاً. والوقوف بعرفة. وأركانه الاحرام من أماكنه و...

۱- ۱ المفردات فی غريب القرآن، مصدر سابق: ۱۰۷.

۲- ۲ التعريفات، مصدر سابق: ۳۶.

۳- ۳ المعجم الوسيط، مصدر سابق: ۱۵۶.

۴- ۴ المختصر النافع فی فقه الإمامية، المحقق الحلّی، ت ۶۷۶ ه: ۷۵.

۵- ۵ الميزان فی تفسير القرآن، الطباطبائی ۱: ۳۸۲.

ص: ۱۹

والحجّ فرض- فى العمر مرّةً- على كلّ قادر...» (۱).

هـذا مـا جاء فى الموسوعـة العربيـة الميسّـرة. أما فى موسوعـة كشاف اصـطلاحات الفنون والعلوم فقـد ذكر التهاونى الحـج وعرفه فى الشريعة والاصطلاح بقوله:

«والحج شريعةً: القصد إلى بيت اللَّه الحرام أى الكعبة بأعمال مخصوصة فى وقت مخصوص... الخ» (۲).

إذن اتفق علماء المسـلمين على أن الحج فى الشـريعة الإسلامية وفى الاصطلاح المتعارف عليه عند المسلمين، أنه- الحج- القصد إلى مكـة المكرمة ومشاعرها ومناسـكها المخصوصة بهيئتها المخصوصة فى الزمان المعروف لإقامة المناسك والمشاعر المفروضة من قبل السـماء، وجملـة من الأفعال والأقوال والممارسات تنتظم جميعها؛ لتُجسّـد بمجموعها معنًى تعبـدياً بقصد القربة إلى اللَّه تعالى ووجوبه مرّةً واحدة فى العمر، واستحبابه كلّ عام، وكما يقول صاحب اللمعة رحمه اللَّه تعالى:

«ومستحبٌ تكراره» (۳).

والحج فى الشرع الاسلامى يُعدُّ فريضةً من الفرائض الاسلامية المهمة، وهو ركن قويم يعتمد عليه بناء الاسلام، وأداؤه يُحقق للمسلمين مكـاسب دينيـة ودنيويـة وثقافيـة واجتماعيـة وسياسـية وغيرهـا تنظم دنيـا المسـلم وآخرته. وهو أفضل الأعمال التى يشترك فيها العقل والمال والبـدن، ويتطلب مزيـداً من حسن النيـة والصـدق والإخلاص للّه، والبُعد عن الرياء والسـمعة حتى يظفر صاحبها بالقبول، هكذا نفهم الحج الاسلامى من خلال مصادره الاساسية. أما غيره- أى الحج عند غير المسلمين- فهو غير ذلك، وبعيد عنه.

۱- ۱ الموسوعة العربية الميسرة، د. محمد شفيق غربال: ۶۸۹.

۲- ۲ كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، التهاونى ۱: ۶۱۹.

۳- ۳ اللمعة الدمشقية، العاملى، باب الحج ۱: ۱۵۹.

ص: ۲۰

مغزى الحج

للحج مغزًى لم يدركه إلّامن ذاق طعمه، وهذا ما يقوله كلّ من ذهب إلى بيتاللَّه الحرام في موسم الحج.

له مغزًى وجداني واضح، وهو ذلك الإحساس الرائع المستمد من مشاهد الايمان والقدسية والذكريات، ومغزًى آخر تعيشه النفس وحدها ولا تستطيع البوح به... وهو القرب المعنوي من الخالق الرحمن الرحيم الغفور الودود... من خلال بيته، ومن خلال مهبط الوحي ومهوى أفئدة الأنبياء، ومن خلال أجواء الرسالة وأجواء الدعوة الإسلامية التي قادها النبي محمد صلى الله عليه و آله أعظم قيادة.

والحج في حقيقته غفران من اللَّه تعالى لذنوب المذنبين، ورحمة للعالمين، وباب لطفٍ من ألطافه الكثيرة على مخلوقاته، قال رسول اللَّه صلى الله عليه و آله: «أعظم الناس ذنباً مَن وقف بعرفة وظنَّ أن اللَّه لم يغفر له» (۱).

ويعدّ الحج إحدى العبادات الخاصة، التي تجتمع فيها جميع خواص العبادات وهذا مغزًى مهم جدّاً..

وهناك مغزًى آخر هو: أنّ الانسان في فطرته يحتاج إلى أن يستمد العون ممّن هو قادر على ذلك، ويشكو همومه وذنوبه إلى من هو أقوى منه، الى من لا يشكو ولا يذنب، وفي الحج يتحقق هذا المطلب، والأماكن المقدسة وحدها تحقق هذا المغزى من بين سائر الأماكن الأخرى وقد حاول الانسان ارتياد أماكن اعتبرها مقدسةً تارةً، وتارةً أخرى قدّستها له السماء ك (الكعبة).. فذهب إليها وشكى همه

۱- ۱ من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق ۲: ۳۷.

ص: ۲۱

وبث كربه ودعا وتضرع لينال مأربه ومراده.

إذن، فللحج مغازٍ شتى مادية وأخرى معنوية، وقد أكد القرآن الكريم ذلك بقوله تعالى ليشهدوا منافع لهم (۱)

وقد فسَّر بعضهم هذه الآية الشريفة، قائلًا:

إنها منافع دنيويـة.. وفسّـرها آخرون بأنها منافع أخرويـة، وفريق ثالث أكّـد أنها منافع دنيوية واخروية معاً، ومن بينهم نأخذ رأى العلامة الطباطبائى فى تفسيره للآية، قال: «وقد اطلقت المنافع ولم تتقيد بالدنيوية أو الأُخروية، والمنافع نوعان:

منافع دنيوية وهى التى تتقدم بها حياة الإنسان الاجتماعية ويصفو بها

العيش، وترفع بهـا الحوائـج المتنوعـة، وتكمـل بهـا النواقص المختلفـة من أنواع التجـارة والسـياسة والولايـة والتـدبير، وأقسـام الرسوم والآداب والسنن والعادات، ومختلف التعاون والتعاضد الاجتماعى وغيرها.

ومنافع أُخروية وهى وجوه التقرب إلى اللَّه تعالى بما يمثل عبودية الإنسان

من قول وفعـل، وعمـل الحـج بمـا له من المناسـك يتضـمن أنواع العبـادات من التوجه إلى اللَّه وترك لذائـذ الحيـاة وشواغـل العيش والسعى إليه بتحمل المشاق، والطواف حول بيته والصلاة والتضحية والإنفاق والصيام وغير ذلك» (۲).

والحـج مع كلّ هـذا يُنبئُ عن كيان وحضارة وقيام الأمـة التى ترتبط فيما بينها بروابط الهـدف الواحـد والقصد والزمان المعلومين، فإذا كانت الأمة ملتزمة بشريعة السماء، اتجهت الوجهة الصحيحة وإلّا انحرفت إلى أماكن تَدَخّلَ الهوى والخيالُ فى ارتيادها.

والحـج الـذى فرضه اللَّه تعـالى هو الـذى يحقق المنـافع المـذكورة فهو اجتمـاع عظيم، وسياسـى، ودينى، وعبـادى، واقتصادى، وإلهى عالمى عام لا يختصّ بشعب دون

۱- ۱ الحج: ۲۸.

۲- ۲ تفسير الميزان، الطباطبائى ۱۴: ۳۰۷- ۳۷۱.

ص: ٢٢

شعب أو هويـة دون هويـة، بـل هو لجميع الناس الـذين يرفعون شـعار (لا إله إلّااللَّه محمـد رسول اللَّه). وهو أوسع نطاقاً للمسـلمين من صلاة الجمعـة والعيـدين، يجتمع فيه المسـلمون من مشارق الأرض ومغاربها، فى مكان مقـدس بتوقيت معين تجمعهم كلمـة التوحيـد، وتظللهم أجواء قدسية فريدة لأداء عمل واحد موحد.

ونحن لاـ نشـك فى أنّ هـذا الحـج وبهـذه المواصـفات التى ذكرناها آنفاً، هو المغزى الحقيقى للحـج الـذى أراده اللَّه تعالى والقرآن الكريم والإسـلام الحنيف، ولا نعتقـد أن أى حـج آخر مهما كان صاحبه مخلصاً فيه يحقق هـذه الغاية والأرضـية الإلهية فى آن واحد، وهذه حقيقة يجب أن نعرفها ونفرق بها بين حجنا- نحن المسلمين- وأنواع الحج الأخرى المعروفة فى التاريخ القديم والحديث.

المغزى الروحى والأخلاقى

والمغزى الروحى يتجسّـد فى الرحلـة الشـيقة إلى بيت اللَّه الحرام، ومـا يرافقهـا من سـمو أخلاـقى عظيم يرفع الفرد المكلف إلى أعلى درجات الكمال النفسى والروحى مع خالقه العظيم من خلال الأدعية والخوف من الخالق عزوجل وتذكر يوم النشور والحشر، والخشية من اللَّه تعالى والبكاء والتضـرع، وانتظام الجسم فى الطواف، والإسـراع فى بعض مراحل السـعى والطواف، كلّها تساهم فى عملية سمو الروح والأخلاق، خصوصاً عندما يشعر الفرد أنّه مع ناس يخافون الخالق ويهابونه فى بيته، وكأنهم حُشروا إليه ونُشروا للحساب. وتسمو الأخلاق؛ لأنّ تعاليم الحج تفرض عليه عدم الرفث والفسوق والجدال، والامتناع عن أذى الحيوانات وتحريم صـيدها وتحريم قتل هوام الجسد، وغيرها من الأفعال العبادية والتروك والالتزامات الشرعية فى أداء فريضة الحج.

كلّ هذه التعابير الجسدية وسيلة من وسائل انتظام الروح والخُلق وسموها

ص: ۲۳

وانضباطها ككيان روحى فكرى أخلاقى عبادى متميز.

اذن فمناسك الحـج لها أثر واضـح ومغزى أوضح فى التفاعل الروحى والأخلاقى وسـمو النفس وتحليقها نحو بارئها. وكلما كانت نيهٔ الحاج أصـدق وأصـفى فى الحج كان لهذا المغزى أكثر فاعليهٔ وأشد وقعاً على بقيهٔ آثار الحج ومغازيه حيث إنه- هذا المغزى يتفاعل تفاعلًا طردياً مع قوهٔ إيمان الفرد ونيته.

فالروح تسـمو حال الطواف وحال السـعى وعند الوقوف بعرفات والإفاضهٔ الى المشعر الحرام وباللباس الأبيض المتواضع، تسمو وتحلق وكأنها ترى بأمّ عينيها يوم يخرج الناس كالفراش المبثوث والعهن المنفوش ينتظرون رحمهٔ اللَّه وغفرانه..

المغزى الاجتماعى والاقتصادى والسياسى

والحـج يولـد شـعوراً لـدى الفرد الحاج المندمـج فى الجماعـهٔ التى تؤدى ما يؤدى هو نفسه من المناسک والأفعال، يولـد فى نفسه أن إنساناً اجتماعياً خُلق ليتفاعل مع نظائره من المخلوقات لا منعزلًا عنهم ولا منزوياً بل هو مندمج معهم شاءَ أو أبى

فمناسـک الحـج تضـيّق الفوارق الطبقيـهٔ والعرقيـهٔ وغيرهـا الـتى وضـعها الإنسـان بين بنى الإنسـان، فالحـج يسـقطها جميعـاً فى مواقف ومناسـک كثيرهٔ، فالكلّ مكلّفون بتطبيق المناسک المفروضـهٔ، وهـذا دون شک يؤدى إلى تفاعل اجتماعى بين الفقراء والأغنياء، وبين الحكّام والمحكومين، وتجمعهم فى مكانٍ واحـد بزى بسـيط متواضع واحـد بنـداء واحـد بزمان واحـد بنيـهٔ واحدهٔ وهدف واحد، على الرغم من اختلاف درجات ثرواتهم وقواهم ومنازلهم الاجتماعيهٔ ومناصبهم السياسيهٔ وغيرها..

وهـذا التنظيم الإلهى يسـتحق تأملًا دقيقاً فى أهـدافه ومغزاه.. والمغزى الاجتماعى للحج يأتى بالدرجهٔ الثانيهٔ بعد المغزى الروحى إذا ما قلنا: إنه المغزى

ص: ۲۴

الأول للحج؛ لأهمیته القصوی فی تدریب العباد وجعل الغنی کالفقیر والحاکم کالمحکوم والعزیز کالذلیل والذلیل کالعزیز، فی تکلیفٍ موحّد یُشعرهم بالمساواة فی کلّ شیء... لا فرق بینهم سوی قبول العمل وعدمه.

وهناک مغزًی آخر یرتبط ارتباطاً وثیقاً بالمجتمع وهو المغزی الاقتصادی للحج کالأعمال التجاریة التی تقام فی موسم الحج، والأسواق التی یشترک فیها المسلمون من شتی أنحاء العالم الإسلامی، والتی تجلب النفع للفرد المسلم وللمجتمع الإسلامی..

وللحج کذلک مغزًی سیاسی یرتبط بالعلاقات الدولیة، فبما أنّ المسلم مرتبط ارتباطاً دینیاً وعقائدیاً بالکعبة الشریفة وبمکة المکرمة، فالحکومات الإسلامیة تلتقی سنویاً علی مسرح مکة المکرمة من خلال حجیجها..

وهکذا یتفاعل الوضع الاجتماعی بالاقتصادی بالسیاسی بالروحی بالاخلاقی فی وحدة واحدة یکمّل بعضها بعضاً.

الفصل الثانی: من تاریخ الحج

اشارة

ص: ۲۵

الفصل الثانى: من تاريخ الحج

ص: ۲۶

ص: ۲۷

قد یعتقد بعض الناس أنّ الحجّ أمرٌ أو حالة تقتصر علی الدین الإسلامی والمسلمین فقط، وبالکیفیة التی فصّلتها کتب الفقه المستمدّة من الکتاب الکریم والسُنّة الشریفة.

ولکنّ المتتبع للحضارات القدیمة والدیانات السماویة والوضعیة یجد أنّ الحج رکن دینی أساسی، مارسته الحضارات المختلفة، وألِفَته الأدیان السماویة والوضعیة بشکل مشابه بعض الشیء للحج الإسلامی.

ولعلَّ الکشوفات الأثریة الحدیثة والتطوّر فی المعارف والثقافة، والاطّلاع علی الشعوب البدائیة من خلال الدراسات «الإنثروبولوجیة» المیدانیة، لعلَّ کلّ ذلک کشف المزید من المعلومات عن هذه الفریضة العالمیة الکبیرة.

إنّ کثیراً من الهیاکل والمعابد والمراکز الدینیة المنتشرة فی العالم، فی بلاد وادی الرافدین وبلاد وادی النیل، وهیاکل العبادة فی کثیر من المدن والبلدان هی فی الحقیقة کانت مراکز أساسیة للحج، یأتیها الزائرون قاصدین إلیها لأداء أعمال وأفعال وممارسات وطقوس محدّدة یعرفها المنتسبون لتلک الدیانات.. یأتون فی

ص: ۲۸

وقت محدّد وعلی جماعات، أَلیس ذلک هو الحج؟

إنّ الحج وإن اختلف بین حضارة وحضارة ودین ودین، یبقی مرجعه ومحوره النموذجی هو الحج الذی فرضه اللَّه تعالی علی عباده.

والمحور النموذجی والمرجع الحقیقی لکل حج فی تاریخ الإنسان هو حج الأنبیاء والرسل وحج إبراهیم علیه السلام الذی دعا الناس بأمرٍ من اللَّه تعالی لأوّل بیت مقدّس علی وجه الأرض، إلی أوّل بیت من بیوت اللَّه جُعل للهدایة ولغفران الذنوب، وهو بیت اللَّه العتیق فی مکّة المکرّمة، قال تعالی: إنّ أوّل بیت وضع للناس للذی ببکّة مبارکاً وهدًی للعالمین (۱)

.أی: جعل هذا البیت لجمیع الناس، ولجمیع الأدیان، منذ خلقه اللَّه تعالی حتّی یقوم الحساب، ولم یخصّصه لفئة معیّنة أو لدین معیّن؛ لأنّ الدعوة إلی الدین، مصدرها الواحد الأحد لا غیر، فالخالق واحد، والدعوة إلی الهدی فی جمیع الأدیان السماویة التوحیدیة واحدة أیضاً، ولا یمکن أن یفرق بین عباده، بأن یجعل لأحدهم بیتاً مبارکاً ذا رحمة وخیر وبرکة، ولا یجعل للآخرین مثله، وقوله تعالی:

وضع للناس و هدًی للعالمین یدل علی ذلک المعنی

لکنّ الناس عبر المسیرة البشریة حرّفت الأدیان والتعالیم السماویة، والکتب المنزلة، کصحف إبراهیم علیه السلام، وتوراة موسی علیه السلام، وإنجیل عیسی علیه السلام، وزبور داود علیه السلام، إلی ما تشتهی الأنفس ویمیل الهوی عندهم اتخذوا دینهم لعباً ولهواً وغرّتهم الحیاة الدنیا (۲)

، وابتعدوا تماماً عن الدین، إلّامن هدی اللَّه تعالی منهم، قال تعالی:

ولقد بعثنا فی کلّ امّةٍ رسولًا أن اعبدوا اللَّه واجتنبوا الطاغوت فمنهم من

۱- ۱ آل عمران: ۹۶.

۲- ۲ الأنعام: ۷۰.

ص: ۲۹

هدی اللّه ومنهم من حقّت علیه الضلالة (۱)

.فلما ابتعد أکثر الناس عن الدین الحنیف- دین اللّه- عبدوا الأصنام، وتعدّدت الآلهة، وصُنِفت إلی إله الشمس وإله القمر وإله الخیر وإله الشر...، وقدّسوا ظواهر الطبیعة من أشجار وغابات وجبال وأنهار وکواکب وودیان وأفلاک.

وبعضهم الآخر قدّس قبور الموتی وحیوانات معیّنة... وجعلوا منها أماکن ومراکز یزورونها فی أوقات معیّنة وأکثرها زیارات الأعیاد؛ لتکون زیارة جماعیة موقتة بزمن ومکان، وإذا اجتمعت هذه الثنائیة کوّنت حجّاً!.

الحج فی حضارة وادی النیل

اشتهرت أرض مصر الفرعونیة بالهیاکل، والمقابر الضخمة کالاهرامات، وبتعدّد الآلهة إلّافی زمن اخناتون الموحِّد للآلهة.

فالهیاکل انتشرت فی أنحاء مصر القدیمة وأشهرها «الکَرْنَک» و «الأُقصُر» و «إدْفُو» و «دَنْدارة». وهذه الهیاکل بعضها محفور فی شاهق صخری کمعبد «أبی سِنْبل» فی بلاد النوبة، الذی هو أشهر الهیاکل وقیل أقدمها، وله أهمیة کبیرة فی نفوس المصریین القدماء، وحین تولّی رمسیس الثانی عرش مصر نحته فی الصخر الحیّ وأتمّ بناءه (۲).

واعتقد المصریون بآلهة کثیرة، ولکنّهم آثروا عبادة اثنین کان لهم السبق علی جمیع الآلهة الاخری، أحدهما (أوزیریس) الذی لم یقهره الموت، والآخر هو الشمس التی تبهر البصر بضیائها فی سماء مصر الصافیة، هذا هو الإله «رع» الذی

۱- ۱ النحل: ۳۶.

۲- ۲ انظر قصّة الحضارة، ول دیورانت، مج ۱، ج ۲. وکتاب الحضارات: ۲۶- ۲۷، وکذلک موسوعة المورد ۱: ۳۰.

ص: ۳۰

کان أعظم الآلهة المصریة کإله للأحیاء، والذی أقام المصریون لعبادته أفخم معابدهم. ولم یکن الهرم إلّارمزاً مقدّساً له (۱).

وکانت الهیاکل علی شکلٍ کبیر من الضخامة؛ لتلیق بالآلهة- کما یعتقدون- کمعبد «الکرنک» الذی یبلغ طوله حوالی (۱۰۰) متر تقریباً. والتصمیم المعتمد هو نفسه تقریباً فی کلّ الهیاکل. وأقسامه الأساسیة هی: بُرجان ضخمان عند المدخل، وأمام کلّ من البرجین تنتصب مِسَلّة حجریة وساریة ترفرف علیها أعلام. وفی بعض المعابد یحیط بالمدخل صفّان من تماثیل «أبی الهول» (۲) وفی نهایة المدخل بوّابة تؤدی إلی باحة محاطة بالأعمدة، وفی نهایة الباحة «بهو الأعمدة» الذی لا یدخله إلّاالکهنة والمتنفّذون. ویلی «بهو الأعمدة» حجرة سرّیة تحیط بها مقصورات تعجّ بالنفائس، وفی وسطها المرکب المقدّس. بینما تمثال الإله یوضع فی فناء المعبد (۳).

ثم صار الآلهة فی آخر الأمر بشراً- أو بعبارة أصحّ أصبح البشر آلهة، ولم یکن آلهة مصر من الآدمیین إلّارجالًا متفوّقین أو نساء متفوّقات خُلقوا فی صورة عظیمة باسلة (۴). فقد ألّهوا (أزوریس) الذی أصبح قبره فیما بعد محجّةً لهم وللأجیال بعدهم. ویذکر لنا التاریخ أنّ المصریین القدماء کانوا یعتقدون أنّ آلهتهم تجتمع فی معبد «أوزیرس» بمدینة «أبیدوس» فی عید هذا المعبود، فکانوا یحجّون إلیه بهذه المناسبة، ولمدینة أبیدوس تاریخ دینی وسیاسی مرموق، ففیها دُفن أقدم

۱- ۱ انتصار الحضارة، چیمس هنری برستر، ترجمة د. أحمد فخری: ۹۴، الجامعة العربیة.

۲- ۲ أبی الهول: تمثال رأسه علی شکل إنسان، ووجهه کالفرعون خفرع یرقی تاریخه إلی حوالی ۲۲۵۰ ق. م.

۳- ۳ کتاب الحضارات، لبیب عبدالساتر: ۲۷.

۴- ۴ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۱۵۹.

ص: ۳۱

ملوك مصر، وإليها انتقلت عبادة «أوزوريس» وفى المكان المعروف اليوم «بأم العقاب» جعل المصريون قبره، وعُدت أبيدوس كعبة يطوفون بها حول قبر الشهيد «أزوريس» الذى صار لديهم (إمام الموتى والشهداء، لا ـ يدخلون الجنّة إلّا من بابه، ويبنون لهم فيها مزارات...» (۱).

ولهذا الشهيد اسطورة تحكيها لنا الكتابات المسجلة على جدران المعبد باللغة «الهيروغليفية». ولأهمية هذه الاسطورة الخرافية فى معتقداتهم بحيث يصبح قبر بطلها كعبة يُحج إليها كلّ عام، ويُقدّم لها كل غالٍ ونفيس، تقول الاسطورة: «إنّه فى قديم الزمان كان يحكم هذه البلاد ملك اسمه "جب "وكان له ولدان من الذكور واثنتان من الإناث. وزوّج الملك ابنه أوزوريس من اخته ايزيس، كما زوج ابنه ست من أخته تفتيس.. ولأنّ أوزوريس كان طيب القلب عادلًا ملّكه أبوه الوديان الخضر والسهول والأنهار. أما ست الذى كان شرّيراً حاقداً فقد ملّكه أبوه أرض الصحارى القاحلة والرمال القفر. وكان أوزوريس موسيقياً بارعاً أحبّهُ الناس، فحقد عليه أخوه ست، وتآمر مع آخرين حتى صنع صندوقاً من الذهب الخالص بحجم أوزوريس، وزعم فى حفل أقامه أنّه يهديه لمن يتسع له.. فأقام مأدبة واستلقى فيه كثيرٌ حتى استلقى الأخ، فأمر ست بإغلاق الغطاء وإلقائه فى النيل. وراحت الأمواج تتقاذف الصندوق.. ووظّفت زوجته الوفية، ما لديها من علوم السحر، حتّى عرفت محلّه الذى استقر فيه الصندوق. فركبت سفينة انطلقت بها.. وتحايلت على ملك ببلوس الذى احتفظ بالصندوق، وكشفت له عن شخصيتها، وأماطت اللثام عن سيّدها، فسمح لها باسترداد الصندوق. وإذ حلَّ عليها المساء، نامت فوق الصندوق الذى فيه زوجها، فجاءتها الرؤيا وهى نائمة بأنّها حملت من روح زوجها، وعندما عادت إلى مصر اختفت ومعها الصندوق فى

۱- ۱ راجع الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق: ۱۵۹.

ص: ۳۲

جزیرة فیلـة خوفاً علیه من (ست). وظلّت مختفیـةً حتی ولـدت «حورس». وعثر (ست) علی الصـندوق، وقطّع جثـة أوزوریس إلی (۱۶) قطعة بعثرها فی جمیع معبد «أبی سنبل» وفیه قبر «إمام الموتی والشهداء!» أوزوریس

ص: ۳۳

مقاطعات مصر، وفتشت الزوجة الوفية فعثرت عليها إلّاالقدم اليمنى . وكانت هذه القدم تجلب الخير والخصب والطمى؛ لتنمو ربوع مصر بالخير والفيضان للنيل، ومنذ تلك اللحظة صار أوزوريس ملكاً للموتى يتولى حسابهم فى الآخرة، وأصبح ابنه «حورس» من بعد هو الإله.. ونُصب له تمثال برأس الصقر الذهبى..» (۱).

الحجّ فى حضارة وادى الرافدين

أمّا فى حضارة ما بين النهرين- السومرية والبابلية والأكدية والآشورية- التى استمرّت ثلاثة آلاف عام، كان (الإله آنو) على رأس (البانتيون)، وكانت الآلهة تخرج بملابس محمولة بشرف على أكتاف الكهنة، فى أعياد رأس السنة، وبمراسم خاصّة وطقوس خاصّة، وكانت لها أهمّية ذات حدّين، وقد يقوم الإله بزيارة طقسية إلى معبودات اخرى بمناسبة الأعياد الكبيرة، لذا فإنّ (نابو) فى بورسيا يزور بانتظام والده مردوخ فى عيد رأس السنة الجديدة فى بابل (۲).

وتعدّدت الآلهة فى وادى الرافدين بتعدّد المدن والدويلات، وحصر السومريون آلهتهم فى مجموعتين: الثالوث الأوّل ويتألّف من «آنو» إله السماء «وأنليل» إله الأرض، و «إيا» إله المياه الجوفية، فجمعوا بذلك بين عناصر المادّة الثلاثة: السائل والهواء والجماد. والثالوث الثانى يتألّف من «شَمَشْ» إله الشمس،

۱- ۱ انظر قصة الحضارة، مصدر سابق: ۱۵۹- ۱۶۷. وانتصار الحضارة، مصدر سابق: ۹۳- ۹۴. ومجلة العربى، استطلاع: سليمان مظهر: ۱۴۲- ۱۴۳ منهم من اختصر القصّة ومنهم من فصّلها.

۲- ۲ انظر عظمة بابل، د. هارى ساكز، ترجمة د. عامر إبراهيم: ۴۱۲.

ص: ۳۴

و «سين» إله القمر، و «أدَدْ» الذي يجمع كلّ عناصر الطبيعة. وأدَدْ هذا أدخله «الاكديون» معهم من بلاد «أمورّو». وأضافت كلّ دولة إلهاً خاصّاً بها مثل «مردوخ» و «آشور» و «عشتار» و «نَبُو» (۱).

وأهم الأبنية الدينية عندهم هي المعابد والمقابر: وعُرفت المعابد باسم «الزقورة» أقدمها ما بناه السومريون، وأشهرها «برج بابل» حيث عُبد الإله «نَبُو» (۲).

وكان لكلّ مدينة مهمّة- في بلاد ما بين النهرين- معبد مهم، وفي كلّ معبد برج شامخ يسمّونَهُ «زقورة» شكله مربّع في المعابد المربعة، ومستدير في المعابد البيضوية، تراقب منه الكواكب والنجوم. نظراً لما لعلم الفلك من أهمّية وتأثير في الحياة اليومية والدينية، وكانوا يعلنون من خلاله بداية رأس السنة الجديدة، ليعلنوا بدايات الطقوس الدينية السنوية لزوّار الزقورة في المعبد. وقد كشفت التنقيبات الحديثة عن زقورات عديدة منها زقورة اورك ونيبور وآشور وخورس ونمرود وماري وغيرها، وكانت هذه أماكن مهمّة (للحج) في أعياد رأس السنة المعروفة عندهم آنذاك على ما يبدو..

«ويشير لنزن H. Lenzen، وهو حُجة في موضوع الزقورة، ويؤكد أن المعبد العالي- أعلى الزقورة- لم يكن مجرّد مكان لاستراحة المعبود، بل أن طقساً حقيقياً كان يتمّ إجراؤه هناك. ولذا فقد كانت الزقورة بهذا المعنى «مذبحاً عظيماً» وفي داخل المعبد، قريباً من قاعدة الزقورة، كانت غُرفة الإله الرئيس، وعدد من المصليات الصغيرة بالنسبة للمعبودات المرتبطة به، على حين يوجد خارج هذا

۱- ۱ الحضارات، لبيب عبد الساتر: ۴۲.

۲- ۲ المصدر السابق: ۴۶ وقصّة الحضارة ۱، ۲، الباب التاسع بابل.

ص: ۳۵

الهيكل الرئيسی ساحهٔ كبيرهٔ حيث تجتمع العامّهٔ فی أوقات الأعياد» (۱).

يبدو من كلّ ذلك ومن الطقوس والمراسيم والرحلات الجماعيهٔ إلى الزقورهٔ (۲) ومع ما يصطحبها من ذبح وقرابين وأعمال خاصهٔ من النحور وبعض المراسم الطقسيهٔ السنويهٔ. أنّها- الزقورات- أماكن حج لتلك الأقوام.. وبالطبع هو حج وضعی غير إلهی واضح من آلهتهم المتعدّدهٔ وعبادتهم للآلههٔ البشر.

والجدير بالذكر أنّ حضارهٔ وادی الرافدين الطويلهٔ فی الزمن وفی التاريخ، لابد من أن تكون هناك أماكن اخرى محليهٔ قصدها الزوّار؛ لغرض أداء طقوس معيّنهٔ وشكليات منظمهٔ يمكن أن تحسّها أنواعاً من حجّهم.. ولعل السبب فی عدم العثور على تلك الحقائق هو طبيعهٔ البناء عندهم، حيث كان ذا أساس طينی ممّا لم تبقِ الفيضانات له شيئاً عبر الزمن. وهذا خلاف طبيعهٔ البناء المصری القديم الذی غالباً ما يكون بناء صخرياً يحافظ عليه مناخ مصر الجاف آلافاً من السنين.

وهناك مذهب دينی فی حضارهٔ وادی الرافدين يرجع تاريخه إلی عهدٍ قديم، وهو مذهب الصابئهٔ، يدّعی أصحابه: «أنّ معلميهم الأوّلين هما النبيان الفيلسوفان عاذيمون (أی الروح الطيب) وهرمس، وقد قيل: إنّ عاذيمون هو شيث (۳) الابن الثالث لآدم عليه السلام، وإنّ هرمس هو النبی إدريس عليه السلام (۴). وكان

۱- ۱ عظمهٔ بابل، مصدر سابق: ۴۱۰.

۲- ۲ الزقورهٔ: برج هرمی متعدّد الطبقات، يعتبر بمثابهٔ صرح دينی نموذجی على ما يصفه د. هنری‌س. عبودی فی معجم الحضارات الساميهٔ. والزقورهٔ تبدو فی الصورهٔ أعلاه كالكعبهٔ وسط الحرم. فالزقورهٔ وسط المعبد تحيطها ساحهٔ كبيرهٔ لاستيعاب الحجاج فی موسم رأس السنهٔ.

۳- ۳ شيث: وتعنی هبهٔ اللّه، وهو الجد الثالث لإدريس عليه السلام، وقد حكم فی الناس بعد أبيه آدم عليه السلام واستشرع صحفه وما أنزل عليه فی خاصته من الأسفار والأشراع.

۴- ۴ إدريس: تزعم الصابئهٔ أنّه هرمس، ومعنی هرمس عطارد. وقد أنزل اللّه تعالى عليه ثلاثين صحيفهٔ، وكان قد نزّل قبل ذلك على آدم، إحدى وعشرين صحيفهٔ، وأنزل على شيث تسعاً وعشرين صحيفهٔ فيها تهليل وتسبيح.

ص: ۳۶

أورفیوس أیضاً من فلاسفتهم وأنبیائهم» (۱).

وكانت هذه الفئة تسكن مدینة حرّان الواقعة فی الجنوب الشرقی من تركیا الحالیة «وهی بین طریق الموصل والشام» (۲).

وحرّان: مدینة قدیمة جدّاً تقع قرب منابع نهر البلیخ بین الرها ورأس عین،

۱- ۱ انظر: دائرة المعارف الإسلامیة، مجموعة من المستشرقین ۱۴: ۸۹. وكتاب الملل والنحل للشهرستانی: ۴۷.

۲- ۲ معجم البلدان، یاقوت الحموی، باب الحاء والراء.

ص: ۳۷

وقد اشتهرت بأنّها موطن إبراهيم عليه السلام ولابان، ولكن شهرتها ترجع بصفة خاصة إلى أنّها (قصبة الصابئة) وموئل دينهم (۱). واشتهرت فى التاريخ أنّها مقر عبادة (سن) إله القمر الذى زيّن معبده أكثر من ملك من ملوك الآشوريين، ولم تتغيّر الأحوال فى‌المدينة على‌أثر انهيار سلطان الكلدانيين وقيام دولة الفرس (۲). وكانت مركزاً هامّاً فى طريق التجارة من نينوى إلى قرقميش، وكانت مركزاً لعبادة إله القمر الآشورى (۳).

وحرّان المدينة المقدّسة عند الصابئة، ومقصد حجّهم حيث معبدهم مقر «سن» إله القمر، «وفئة من الصابئة تحج إلى حاران- أو حرّان- التى هاجر إليها إبراهيم عليه السلام، وينسب إليها الصابئة الحرّانيون» (۴).

والصابئة فرق متعدّدة، رغم قلّتهم، فمنهم من ينتمى إلى كاظم بن تارح، وقد ذكرهم المقريزى بين الفرق المختلفة، وكأنّهم يقابلون دين إبراهيم عليه السلام بدين أخ له ينتمى إلى تارح، أبى إبراهيم فى رواية العهد القديم (۵).

ويقال: إنّ الحرّانيين ينتمون إلى حاران أو هادان أخى إبراهيم عليه السلام وقد يكون هو نفسه المقصود (كاظم) ولا دليل لنا على ذلك.

وقد ذكر أبو ريحان البيرونى فى الآثار الباقية: «أنّ أوّل المذكورين من الصابئة: يعنى المتنبئين يوذاسف، وقد ظهر عند مضى سنة من ملك طمهورث بأرض الهند، وأتى بالكتابة الفارسية، ودعا إلى ملّة الصابئين فاتبعه خلق كثير،

۱- ۱ انظر دائرة المعارف الإسلامية ۷: ۳۵۴.

۲- ۲ انظر المصدر السابق: ۳۵۵.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسّرة، مصدر سابق: ۶۹۵.

۴- ۴ إبراهيم أبو الأنبياء، العقّاد: ۸۹.

۵- ۵ المصدر السابق: ۹۰.

ص: ۳۸

وكانت الملوك البيشدادية وبعض الكيانية ممّن كان يستوطن بلخ، يعظّمون النيرين والكواكب وكليات العناصر، ويقدّسونها إلى وقت ظهور زرادشت عند مضى ثلاثين سنة من ملك بشتاسف، وبقايا أولئك الصابئين (بحرّان) يُنسبون إلى موضعهم، فيقال لهم: الحرانية وقد قيل: إنّها نسبة إلى هاران بن ترخ أخى إبراهيم عليه السلام وأنّه كان من بين رؤوسائهم أوغلهم فى الدين وأشدّهم تمسّكاً به» (۱).

والصابئة الحرّانيون لهم أقوال وآراء فى إبراهيم الخليل عليه السلام يندى لها الجبين، نذكر هنا ما ينسبونه إليه عليه السلام فى خروجه عن دينهم: «إنّ إبراهيم عليه السلام إنّما خرج عن جملتهم؛ لأنّه خرج فى قلفته برص، وإنّ من كان به ذلك فهو نجس لا يخالطونه، فقطع قلفته بذلك السبب يعنى (اختتن) (۲)، ودخل إلى بيت من بيوت الأصنام، فسمع صوتاً من صنم يقول له: يا إبراهيم خرجت من عندنا بعيب واحد، وجئتنا بعيبين، اخرج ولا تعاود المجىء إلينا، فحمله الغيظ على أن جعلها جُذاذاً، وخرج من جملتهم، ثم إنّه ندم بعدما فعله، وأراد ذبح ابنه لكوكب المشترى صدق توبته ففداه بكبش» (۳).

وهناك فرقة اخرى من فرق الصابئة تسمّى (المنديا) (۴) أو الصبوة، وهى فرقة يهودية نصرانية تمارس شعيرة التعميد فى العراق» (۵).

وهناك فرق اخر، أفرد الشهرستانى لهم ولشرح أقوالهم فصلًا مسهباً غاية الإسهاب فى كتابه الملل والنحل.

۱- ۱ الميزان فى تفسير القرآن، العلّامة الطباطبائى: ۱/ ۱۹۴.

۲- ۲ مذهب الصابئة يحرّم الاختتان ويعتبر المختتن خارجاً عن الدين.

۳- ۳ الميزان، مصدر سابق: ۱/ ۱۹۴.

۴- ۴ المنديا: فرقة من الصابئة وتسمّى نصارى يوحنا المعمدان.

۵- ۵ دائرة المعارف الإسلامية ۱۴: ۸۹.

ص: ۳۹

ومن الصابئهٔ من یعظِّم بیت اللّه الحرام والکعبهٔ الشریفهٔ ویحج إلیها کلّ عام، وجاء فی الأحادیث الشریفهٔ، أن أنواعاً من الحج تعدّدت فی الجزیرهٔ العربیهٔ قبل الإسلام، وکان أهمّها الحج الجاهلی والحج الحنفی والحج الصابئی.

وتـدّعی هـذه الفرقهٔ من الصابئهٔ أنّ الکعبهٔ وأصـنامها کانت لهم، وعبدتها کانوا من جملتهم وأنّ اللّات کان باسم زحل، والعزی باسـم الزهرهٔ» (۱).

«والمشـهور عن الصابئـهٔ أنّهم یوقّرون الکعبـهٔ فی مکّهٔ، ویعتقـدون أنّها من بناء هرمس أی إدریس علیه السـلام وأنّها بیت زحل أعلی الکواکب السیّارهٔ، ویُنقل عنهم عارفوهم أنّهم قرأوا صفهٔ محمّد صلی الله علیه و آله فی کتبهم ویسمّونه عندهم ملک العرب» (۲).

وقد ذکرهم القرآن الکریم فی ثلاثهٔ مواضع فقط، فی سورهٔ البقرهٔ، الآیهٔ ۶۲.

وفی سورهٔ المائدهٔ، الآیهٔ ۶۹، وفی سورهٔ الحج الآیهٔ ۱۷.

والصابئهٔ دین خلیط یشبه الجمیع فی بعض شرائعه، ویختلف مع الجمیع فی بعض شرائعه الاخری (۳).

الحجّ فی الحضارهٔ الفارسیهٔ القدیمهٔ

۱- ۱ المیزان، مصدر سابق.

۲- ۲ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد: ۹۱.

۳- ۳ إبراهیم أبو الأنبیاء، العقّاد: ۸۷- ۹۰.

ص: ۴۰

وفی الحضارهٔ الفارسیهٔ القدیمهٔ طقوس ورسوم وعقائد وأفکار یطول تعدادها لو أردنا الدخول إلیها، ولکن لنأخذ مقطعاً من تأریخها ولیکن الدیانهٔ الزرادشتیهٔ؛ لأنّها أشهر دیانهٔ وأعظم تعالیم تمسّک بها الفرس منذ «القرن العاشر أو السادس قبل المیلاد» (۱) حتی یومنا هذا توجد بقایا من أتباعه فی مدینهٔ یزد الإیرانیهٔ وفی الهند.

والذین یدینون بالزرادشتیهٔ یعرفون أن تعالیمها تأتی من خمسهٔ کتب مقدّسهٔ ادّعی بها نبیّهم «زرادشت» (۲) أنّها من وحی الإله الواحد أهورا- مزدا إله النور والسماء.

ومن بین هذه الکتب المقدّسهٔ کتاب «الیاسنا» الذی یهتم بالشعائر والطقوس، ویمکننا أن نلتقط من هذه الشعائر والطقوس ما یمکن أن یمثّل شکلًا من أشکال الحج، حیث الزیارات السنویهٔ المقدّسهٔ إلی المعابد فی الأعیاد الدینیهٔ، وتقدیم

۱- ۱ قصّهٔ الحضارهٔ، مصدر سابق مج ۱، ۲: ۴۲۵.

۲- ۲ زرادشت: مصلح إیرانی ظهر فی إیران قبل المسیح بمئات السنین، وله قصّهٔ مثیرهٔ ومؤثّرهٔ فی‌نفوس أتباعه، قیل: إنّ امّه قد حملت به حملًا إلهیاً قدسیاً؛ ذلک أنّ الملاک الذی کان یرعاه تسرّب إلی نبات الهَوْما، وانتقل مع عصارته إلی جسم کاهن حین کان یقرّب القرابین المقدّسهٔ. وفی ذلک الوقت نفسه دخل شعاع من أشعهٔ العظمهٔ السماویهٔ إلی صدر فتاهٔ راسخهٔ النسب سامقهٔ فی الشرف، وتزوّج الکاهن بالفتاهٔ، وامتزج الحبیسان الملاک والشعاع، فنشأ «زرادشت» من هذا المزیج، وقهقهه حین ولادته ففرّت من حوله الأرواح الخبیثهٔ، وأحبّ هذا الولید الحکمهٔ والاصطلاح، ثم تجلّی له رب النور الإله الأعظم، ووضع فی یدیه الأبستاق أی کتاب العلم والحکمهٔ، وأمره أن یعظ الناس.

وهکذا ولد الدین الزردشتی. وعمّر زرادشت طویلًا حتّی أحرقه ومیض برق، وصعد إلی السماء، انظر قصّهٔ الحضارهٔ مج ۱، ۲: ۴۲۴.

ص: ۴۱

الأضاحی والنذورات ومراسم مقدّسة أخری .

ومن تعالیم هذا الکتاب «التقوی یقول وِل دیورانت: «ولمّا کانت التقوی أعظم الفضائل علی الإطلاق- عندهم- فإنّ أوّل ما یجب علی الإنسان فی هذه الحیاة أن یعبد اللَّه بالطهر والتضحیة والصلاة. ولم تک فارس الزرادشتیة تسمح بإقامة الهیاکل أو الأصنام، بل کانوا ینشئون المذابح المقدّسة علی قمم الجبال وفی القصور أو فی قلب المدن، وکانوا یوقدون النار فوقها تکریماً لآهورا- مزدا، أو لغیره من صغار الآلهة. وکانوا یتخذون النار نفسها إلهاً یعبدونه ویسمّونها «أنار» ویعتقدون أنّها ابن إله النور.. وکانوا یقرّبون إلی الشمس، وإلی النار- التی لا تنطفئ طیلة العام- وإلی أهورا مزدا، القرابین من الأزهار والخیر، والفاکهة، والعطور، والثیران والضأن والجمال والخیل والحمیر وذکور الوعل، وکانوا فی أقدم الأزمنة یقرّبون إلیها الضحایا البشریة (۱) شأن غیرهم من الامم، ولم یکن للآلهة من هذه القرابین إلّارائحتها.. لأنّ الآلهة- علی حدّ قول الکهنة- لیست فی حاجة إلی أکثر من روح الضحیة (۲).

«وکان الأهلون- عامّة الشعب المتدیّن- یجتمعون فی الأعیاد وکلّهم یرتدون الملابس البیضاء. وکانت (الشریعة الأبستاقیة) (۳) کالشریعتین الإبراهیمیة والموسویة ملیئة بمراسم التطهیر والحذر من القذارة، وکان فی کتاب الزرادشتیة المقدّس فقرات طویلة ممّا خصّت کلّها بشرح القواعد الواجب اتباعها لطهارة الجسد والروح» (۴).

۱- ۱ کان تقدیم الضحایا البشریة قبل عهد زرادشت أی فی عهد المجوس الذی قضی علیهم زردشت.

۲- ۲ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۴۳۳.

۳- ۳ الشریعة الابستاقیة هی نفسها شریعة زرادشت وتنسب إلی کتابه المقدّس.

۴- ۴ قصّة الحضارة، مصدر سابق: ۴۳۹.

ص: ۴۲

ونفهم ممّا سبق أنّ لهم زیارات سنویة لمعابدهم یؤدّون فیها طقوساً خاصّة، ویلبسون الملابس البیضاء، ویقدّمون الضحایا ممّا یدلّ علی أنّ لهم حجّاً بالمعنی اللغوی الذی فهمناه.

الحجّ فی الحضارة الرومانیة

والحضارة الرومانیة کذلک عرفت الحج، ونظّمت طقوساً خاصّة به، ممّا یتعلّق بدیاناتهم، وبنت الهیاکل الکبیرة (۱) المربعة منها والمستدیرة، وقدّمت للهیاکل

۱- ۱ أعظم هیکل رومانی هو هیکل یونو المنذرة أو الحارسة علی القمّة الشمالیة لتل الکپتول وعلی المنحدر الجنوبی من هذا التل یوجد معبد ساترن، ویرجع بناء ذلک المزار أو الهیکل- الذی هو أقدس مزارات رومة- یرجع تاریخه إلی عام ۴۹۷ ق. م. ولا زالت آثاره باقیة حتی الآن. انظر قصّة الحضارة: مج ۵، ۱: ۲۹۳.

ص: ۴۳

هـدایا وأضاحی ونـذورات، وعددت الآلهة، وجعلت لکلِّ شـیءٍ إلهاً، وتقرّبت للآلهة؛ لکسب عونها ورضاها، أو لاتقاء غضـبها. وکان الکهنـة یوصون الحجّاج أو زائری الهیاکل والمعابـد أن یلتزموا بالدقّة فی ممارسـة الطقوس والشـعائر الخاصّة فی الاحتفال فی الأعیاد السـنویة وغیر السـنویة، وإذا وقع خطأ فی طقس من هـذه الطقوس أیّاً کـان نوعه، وجبت إعـادته من جدیـد، ولو تطلّب ذلک إعادته ثلاثین مرّة (۱).

وکان أهم ما فی هذه الطقوس، التضـحیة «وفی أکبر المناسبات أهمیة عید السو أفی یلیة (Su- ove- taur- illa) أی (عید الخنزیر والشاة والثور). وکانوا یعتقـدون أنّه إذا تلیت صـیغ خاصة علی التضـحیة اسـتحالت إلی إله یراد منه أن یتقبلها، وعلی هذا الاعتبار کان الإله نفسه هو الذی یضحی به» (۲).

وهنـاک مراسم اخری فی عیـد التطهیر «وکـان احتفـال التطهیر من أکثر هـذه الطقوس متعـة، وکان هـذا التطهیر یحـدث للمحصولات الزراعیـة أو لقطعات الماشـیة أو للجیش أو المدینة. وکانت الطریقة المتّبعة فی هذا الاحتفال أن یطوف موکب بالشـیء المراد تطهیره، ویقدّم له الصلوات والذبائح والانشودة والرقیة، ورجاء الإجابة فانّ لم یجب فإن غلطة ما قد حدثت فی الطقوس المرعیة» (۳).

وهنـاک مکـان آخر حـجّ إلیه الرومان وهو إله القمر (دیانا) «وکانت- دیانا- فی زعمهم روح شـجرة جیء بها من أریشـة (Aricea) حینما خضع هذا الإقلیم من

۱- ۱ المصدر السابق ۲: ۱۳۳.

۲- ۲ المصدر السابق: ۱۳۵- ۱۳۶.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ۴۴

أقـالیم لاـ ینوم لحکم رومـهٔ، وکان بالقرب من أریشـیا بحیرهٔ نیمی Nemi وأیکتهـا، وکان فی هـذه الأیکـهٔ مزار دیانا ملجأ الحجاج، الـذین یعتقدون أن هذه الالههٔ قد ضاجعت فی هذا المکان فربیوس Virbius ملک الغابات الأوّل، ولکی یضـمن دوام إخصاب دیانا وإخصاب الأرض کان خلفاء فربیوس- وهم کهنـهٔ الصائـدهٔ وأزواجها- یسـتبدل بهم جمیعاً واحداً بعد واحد أی عبد قوی یعوذ نفسـه بغصن (یسـمی عنـدهم بالغصن الـذهبی) یأخذه من شـجرهٔ البلوط المقدّسهٔ إحدی أشـجار الأیکهٔ ویهاجم الملک ویذبحه. وقد بقیت هذه العادهٔ إلی القرن الثانی بعد میلاد المسیح» (۱).

أمّا رومهٔ المسیحیهٔ فقد اتخذت أشکالًا أُخری وأنواعاً من الحج سنتحدّث عنها فی (الحجّ فی الدیانهٔ المسیحیهٔ) وفی وقت آخر إن شاء اللَّه تعالی.

الحجّ فی الحضارهٔ الهندیهٔ

أمّا الهند فلا یمکن استیعابها بأسـرها؛ لکثرهٔ السکان واختلاف اللغات والأدیان، فهی لیست أمّهٔ واحدهٔ کمصر أو بابل أو رومهٔ، بل هی قارهٔ بأسرها.

لقـد تعـدّدت الأدیان فی الهنـد، وأخـذت عقائـدها الدینیـهٔ ما یمثِّل کل مراحل العقیـدهٔ من الوثنیهٔ البربریهٔ إلی أدقّ وحدهٔ فی الوجود وأکثرها روحانیهٔ منذ عام ۲۹۰۰ ق. م إلی یومنا هذا..

لقد وضع الهنود لهم أعیاداً سـنویهٔ کغیرهم من الامم، وبعض هذه الأعیاد یصاحبها حج إلی معبد أو ضـریح أو هیکل معیّن، وممارسـهٔ بعض الطقوس والشعائر المتعلّقهٔ به، کما وجدنا ذلک عند بقیهٔ الامم، فغالباً ما یکون الحج مصحوباً بعید سنوی دینی.

۱- ۱ المصدر السابق: ۱۲۸.

ص: ۴۵

والهنود قلّدوا ما قبلهم من الأقوام، الـذين نطقوا باللغـة السنسـكريتية، ووضـعوا الأدعيـة والصـلاة وغيرها بتلك اللغـة «فكانوا يسـيرون مواكب عظيمـة أو أفواجاً من الحجّاج، قاصـدين الأضـرحة القديمة، ولم يكونوا ليفهموا ما يُقال من عبارات الصـلاة في تلك المعابد؛ لأنّها كانت تقال «بالسنسـكريتية»، لكنّهم كانوا يفهمون الأوثان، فيزينونها بالحُلي ويطلونها بالطلاء، ويرصعونها بكريم الأحجار، وكانوا أحياناً يُعاملونها كأنّها كائنات بشرية..» (۱).

وأعظم الطقوس الجماعيـة عنـدهم هي تقـديم القرابين، فالقربان عنـد الهنـدي ليس مجرّد صورة خاويـة؛ لأنّه يعتقـد أنّه إذا لم يقـدمه للآلهـة طعاماً تموت جوعـاً. ولما كان الإنسان في مرحلـة أكل اللحوم البشـرية، كانت القرابين في الهنـد كما في غيرها من بلاد العالم قرابين أو ضحايا بشرية.. فلمّا تقدّمت الأخلاق أخذت الآلهة تكتفي بالحيوان قرباناً (۲).

وهناك مركز رئيسـي للحج عند الهنود منذ القرن ۱۶ ق. م وهو مدينة بنارس الجليلة القدر عندهم، كعبة يحجّون إليها سـنوياً يقدّسـها البوذيون والچين، ويقصدها سنوياً حوالي مليون حاج؛ لزيارة معابدها وأضرحتها التي تمتد ۶۵ كم بموازاة الجانج، وبها المعبد الذهبي (۳).

يقول وِل ديورانت في شأن هذه المدينة:

«.. وبنارس هي المدينـة المقدّسـة للهنـد، إذ باتت كعبـة الملايين من الحجّاج، يؤمّها الشـيوخ من الرجال والعجائز من النساء جاءوا من كل أرجاء البلاد؛ ليستحموا في النهر المقدّس (نهر الكنج) حتى يستقبلوا الموتى برآء من كل إثم

۱- ۱ قصة الحضارة مج ۲، ۳: ۲۲۴- ۲۲۵.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسّرة: ۴۰۷.

ص: ۴۶

أطهاراً من كلّ رجس. إنّ الإنسان ليأخذه الخشوع، بل يأخذه الفزع، حين يتذكّر أنّ أمثال هؤلاء الناس قد حجّوا إلى بنارس مدى ألفى عام، وغمسوا أنفسهم فى مياهها، وهم يرتعشون من لذعة البرد فى فجر الشتاء، وشمّوا بنفس متقززة لحم الموتى وهو يحترق، فعلوا كلّ ذلك وهم يفوهون بنفس الدعوات التى كان يقينهم أن تجاب، فعلوا ذلك قرناً بعد قرن، وتوجّهوا بالدعاء إلى نفس الآلهة التى لبثت على صمتها، لكن عدم استجابة إله من الآلهة لا يحول دون تعلّق القلوب به، فلا تزال الهند تعتقد اليوم بنفس القوّة، التى كانت تعتقد بها فى أى عصر مضى فى الآلهة، الذين لبثوا كلّ هذا الزمن ينظرون إلى فقرها وبؤسها، فلا تأخذهم من أجلها رحمة (۱).

وما زال السيخ يحجّون إلى هذا المعبد (۲).

هذا نموذج لحج الهند القديمة، وإذا تقدّمنا فى الزمن بعيداً من ذلك التاريخ..

تقدّمنا إلى الهند فى القرن الثامن الهجرى، فسنجد نوعاً آخر من الحج المنحرف ينسبه أصحابه هذه المرّة إلى الإسلام، ذلك هو الحج على المذهب الذِكْرى، وقد أسّس هذا المذهب: محمد المهدى الأتكى وضمّن آراءه فى كتابه البرهان. وتبدأ قصّة هذا الحج كما كتبها (أحمد مولانا عبدالخالق رحمه الله) قال:

«كان الضال ملّا محمّد المهدى الأتكى يسكن فى البنجاب، وانتقل منه من موضع إلى موضع حتى وصل إلى موضع مشهور فى بلوشستان المسمّى ب (كيج) وبدأ يستفيد من جهّال هذه المدينة استفادة باطلة، ويدّعى بأنّه «المهدى الموعود» فصار مقبولًا عند الخاص والعام، ولم يمر وقت طويل حتّى كتب كتاباً ينبئ فيه امّته المضلة بأنّه قد نُسخت الشريعة المحمّدية بمجيئه فى الدنيا، واعتقادها كفر ولا يحاسب أحد يوم القيامة عن أركانها الأربعة من الصوم والصلاة والحج

۱– ۱ قصة الرحمة مج ۲، ۳: ۲۲۷.

۲– ۲ انظر موسوعة المورد ۵: ۱۱.

ص: ۴۷

والزكاة» (۱).

وبهذا الكلام استطاع محمد الاتكى أن يصرف المسلمين سكّان تلك المنطقة عن الصوم والصلاة والزكاة، والحج إلى الكعبة المشرّفة؛ وابتكر لهم حجّاً مشابهاً للحج الاسلامى المحمّدى لأماكن شبيهة بمقدّسات مكّة المكرّمة كجبل عرفات وجبل ثور وغار حراء، وبنى لهم كعبة ليحجّوا إليها..

ويضيف أحمد مولانا قائلًا: «والحجّ:- لا يحج معتقدو هذا المذهب- المذهب الذِكْرى- إلى بيت اللّه الحرام الذى أمر المسلمون بزيارته. والحج فى الأشهر الحرام به، وإنّما اتخذوا جبلًا معروفاً باسم (كوه مراد) حجّاً لهم حيث يقع فى جنوب مدينة (تربت) وهو منسوب إلى نائبه الضال (ملّا مراد) ساكن تلك المدينة، فيحجّون فى الأيام الأخيرة من شهر رمضان بدايةً من ۲۷ من رمضان ويستغرق ثلاثة أيّام» (۲).

ويضيف أحمد مولانا أيضاً: «إنّ محمد الأتكى ادّعى أن كتابه (البرهان) (۳) أو بلغتهم (بركهور) كان ينزل عليه فى جبل (كوه إمام) من خلال «مهبط الالهام» أو الوحى تحت الشجرة، وجعل لهم هذا الجبل (كغار حراء) ثم اتخذ لهم ميداناً واسعاً كعرفة، حتى إذا أرادوا الحج ذهبوا لزيارته، وهو ميدان يسمّى (بكوه دن) و «كارتيزهزئى» الذى كان نهراً أو منبعاً للماء أصبح لهم بئر زمزم كما فى مكة،

۱- ۱ الفاروق، مجلّة إسلامية ثقافية، فصلية تصدر عن رئاسة الجامعة الفاروقية، باكستان: ۳۶ العدد ۵۴/ ۱۹۸۸ م.

۲- ۲ المصدر السابق: ۳۷.

۳- ۳ البرهان: كتاب ألّفه محمّد الاتكى مؤسس المذهب الذكرى، وادّعى أنّه قرآنهم الجديد النازلعليه من السماء والناسخ لقرآن محمّد بن عبداللّه صلى الله عليه و آله. وفيه كلّ تعاليم المذهب، وفيه أحاديث عن الرسول صلى الله عليه و آله تؤكّد ظهور محمد المهدى الاتكى فى القرن الثامن الهجرى.

ص: ۴۸

ولکن من سوء حظّهم نصب ماؤها الآن بأفعالهم الخبیثة» (۱).

والطریف أنّ معتنقوا هـذا المـذهب یؤکّـدون بـأن للرسول محمّـد صـلی الله علیه و آله أحادیث تؤکّـد وتبشِّر بمجیء إمامهم الموعود (محمّد المهدی) فنری الشیخ محمد قصر قندی فی نسخته القلمیة یقول:

«إنّ أبا بکر الصدیق سأل رسول اللَّه صلی الله علیه و آله: متی یکون خروج المهدی؟ فقال صلی الله علیه و آله:

السلام: «فقد یجیءُ بعد مماتی فی بلاد الهند سنة سبع وسبعین وتسعمائة اسمه کاسمی واسم أبیه کاسم أبی» (۲).

الحج فی الصین

والصین کالهند، فهی لیست موطناً موحّداً لُامّة واحدة، بل هی خلیط من أجناس مختلفة الأصول متباینة اللغات غیر متجانسة.

وقد حدّثنا المؤرِّخون بأحادیث مفصّـلة عن تاریخها منذ (۳۰۰۰ ق. م) حتی العصـر الحدیث، عن عاداتهم، وتقالیدهم ودیاناتهم... ولو أردنا استیعاب ذلک بأسره لطال الحـدیث بنا، ولکن لنأخذ نموذجاً یعطینا صورة من صور حجّهم وطریقتهم فی الحج، علماً أن أشـهر هیکل حـج إلیه الصـینیون کان «هیکل السـماء ومـذبحه» اقتداءً بسـنّة الإمبراطور العظیم «تای دز ونج»: الذی کان یأتی هذا الهیکل فی الساعة الثالثة من صـباح رأس السـنة الصینیة للصلاة والدعاء لأسرته بالتوفیق والفلاح ولشعبه بالرخاء، ویقرب القربان للسماء التی یرجو أن تکون بصـفّهِ لا ـ فی صفِّ عـدوّه. وموقع هـذا الهیکـل بـالقرب من سور «پیچنـچ» التتاری الجنوبی، ویتکوّن مذبـح هـذا الهیکل من سلسلة من الدرج والشرفات الرخامیة،

۱- ۱ الفاروق، مصدر سابق: ۳۷.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۳۶.

ص: ۴۹

التی کان لعددها الکبیر ونظامها أثر سحری فی نفوس الزائرین، والهیکل نفسه

هیکل السماء فی پینج

(بچودة) معد من ثلاث طبقات قائمة فوق ربوة من الرخام ومشیّدة من الآجر والقرمید الخالیین من الرونق. وقد نزلت صاعقة من السماء علی هذا المعبد فی عام ۱۸۸۹ م فأصابتهُ بضرر بلیغ (۱). وهذا الهیکل کان لعامّة الشعب أی کان معبداً عامّاً للجمیع. وهناک معبد وهیکل مخصّص للدیانة الرسمیة، وهو الذی أمر ببنائه الامبراطور المذکور أعلاه «تای دزونج»، فلمّا تربّع هذا الامبراطور العظیم علی العرش أمر أن یشاد هیکل ل «کنفوشیوس»(۲)

فی کلّ مدینة وقریة فی جمیع أنحاء

۱- ۱ قصّة الحضارة: مج ۲، ۴: ۱۸۲- ۱۸۳.

۲- ۲ کنفوشیوس: ولد عام ۵۵۱ ق. م فی مدینة تشو- فو إحدی البلاد التی کانت تکوّن وقتئذمملکة لو، والتی تکون الآن ولایة شان توبخ. وصار فیلسوفاً، ومعلّماً محبوباً تهوی إلیه القلوب، وألّف خمسة مجلّدات أسماها کتب القانون الخمسة ولما مات عن عمر ۷۲ سنة واراه تلامیذه التراب باحتفالٍ مهیب جدیر بما تنطوی علیه قلوبهم من حبٍّ له وإجلال، وأحاطوا قبره بأکواخٍ لهم أقاموا فیها ثلاث سنین یبکون کما تبکی الأبناء علی آبائهم. ثم بنی الامبراطور العظیم فوق قبره هیکلًا ومعبداً وأصبح مکاناً یحجّ إلیه الصینیون آلاف الأعوام.

ص: ۵۰

الامبراطوريـة، وأن يقرب لهـا القرابين (۱). وبنى هيكلًا خاصّاً للديانة الرسـمية فى «پيكنج» والمسـمى بهيكل «كنفوشـيوس»، وحارسـه پاى- لو، وكان فخماً محفوراً أجمل حفر..

وقـد أدخلـت عـدّة تعـديلات عليـه، وأُعيـد بنـاء بعض أجزائه عـدّة مرّات، وقـد وضـعت لوحـة روح أقـدس القديسـين المعلم والأب كنفوشـيوس على قاعدة خشبية فى مشكاة مفتوحة فى الهيكل، ونقشت العبارة الآتية فوق المذبح الرئيسى: «إلى المعلِّم الأعظم والمثال الذى تحتذيه عشرة آلاف جيل» (۲)..

ويمكن تسـجيل عـدد آخر من الأماكن العباديـة المناسـبة للحـج، ولكن نكتفى بهـذين النموذجين اللذين يعتبران أكثر الأماكن أهمّية وقصداً للزيارة فى تاريخ الصين.

الحجّ فى اليابان

وحين ننتقل إلى اليابان نجـدها قـد تأثّرت بالصـين بكثير من الامور كالفلسـفة والعقائـد الدينية وفن بناء المعابد وغيرها.. غير أنّ معابد اليابـان كـانت أغنى من معابـد الصـين زخرفاً وأرقى نحتاً. فما يُرى فى معابـد اليابان من بوّابات فخمـة على طول المرتقى أو المـدخل الذى يؤدّى إلى الحرم المقدّس وغيرها لا يُرى فى معابد الصين.

۱- ۱ قصة الحضارة: مج ۲، ۴: ۶۶.

۲- ۲ المصدر نفسه: ۱۸۲.

ص: ۵۱

واعتادت فئة فى اليابان على تقديس أرواح أسلافها فحيث تلتقى عبادة أرواح الأسلاف بالطقوس البوذية (۱) فى تعايش سلمى منسجم، تقوم معابد (الشينتو)- أى معابد تقديس أرواح الأسلاف- مستقلة عند المعبد البوذى ومجاورة له وتسمّى فى لغتهم: «فوجى ياما». ولفظة فوجى تعنى «النار» (۲).

كما يؤمون المعابد البوذية فى مدينة «نارا» حيث أقسم أسلافهم القدماء هناك على تحرير وطنهم من التبعية لإمبراطور الصين، فأصبح معبدها محجّةً لهم، ولم تكن ديانة «شنتو» بحاجة إلى تفصيل مذهبى أو طقوس معقّدة أو تشريع خلقى، ولم تكن لها طبقة من الكهنة خاصة بها، كلا! ولا تذهب إلى ما يبعث العزاء فى نفوس الناس من خلود الروح ونعيم الفردوس، فكان كلّ ما تطالب به من معتنقيها أن يحجّوا آناً بعد آن لأسلافهم وأن يقدّموا لهم ضراعة الخاشعين، ويضحّوا بالقرابين ويقدّموا النذور وغيرها (۳).

ويمكن أن نعدّ فى اليابان نوعاً آخر من الحج يتعلّق بالزهور ويمكن أن نسمّيه (حج الزهور):

فالزهور عند اليابانيين بمثابة الدين، فهم يعبدونها عبادة تشيع فيها روح التضحية بالقرابين، ويلتقى فيها أفراد الشعب جميعاً، وهم يرقبون فى كلّ فصل من فصول العام ما يلائمه من زهور، فإذا ما أزهرت شجرة الكريز مدى اسبوع أو اسبوعين فى أوائل شهر ابريل، يخيل اليك أنّ أهل اليابان جميعاً قد تركوا أعمالهم

۱- ۱ البوذية كانت تمارس فى اليابان ولكن دخلت تعاليمها عام ۵۲۲ م من الصين بتفاصيل، وكان‌على الرجل اليابانى أن يختار لنفسه مذهباً من عدّة مذاهب فى البوذية، أو أن يختار لنفسه سبيلها فى حج صبور إلى حيث دير «كوياسان» وهناك يبلغ الجنّة بأن يدفن فى أرض تقدّست بفضل ما فيها من عظام «كوبودايشى» ذلك العظيم فى علمه وفى تديّنه وفى فنّه.

۲- ۲ موسوعة المورد: ۴/ ۱۷۷.

۳- ۳ انظر قصّة الحضارة مج ۳، ۵: ۱۰- ۱۴.

ص: ۵۲

ليحدجوا فيها بأبصارهم، بل ليحجّوا إلى الأماكن المقدّسة التى تزخر بهذه المعجزة، ويكمل فيها إزهار هذا الضرب من الشجر (۱).

جيل فوجى باليابان

حجّ الأنبياء والحضارات

لقد قرأنا الحج فى الحضارات فى النقاط السابقة، ولنا أن نتساءَل... أين عاش الأنبياء، أليس هم بشراً جاؤوا لإرشاد الناس، وأين كان الناس أليسوا هم أبناء الحضارات المختلفة المنتشرة فى العالم؟

الحقيقة أنّ الأنبياء وهم كثيرون جدّاً، لابدّ من أنّهم عاشوا فى ثنايا الحضارات المختلفة يرشدون الناس، ويدلونهم على طريق اللّه الصائب، وعلى الرغم من أننا نعرف أنّ إبراهيم عليه السلام عاش فى حضارة وادى الرافدين، ويوسف وموسى عاشا فى حضارة وادى النيل، وأنبياء بنى إسرائيل عاشوا فى الحضارة الفينيقية وغيرها وآخرين فى حضارات اخرى إلّاأننا لا نعرفهم جميعهم كما جاؤوا فى أحاديث نبيّنا صلى الله عليه و آله والأئمّة الأطهار عليهم السلام أنّهم (۱۲۴) ألف نبىّ أو أكثر

۱- ۱ قصّة الحضارة، المصدر السابق: ۵۹.

ص: ۵۳

و (۳۰۰) رسول أو أكثر.

ولكن على أيّ حال لابدّ من أن نذكّر أنّ ما تبقى من الشعائر الصحيحة فى تلك الحضارات هى لا شك جاءت بفضل كثرة الأنبياء، الذين عاشوا فى تلك الحضارات. فقد كان الأنبياء فى كلّ الحضارات القديمة، القدوة الحقيقية لشعوبهم، بل ولكلّ العالم، وتصرّفاتهم مستمدّة من السماء لا يفعلون شيئاً شائناً مضرّاً بالناس، وإلّا لا يمكن وصفهم بالأنبياء والقدوة، فالمقتدى به يجب أن يكون أفضل الناس.. وهكذا كان الأنبياء فى كلّ مكان وزمان. ولمّا كان الحج فريضة أمر اللَّه تعالى بها، فقد كانوا أولى المبادرين إليه، وكانوا أفضل من يقوم به ويؤدّى شعائره وممارسته..

فقد جاء فى الروايات عن النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله وعن أهل بيته الكرام عليهم السلام، فى حج الأنبياء، أنّ الأنبياء والرسل مارسوا الحج جميعهم إلى بيت اللَّه الحرام، ولم يتخلّف نبىٌّ واحد عن هذا المسار الربّانى السماوى.. وإليك بعض الأحاديث:

عن الحلبى: سُئل أبو عبداللَّه الصادق عليه السلام عن البيت أكان يحجُّ إليه قبل أن يبعث النبىّ محمّد صلى الله عليه و آله؟ قال: «نعم وتصديقه فى القرآن الكريم قول شعيب حين قال لموسى حيث تزوّج: على أن تأجرنى ثمانى حجج ولم يقل ثمانى سنين، وأنّ آدم ونوحاً حجّا، وسليمان بن داود قد حجَّ البيت بالجن والإنس والطير والريح، وحجّ موسى على جمل أحمر يقول: لبيك لبيك، وأنّه كما قال اللَّه: إنّ أوّل بيتٍ وضع للناس للذى ببكة مباركاً وهدًى للعالمين، وقال: وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل، وقال: أن طهّرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود وأنّ اللَّه أنزل الحجر لآدم وكان البيت» (۱).

۱- ۱ بحار الأنوار: ۹۹/ ۹۴.

ص: ۵۴

وعن الإمام الرضا علیه السلام قال قائل: فَلِمَ جعل وقتها فی ذی الحجّة؟ قیل: لأنّ اللَّه تعالی أحبَّ أن یُعبد بهذه العبادات فی أیّام التشریق، فکان أوّل ما حجّت إلیه الملائکة وطافت به فی هذا الوقت، فجعله سُنّة ووقتاً إلی یوم القیامة. فأمّا النبیّون آدم ونوح وإبراهیم وعیسی وموسی ومحمّد (صلوات اللَّه علیهم) وغیرهم من الأنبیاء إنّما حجّوا فی هذا الوقت، فجُعلت سُنّة فی أولادهم إلی یوم القیامة» (۱).

وجاء فی أخبار مکة للأزرقی، قال: «ما بین الرکن إلی المقام إلی زمزم قبر تسعة وتسعین نبیّاً جاءوا حُجّاجاً فقبروا هنالک» (۲).

البیت الحرام، وجهة حج الأنبیاء

الحجّ فی الجاهلیة

۱- ۱ بحار الأنوار ۹۹: ۴۵.

۲- ۲ أخبار مکّة، الأزرقی ۱: ۶۸.

ص: ۵۵

والجاهلیون فی الجزیرة العربیة ونواحیها قدّسوا البیت الحرام والکعبة الشریفة ومنی وعرفات، وطافوا ولبّوا ونحروا ورموا الجمرات وأحرموا، وکان حجّهم یبدأ فی الیوم التاسع من شهر ذی الحجّة، وعندما یصل الحجاج إلی عرفة، یرتدون لباساً خاصّاً بالحجّ، قال الجاحظ فیهم:

«کانت سیماء أهل الحرم إذا خرجوا إلی الحلّ فی غیر الأشهر الحُرم، أن یتقلّدوا القلائد، ویُعلّقوا علیهم العلائق، فإذا أوذم أحدهم الحج، تزیّا بزیّ الحاج» (۱).

وکان الحج الإبراهیمی المحور الأساس فی الحج الجاهلی، ولم یحفظ العرب من شریعة إبراهیم علیه السلام شیئاً إلّاالحج فی مظاهره، غیر أنّهم زادوا فیه وحذفوا منه، وأدخلوا الأصنام فی الکعبة الشریفة، حتّی بلغ عددها أکثر من (۳۰۰۰) صنم، علی رأسها هُبل واللات والعزی ومناة... «.. وهم بعدُ یعظّمون الکعبة ومکّة، ویحجّون ویعتمرون، علی إرث إبراهیم وإسماعیل علیهم السلام..» (۲).

«ومنهم علی ذلک من بقایا عهد إبراهیم وإسماعیل یتنسّکون بها: من تعظیم البیت، والطواف به، والحج، والعُمرة، والوقوف علی عرفة ومزدلفة، وإهداء البُدن، والإهلال بالحج والعُمرة، مع إدخالهم فیه ما لیس منه» (۳).

وذکر القرآن الکریم حجّهم وأعمالهم عند بیت اللّه الحرام، بأنّها مزیج من الشرک والتفاخر والتجارة والهرج والمرج، قال تعالی: وما کان صلاتُهم عنی البیت إلّامُکاءً وتصدیة (۴)

ویتنسّکون عنده مناسک یسمّونها الیوم أعیاداً

۱- ۱ البیان والتبیین، الجاحظ: ۳/ ۶۵.

۲- ۲ کتاب الأصنام، الکلبی: ۶.

۳- ۳ المصدر نفسه.

۴- ۴ الأنفال: ۳۵.

ص: ۵۶

وموالد كشأن الجاهلية الاولى، وكلّ ذلك لا يصيب به تشريع اللّه.. إلّامن حمله الهوى أو الجهل أن يركب رأسه فيقول، بغير علم ولا بيّنة..» (۱). وقد عبّر عنهم القرآن الكريم بقوله تعالى:

إن يتّبعون إلّاالظن وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى أم للإنسان ما تمنّى (۲)

.وكان لكلّ قبيلة من قبائل العرب فى الجاهلية، صنمها الخاص بها تهلل حوله حتى تصل مكّة، وكان عبّاد كلّ صنم إذا أرادوا الحج، انطلقوا إليه، وأهلّوا عنده ورفعوا أصواتهم، ووقفت كلّ قبيلة عند صنمها وصلّت عنده، وكانوا عند ترديد التلبية يصفقون ويصفرون (۳). وكانت التلبية هى: لبيك اللهم لبيك لا شريك لك! إلّا شريكٌ هو لك! تملكُهُ وما مَلَكْ! (۴).

وكان من شعائرهم فى الطواف، أو لبعض منهم أن يطوفوا عرايا متجرّدين من كلّ ثيابهم، وهى شعيرة وثنية واضحة على الانحراف، وقد ذكر ذلك القرآن الكريم وكُتب الأحاديث والسير وكتب التاريخ.

والجدير بالذكر أنّ الحج إلى «بيت اللّه الحرام» فى زمن الجاهلية لم يكن مقتصراً على العرب فقط، فقد ذكر لنا التاريخ أن الفرس وغيرهم حجّوا إليه وعظّموه وقدّموا إليه الذهب والفضّة والقرابين والنذورات وغيرها.. فقد جاء فى مروج الذهب للمسعودى: «وقد كانت أسلاف الفرس تقصد البيت الحرام، وتطوف به، تعظيماً له».

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مصدر سابق، المعلق فى الحاشية محمد حامد الفقى: ۳۰۵.

۲- ۲ النجم: ۲۳.

۳- ۳ كتاب الأصنام: ۷.

۴- ۴ انظر أخبار مكة: ۱/ ۷۵. وتاريخ اليعقوبى: ۱/ ۲۹۶.

ص: ۵۷

والمکاء: الصفیر، بصیغة المبالغة طائر بالحجاز شدید الصفیر، ومنه المثل السائر: (بنیک حمّری ومکئکینی) والتصدیة التصفیق بضرب الیـد علی الید، والمعنی أنّ المشرکین فی الجاهلیة کان حجّهم وأعمالهم عند البیت الحرام، ما هی إلّا ملعبة من المکاء والتصدیة (۱). وهرجاً ومرجاً لا خشوع فیها ولا خضوع، لأنّها کانت صفیراً بالأفواه، وتصفیقاً بالأیدی (۲).

وقـد ورد عن الحـج فی الجاهلیـة: «أنّه کان یقام فی الجاهلیة کلّ عام سوقان فی شـهر ذی القعدة أحدهما فی عکاظ والآخر فی مجنة، وکان یتلوهما فی الأیام الاولی من ذی الحجـة سوق ذی الحجاز، ومنه یخرج الناس إلی عرفات مباشـرة.. وکان الحـج إلی عرفات یقع فی التاسع من ذی ا لحجة، وکانت شتّی قبائل العرب تشترک فیه» (۳).

وللحـج فی الجاهلیـة مظاهر خاصّـة من أعمال وحرکات عابثـة وأفعال لا معنی لها؛ لأنّها رموز وشـعائر ومناسک مقتبسـة وغیر مقتبسـة وتلبیات، دون حضور قلب وهـدی بل حضور هوی وعصبیـة قبلیة، ومحبّة وإخلاص للأصـنام التی لا تنفع ولا تضـرّ ولا تعی ولا تسـمع ولا تغنی عنهم شیئاً.

«والواضـح الـذی لا شکَّ فیه: أنّ الوثنیین قـد اتخذوا بما أوحی إلیهم الشـیطان، معابد وهیاکل یحجّون إلیها. لیس العرب وحدهم ولا فی القـدیم فقط، بل الناس هـذا شأنهم حین تغلب علیهم الجاهلیة، ویُشـرعون من الدین ما لم یأذن به اللَّه. فقد أقاموا من قبور أولیائهم ومن تماثیل معظمیهم الذین غلوا فیهم، فأعطوهم الآلهیة، ما یحجّون إلیه کلّ عام ولجدِّها إبراهیم علیه السـلام، وتمسّکاً بهدیه، وحفظاً لأنسابها،

۱- ۱ المیزان: ۹/ ۷۴.

۲- ۲ الکاشف ۳: ۴۷۵.

۳- ۳ دائرة المعارف الإسلامیة: مج ۷/ مادة الحج: ۳۰۴- ۳۰۵.

ص: ۵۸

وكان آخر من حجّ منهم ساسان بن بابك وهو جدّ أردشير بن بابك، وهو أوّل ملوك ساسان وأبوهم الذى يرجعون إليه... فكان ساسان إذا أتى البيت طاف به وزَمْزَمَ على بئر إسماعيل» (۱).

وقد افتخر بعض شعراء الفرس بعد ظهور الإسلام بذلك، فقال:

وما زلنا نحجُّ البيتَ قِدْما ونلقى بالأباطح آمنينا

وساسان بن بابك سار حتى أتى البيت العتيق يطوف دينا

فطاف به، وزمزم عند بئر لإسماعيل تروى الشاربينا (۲)

البيت الحرام وجهة حج الجاهلية أيضاً

وقال المسعودى أيضاً: «وكانت الفرس تهدى إلى الكعبة أموالًا فى صدر الزمان، وجواهر، وقد كان ساسان بن بابك هذا أهدى غزالين من ذهب وجواهر وسيوفاً وذهباً كثيراً فقذفه فى بئر زمزم» (۳). ثم يضيف قائلًا: «وقد ذهب قوم من مصنّفى الكتب فى التواريخ وغيرها من السير أن ذلك كان لجرهم حين كانت بمكّة، وجرهم لم تكن ذات مال فيضاف ذلك إليها، ويحتمل أن يكون لغيرها، واللَّه أعلم» (۴).

الفصل الثالث: الخليل المعلم الأول

منزلة النبى ابراهيم عليه السلام

۱- ۱ مروج الذهب، المسعودى ۱: ۲۵۴.

۲- ۲ المصدر السابق.

۳- ۳ المصدر نفسه: ۲۵۵.

۴- ۴ المصدر السابق.

ص: ۵۹

الفصل الثالث: الخليل المعلم الأول

لمناسک الحج

ص: ۶۰

ص: ۶۱

منزلة النبی ابراهیم علیه السلام

ذکر القرآن الکریم لإبراهیم علیه السلام منزلهٔ خاصهٔ إذ جعله إماماً یقتدی بشریعته جمیع الأنبیاء والرسل من بعده... وجعله أسوهٔ حسنهٔ لجمیع البشر بعده...

قال تعالی قد کانت لکم أسوهٔ حسنهٔ فی إبراهیم والذین معه (۱)

وقـال تعـالی أیضـاً: وإذ ابتلی ابراهیمَ رَبُّه بکلمات فأتمّهنّ قال إنی جاعلک للناس إماماً قال ومن ذریتی قال لا ینال عهـدی الظالمین* وإذ جعلنا البیت مثابـهً للناس وأمناً واتخـذوا من مقام إبراهیم مُصَـلّی وعَهِـدْنا إلی إبراهیم وإسـماعیل أن طهرا بیتیَ للطائفین والعاکفین والرکع السجود (۲)

.فبعـد أن امتحن واختبر إبراهیم علیه السـلام بکلمـات اللَّه تعـالی طیلـهٔ عمره الشـریف وتخرج برتبـهٔ عالیـهٔ، ونجـاح باهر، ابتلی واختبر بالکواکب (۳) والأصنام (۴)

۱- ۱ الممتحنهٔ: ۴.

۲- ۲ البقرهٔ: ۱۲۴- ۱۲۵.

۳- ۳ الأنعام: ۷۵- ۸۰.

۴- ۴ الصافات: ۹۱- ۹۹، والأنبیاء: ۵۷- ۶۰.

ص: ۶۲

ومحاربة أبيه (۱) له ولعقيدته (۲). والهجرة عن الوطن (۳)، وقبلها امتحن بإلقاء شخصه الكريم فى النار الذى أضرمها الوثنيون للقضاء عليه(۴)

، والالتزام بأمر الذبح لابنه البكر إسماعيل عليه السلام (۵)، وغيرها من الكلمات والامتحانات، وبعد أن أتمّها عليه السلام على أكمل وجه، برزت لياقته وكفاءته عند خالق الكون مع علم مسبق، أن يجعله للناس إماماً فى أواخر عمره الشريف، بعد أن كان نبياً معصوماً من أولى العزم، فتقلّد شرف الإمامة والقدوة الصالحة.

قال صاحب الميزان: وإذ ابتلى ابراهيمَ ربُّه... قال إنّى جاعلك للناس إماماً أى مقتدى يقتدى بك الناس، ويتبعونك فى أقوالك وأفعالك، فالإمام هو الذى يقتدى ويأتم به الناس (۶).

ويؤكد المعنى أيضاً سيد قطب فى تفسيره: «يقول للنبى صلى الله عليه و آله: اذكر ما كان من ابتلاء اللَّه تعالى لإبراهيم بكلمات من الأوامر والتكاليف، فأتمهن وفاءً وقضاءً. وقد شهد اللَّه تعالى لإبراهيم عليه السلام فى موضع آخر بالوفاء بالالتزامات على النحو الذى يرضى اللَّه عنه فيستحق شهادته الجليلة: وإبراهيم الذى وفى . وهو مقام عظيم ذلك المقام الذى بلغه ابراهيم، مقام الوفاء والتوفية بشهادة اللَّه عزوجل..

عندئذ استحق إبراهيم عليه السلام تلك البشرى أو تلك الثقة: قال إنى جاعلك للناس إماماً. أى قدوة، يقودهم إلى اللَّه تعالى .. ويكونون له تبعاً..» (۷).

۱- ۱ ولد ابراهيم عليه السلام يتيما و تربى فى بيت زوج أمه، و قيل فى بيت عمه، و قيل الذى رباه جده لأمه، والله أعلم.

۲- ۲ مريم: ۴۱ ۵۰.

۳- ۳ الأنبياء: ۷۲.

۴- ۴ الأنبياء: ۶۸ ۷۰.

۵- ۵ الصافات: ۱۰۲ ۱۰۸.

۶- ۶ الميزان ۱: ۲۶۶.

۷- ۷ فى ظِلال القرآن، سيد قطب ۱: ۱۱۲.

ص: ٦٣

يالَها من منزلة، وشرف عظيم أن يجعل اللّه تعالى إبراهيم عليه السلام إماماً وقدوةً بعد أن تربى فى بيت (من رباه) (۱) ناحت الأصنام، مُضل الغافلين، ينحتُ ربّه أو إلهه وإله قومه بيده ليعبدوها ويتقرّبوا إليها ويضعوها فى معابد، ويضعوا لها أعياداً ليحجوا إليها فى أعيادها، ويقربوا لها الأضاحى وغيرها من الأمور!

كان ذلك فى بلاد الرافدين التى تحدثنا عنها سابقاً... كانت من مدنها «اور» التى كانت مسقط رأس ابراهيم عليه السلام ومركز عبادة الأصنام. وشاء اللّه تعالى أن يخرج الولد الطيب الطاهر من البيت الخبيث، ويجعله أباً للأنبياء، وأسوةً صالحةً لكلّ الأجيال، ويجعل اسمه مقروناً بالإكرام والدعاء والإجلال عند معتنقى الأديان السماوية الثلاثة، وكلٌّ يفتخر بنسبه إلى خليل اللّه إبراهيم عليه السلام:

فاليهود ينسبون دينه اليهم والنصارى كذلك، والقرآن يحسم الموقف بقوله تعالى يا أهل الكتاب لِمَ تحاجّون فى إبراهيم وما أُنزلت التوراة والإنجيل إلّا من بعده أفلا تعقلون* وما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين (۲)

.هذا ابراهيم الخليل عليه السلام يحكى لنا القرآن الكريم شجاعته وشخصيته وعظمته وصدقه.. إنّه كان صدّيقاً نبياً (۳)

.ويحكى لنا القرآن الكريم كذلك محاجته لأبيه، وطريقته فى إلقاء الحجة قبل إعلان حربه وتحطيمه للأصنام، أصنام أبيه وقوم أبيه، قال إبراهيم عليه السلام فى بداية

---

۱ – ۱ تربى ابراهيم عليه السلام اليتيم فى بيت ناحت الأصنام، ولكن نجد فى القرآن الكريم من حوارابراهيم عليه السلام لمربيه كأنه يحاور أبيه الحقيقى، وهذا من باب أدب الأنبياء. وابراهيم عليه السلام نشأ يتيماً ولم يتربى فى بيت أبيه.

۲– ۲ آل عمران: ۶۵– ۶۷.

۳– ۳ مريم: ۴۱.

ص: ۶۴

المحاججة متسائلًا:.. يا أبتِ لِمَ تعبُد ما لا يسمع ولا يُبصر ولا يغنى عنك شيئاً* يا أبتِ قد جاءنى من العلم ما لم يأتك فاتبعنى أهدك صراطاً سوياً* يـا أبت لاـ تعبـد الشـيطان إنّ الشـيطان كان للرحمن عصـيّاً* يا أبتِ إنى أخاف أن يمسّك عـذابٌ من الرحمن فتكون للشيطان ولياً (۱)

.فلم يستجب الأب لهذا الخطاب المهذّب وأصرّ على عناده، فأعلن إبراهيم عليه السـلام حربه بتحطيم الأصـنام بكلّ شـجاعة وبسالة لا خائفاً ولا وجلًا، تحفّه رعايـة اللَّه تعالى وعونه فقال: وتاللَّه لأكيـدنّ أصـنامكم بعد أن تُولّوا مدبرين* فجعلهم جُذاذاً إلّاكبيراً لهم لعلّهم إليه يرجعون (۲)

.وإنها لجرأة وشـجاعة حقاً أن يتحـدى شـخص واحـد قوماً طغاة عصاة، لا يكون كـذلك إلّامن ذاب فى مبـدأ وعقيدة قوية مؤيدة من السـماء. جاء القوم ولمّا نظروا آلهتهم العزيزة المحطّمـة: قالوا من فعل هـذا بآلهتنا إنّه لمن الظالمين* قالوا سـمعنا فتًى يذكُرُهم يُقالُ له إبراهيم* قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلّهم يشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا يا إبراهيم (۳)

. فتحداهم مرةً أخرى و قال بل فعله كبيرهم هذا فسألوهم إن كانوا ينطقون (۴)

.وهنـا يـبرز ذكـاء إبراهيم، أن يجعلهم فى موضـع الاـعتراف الـذاتى، إنه الحـقّ وهم الباطـل، ونكسوا رؤوسـهم، وأصـدر نمرود حكم الإعدام بحرقه فى النار؛ لأنه احسَّ بضـعف حيلته أمام قوة الحق، ولا سبيل للطغاة فى تاريخ البشـرية سوى التخلص من أصـحاب الحق بقوة النفوذ السلطانى الحاكم! وجعل اللَّه تعالى النار

۱- ۱ مريم: ۴۲- ۴۵.

۲- ۲ الأنبياء: ۵۸.

۳- ۳ الأنبياء: ۶۰- ۶۲.

۴- ۴ الأنبياء: ۶۳.

ص: ۶۵

برداً وسلاماً على ابراهيم ونجّاه إلى الأرض المقدّسة المباركة أرض «ملكى صادق» القدس الحالية. وسنتحدث عنها فى الفصل السادس إن شاء اللّه تعالى ..

ابراهيم عليه السلام يحطّم الاصنام ويضع الفأس فى عنق كبيرهم

ص: ۶۶

والآن فلنقرا الآيات الكريمة التالية فى بيان نجاة ابراهيم عليه السلام من نمرود وقومه:

فَرَجَعُوا إِلَى أَنفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ* ثُمَّ نُكِسُوا عَلَى رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ يَنطِقُونَ* قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ* أُفٍّ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ* قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنتُمْ فَاعِلِينَ* قُلْنَا يَا نَارُ كُونِى بَرْداً وَسَلَاماً عَلَى إِبْرَاهِيمَ* وَأَرَادُوا بِهِ كَيْداً فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ* وَنَجَّيْنَاهُ وَلُوطاً إِلَى الْأَرْضِ الَّتِى بَارَكْنَا فِيهَا لِلْعَالَمِينَ (۱)

بناءُ البيت الحرام

وإذ يرفع إبراهيم القواعدَ من البيت وإسماعيل ربَّنا تقبل منّا إنك أنت السميع العليم (۲)

.قال الراغب الأصفهانى: قواعد البناء أساسهُ (۳).

وقال العلامـة الطباطبائى: «القواعـد جمع قاعـدة وهى ما قعد من البناء على الأرض واسـتقر عليه الباقى، ورفع القواعد من المجاز بعد ما يوضع عليها منها، ونسبة الرفع المتعلق بالمجموع إلى القواعد وحدها. وفى قوله تعالى من البيت تلميح إلى هذه العناية المجازية» (۴).

۱- ۱ الأنبياء: ۶۴- ۷۱.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۷.

۳- ۳ المفردات، الأصفهانى: ۴۸.

۴- ۴ الميزان فى تفسير القرآن: ۲۷۷.

ص: ۶۷

فقواعد البيت الحرام وضعها ابراهيم عليه السلام بمساعدة ولده الأكبر اسماعيل عليه السلام، سواءً أكانت القواعد الحقيقية أم المجازية، أى سواءً أكانت قواعد أساس البناء للبيت، أم قواعد العبادة فيه، فهو الذى رفع هذه القواعد، بعد أن كان لها وجود، ولكن صورته غير واضحة عندنا كيف كانت قبل ابراهيم عليه السلام، ولكن الواضح عندنا أنّ الملائكة حجت هذه البقعة المباركة المقدّسة وحج أبو البشر آدم ومن جاء بعده حتى رفع فى الطوفان. وسنفصل هذا فى الفصل العاشر بإذنه تعالى ..

إذن فللبيت وجود قبل ابراهيم، والذى كُلفَ به الخليل وابنه عليهما السلام هو إحياؤه بعد أن درست معالمه، بوّأه اللَّه تعالى لإبراهيم وإذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت (۱)

و «بوأتُ له مكاناً: سويته فتبوأ» (۲). و «بوأتُهُ داراً أسكنته إياها و (وبوأتُ) له كذلك و (تبوأ) بيتاً اتخذه مسكناً» (۳).

وقد بيّن سيد قطب فى تفسيره القواعد بقوله: «... البيت الحرام... يرجع نشأته على يد ابراهيم عليه السلام بتوجيه من ربّه وإرشاده. ويرجع إلى القاعدة التى أقيم عليها وهى قاعدة التوحيد، إلى الغرض من إقامته، وهو عبادة اللَّه الواحد، وتخصيصه للطائفين به والقائمين للّهفيه» (۴).

إذن فهندسة البيت التى نراها اليوم وستبقى إلى ما شاء اللَّه أن تبقى هى لإبراهيم عليه السلام بإذنٍ من ربّه وطاعة من إبراهيم عليه السلام.

أما ابن الأثير فيقول فى (رفع القواعد): «فلما ارتفع البنيان وضعف الشيخ- النبى ابراهيم عليه السلام- عن رفع الحجارة، قام على حجر وهو

۱- ۱ الحج: ۲۶.

۲- ۲ المفردات، الأصفهانى: ۶۹.

۳- ۳ المصباح المنير، الفيومى ۱: ۶۷.

۴- ۴ فى ظِلال القرآن، سيد قطب: ۲۴۱۸.

ص: ۶۸

مقام ابراهيم علیه السلام» (۱).

واتفق المؤرخون على أن ابراهيم هو الذى كان يبنى واسماعيل يناوله الحجارة، فلما ارتفع البناء استعان ابراهيم عليه السلام بالوقوف على صخرة لِعلو البناء، وكلما فرغ من جدار نقل الحجر إلى سواه وهكذا حتى تمّ بناء جدران الكعبة، فبقى أثر قدميه الشريفتين على الصخرة.

واختلف الرأى فى مقام إبراهيم، فمنهم من قال: هو مقام الصخرة، ومنهم من قال: الحرم كلّه الذى حول الكعبة.

ولنأخذ رأى السيد السبزوارى فى مهذّب الأحكام حيث يقول: إن لإبراهيم مقامين:

مقام قدمى وهى الآثار التى بقيت على الصخرة.

ومقام عبادى وهو الذى أمر اللَّه تعالى عباده باتخاذه مُصلّى حيث قال سبحانه: واتخذوا من مقام ابراهيم مُصلًّى (۲) (۳)

.وروى الصدوق فى «علل الشرائع» بإسناده عن سليمان بن خالد عن أبى عبد اللَّه الصادق عليه السلام قال: «لما أوحى اللَّه إلى إبراهيم عليه السلام: أن أذن فى الناس بالحج أخذ الحجر... فوضعه بحذاء البيت لاصقاً به بحيال الموضع الذى هو فيه اليوم، ثمَّ قام عليه فنادى بأعلى صوته بما أمره اللَّه تعالى به، فلما تكلّم بالكلام لم يحتمله الحجر فغرقت رجلاه فيه، فقلع ابراهيم عليه السلام رجليه من الحجر قلعاً» (۴).

فبقيت آثار قدميه الشريفتين.

۱- ۱ الكامل فى التاريخ: ابن الأثير ۱: ۳۶.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۵.

۳- ۳ مهذّب الأحكام، السيد السبزوارى، الفائدة الثالثة ۱۴: ۶۵.

۴- ۴ علل الشرائع، الصدوق ۲: ۱۲۸.

ص: ۶۹

وعن ابن عباس أنّه قال: «... لبث ابراهيم ما شاء اللّه أن يلبث ثم جاء الثالثة فوجد اسماعيل عليه السلام قاعداً تحت الدوحة التى بناحية البير يبرى نبلًا أو نبالًا له فسلم عليه ونزل إليه فقعد معه فقال ابراهيم: يا اسماعيل إن اللّه تعالى قد أمرنى بأمر، فقال له اسماعيل: فأطع ربّك فيما أمرك، فقال ابراهيم: يا اسماعيل أمرنى ربى أن ابنى له بيتاً، قال له اسماعيل: واين؟ يقول ابن عباس: فأشار له إلى أكمة مرتفعة على ما حولها، عليها رضراض من حصباء يأتيها السيل من نواحيها ولا يركبها، يقول ابن عباس: فقاما يحفران عن القواعد ويحفرانها ويقولان: ربنا تقبل منا إنك سميع الدعاء، ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم. ويحمل له اسماعيل الحجارة على رقبته ويبنى الشيخ ابراهيم، فلما ارتفع البناء وشق على الشيخ ابراهيم تناوله قرّب له اسماعيل هذا الحجر- يعنى المقام- فكان يقوم عليه ويبنى، ويحوله فى نواحى البيت حتى انتهى إلى وجه البيت، يقول ابن عباس: فلذلك سمى مقام ابراهيم لقيامه عليه» (۱).

وهنا روايات أخرى يطول ذكرها، ومهما كان وكيفما كان المقام فإنه آية من آيات اللّه تعالى حيث قال: فيه آيات بينات مقام ابراهيم (۲)

.أما الركن فهو الحجر الأسود. وذكر ابن عباس: «أنّ الركن (الحجر الأسود) والمقام: إنهما ياقوتتان من ياقوتات الجنّة، أنزلا فوضعا على الصفا فأضاء نورهما لأهل الأرض ما بين المشرق والمغرب» (۳). ولما أُكمل بناء البيت وضع ابراهيم عليه السلام بمساعدة ابنه اسماعيل عليه السلام الحجر الأسود فى الركن والمقام بلصق البيت. وهكذا تكامل بناء الكعبة الشريفة وأذن للحج إليها حتى يومنا هذا...

الدعوة إلى الحج

۱- ۱ أخبار مكة، للأزرقى ۱: ۵۹، منشورات الشريف الرضى.

۲- ۲ آل عمران: ۹۷.

۳- ۳ علل الشرائع ۲: ۱۳۲.

ص: ۷۰

وأذن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ یأتین من کلّ فجٍّ عمیق (۱)

.بعد أن أتمَّ ابراهیم علیه السلام بناء البیت الحرام... جاءه الأمر الإلهی أن یدعو الناس لزیارهٔ هذا البیت الطاهر الآمن المقدس زیارهٔ جماعیهٔ سنویهٔ؛ لیذکروا اللّه تعالی ویحمدوه ویعبدوه ویثنوا علیه ویستغفروا لذنوبهم فی البیت الذی نسبه إلی ذاته المقدسهٔ ...

فاستجاب الخلیل علیه السلام ودعا الناس إلی بیت اللّه الحرام بأذان و «التأذین:

الإعلام برفع الصوت ولذا فُسّر بالنداء، والحج القصد سمی به العمل الخاص الذی شرعه أولًا إبراهیم علیه السلام وجرت علیه شریعهٔ محمد صلی الله علیه و آله لما فیه قصد البیت الحرام:

ورجال جمع راجل خلاف الراکب، والضامر المهزول الذی أضمره السیر، والفج العمیق- علی ما قیل- المکان البعید» (۲).

وبعد أمر الدعوهٔ إلی الحج، أوعد اللّه تعالی ابراهیم علیه السلام باستجابهٔ هذه الدعوهٔ من الناس، وأنهم سیأتون مشاهٔ ورکباناً علی ضوامر من الخیل والإبل من کلّ طریق بعید... والقریب أولی بالاستجابهٔ.

أذّن علیه السلام فی الناس بالحج، ولبّی له الناس فی أصلاب الرجال وأرحام النساء، هذا ما تبینه الروایات عن المعصومین علیهم السلام:

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ المیزان فی تفسیر القرآن ۱۴: ۳۷۰.

ص: ۷۱

«لما أمر اللَّه تعالى ابراهيم عليه السلام، نادى يا أيها الناس إن للَّهبيتاً فحجوه، فأسمع اللَّه نداءه كلّ من يريد اللَّه أن يحج من ذريته إلى يوم القيامة» (۱).

ومنذ ذلك الحين إلى يومنا هذا والى ما يشاء اللَّه، يتقاطر الناس على هذا البيت المقدس العظيم من كلّ مكان، من أقطار الأرض جميعاً، وعبر القرون، منذ زمن ابراهيم عليه السلام إلى ما شاء اللَّه لهذه الأرض من البقاء، وما تزال أفئدة من الناس تهوى وترف إلى رؤية هذا البيت العظيم والى الطواف فيه، وعشرات الألوف من الحجاج يتقاطرون كلّ عام من فجاج الأرض، تلبى هذه الدعوة العظيمة دعوة خليل الرحمن بإذن من خالق الخلق، رحمان الدنيا والآخرة ورحيمها.

عن ابن اسحاق قال: «لما فرغ ابراهيم خليل الرحمن عليه السلام من بناء البيت الحرام جاءه جبريل فقال له:... ثم أمر ابراهيم أن يؤذن فى الناس بالحج، قال: فقال ابراهيم: يا رب ما يبلغ صوتى؟ قال اللَّه سبحانه: أذّن وعليَّ البلاغ، قال: فعلا على المقام فأشرف به حتى صار أرفع الجبال وأطولها، فجمعت له الأرض يومئذ سهلها وجبلها وبرها وبحرها وإنسها وجنها حتى أسمعهم جميعاً قال: فأدخل إصبعيه فى أذنيه وأقبل بوجهه يمناً وشاماً وشرقاً وغرباً وبدأ بشق اليمن فقال: أيها الناس كتب عليكم الحج إلى البيت العتيق فأجيبوا ربّكم، فأجابوه من تحت التخوم السبعة ومن بين المشرق والمغرب إلى منقطع التراب من أقطار الأرض كلّها، لبيك اللهم لبيك...» (۲).

وقال القمى فى تفسيره: «إنّ الصعود على المقام كان للنداء لا للبناء، وأنه ارتفع حتى كان أطول من الجبال كذلك للنداء لا للبناء» (۳).

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ۲: ۱۴۶.

۲- ۲ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۶۶- ۶۷.

۳- ۳ تفسير القمى ۲: ۸۳.

ص: ۷۲

واشتهر عند مؤرخی مکّهٔ المتأخرین: أن المقام تطاول وعلا فی السماء للبناء، وأقدم من ذکره أبو حیان التوحیدی المتوفی عام (۷۴۵ ه) فی تفسیره البحر المحیط فی الجزء الثالث الصفحهٔ السابعهٔ.

استجابهٔ دعاء إبراهیم علیه السلام

عندما جاء إبراهیم علیه السلام بابنه اسماعیل وأمّه هاجر من الشام إلی الوادی ذی الأحجار والرمال الیابسهٔ الخالیهٔ من الماء والزرع یلفحهم حرّ الجزیرهٔ القاحلهٔ، رفع یدیه الشریفتین إلی السماء قائلًا: ربّنا إنی أسکنت من ذریتی بوادٍ غیر ذی زرع (۱)

.ودعا اللَّه تعالی قائلًا: فاجعل أفئدهً من الناس تهوی الیهم وارزقهم من الثمرات لعلّهم یشکرون(۲)

.کان هذا دعاءه الأول لهم ثم دعا: ربِّ اجعل هذا البلدَ آمناً واجنبنی وبنیّ أن نعبد الأصنام (۳)

. وقال:... ربِّ اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمنَ منهم باللَّه والیوم الآخر* قال ومن کفر فامتعه قلیلًا ثم اضطره إلی عذاب النار وبئس المصیر (۴)

.استجاب اللَّه تعالی دعاء خلیله ابراهیم علیه السلام وفجّر له ماء زمزم وجعل فیه کلّ الخیر والبرکهٔ، وجعل ماءه شفاءً وعافیهً، وجعل القوافل والتجار تمرُّ من مکهٔ،

۱- ۱ ابراهیم: ۳۷.

۲- ۲ ابراهیم: ۳۷.

۳- ۳ ابراهیم: ۳۵.

۴- ۴ البقرهٔ: ۱۲۶.

ص: ۷۳

وأفاض الرزق عليها، وجعلها بلدةً آمنة من الأخطار والأعداء، ومن يعتدى عليها يهلكه اللَّه تعالى بإذنه، وسنبين ذلك فى الفصل التاسع إن شاء اللَّه تعالى ..

وللخليل ابراهيم عليه السلام أدعية أخرى لبلدةِ ذريته من اسماعيل عليه السلام أهمها أنه قال وابنه اسماعيل عليه السلام بعد إكمالهم بناء الكعبة الشريفة وتثبيت قواعدها، قالا:... ربَّنا تقبّل منّا إنك أنت السميع العليم* ربَّنا واجعلنا مسلِمَين لك ومن ذريتنا أمةً مسلمةً لك وأرنا مناسكنا وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم* رَبَّنا وابعث فيهم رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم (۱)

.دعا ابراهيم واسماعيل عليهما السلام اللَّه تعالى أن يتقبل منهم عملهم فى رفع القواعد وغيره من الأعمال، وأن يجعلهم مسلمين. وكذلك من ذريتهم أمة مسلمة أيضاً، وأن يريهم الأفعال العبادية الصادرة منهما، والأعمال التى يعملانها دون الأفعال، والأعمال التى يراد صدورها منهما، فليس قوله: أرنا بمعنى علمنا أو وفقنا، بل التسديد بإراءة حقيقة الفعل الصادر منهما» (۲).

ثم دعوا أن يتوبَ عليهم ويبعث فيهم رسولًا منهم: أى من نسل ابراهيم واسماعيل عليهما السلام، وكانت دعوة مستجابة، فتقبل اللَّه تعالى منهم عملهما وجعلهما مسلِمَين وجعل الأمة المسلمة من نسلهما، وبعث محمد بن عبد اللَّه- صلوات اللَّه تعالى عليه- الذى هو من نسل اسماعيل نبيّاً، فى الجزيرة العربية التى أقيمت قواعد الكعبة الشريفة بها، وأنزل عليه الكتاب (القرآن) يتلوه على أُمته ويعلمهم آيات اللَّه المحكمات، ويطهرهم من الأوثان والشرك والأرجاس.

۱- ۱ البقرة: ۱۲۷- ۱۲۹.

۲- ۲ الميزان فى تفسير القرآن ۱: ۲۷۹- ۲۸۰.

ص: ۷۴

والجدير بالذكر أنّ اللّه تعالى ذكر استجابته لدعوة ابراهيم عليه السلام في كتبه التي أنزلها على موسى وداود وعيسى عليهم السلام إضافةً إلى القرآن الكريم، فقد جاء في التوراة:

«أما اسماعيل فقد سمعتُ لك فيه (في نسخة الترجوم) سمعت دعاءك له، ها أنا أُباركه وأكثره جدّاً جدّاً اثني عشر رئيساً يلد وأجعله أمةً كبيرةً، ولكن عهدي أقيمه مع إسحاق الذي تلده لك سارة في هذا الوقت في السنة الآتية» (۱).

لقد بارك اللّه تعالى فعلًا لإسحاق وجعل منه يعقوب، الذي كان من ذريته أنبياء بني اسرائيل... أما اسماعيل فقد اجيبت دعوة ابراهيم عليه السلام له بعد حوالي (۴۰۰۰) سنة، وجعل منه الأمة المسلمة التي هي خير أمةٍ أُخرجت للناس وجعل محمداً صلى الله عليه و آله نبياً فيهم وسيد البشر والرسل وخاتم الأنبياء ومن ذريته جعل اثني عشر إماماً هداة.

قال ابن كثير في هذا الصدد: جاء في سفر التكوين قول (الرب) لإبراهيم عليه السلام ما نصه بالعبرية:

«في لبشماعيل بيَرخْتي أو تواو في هِفْريتي أو تو

في هِرْ بيتي بمئوْد مِئوداو شنيم عَسار نسيئيم يوليد

في نِتتيف لِكَوي كَدول» (۲).

وتعني حرفياً: «واسماعيل أباركه، وأُثمره (۳)، واكثّره جدّاً جدّاً، اثني عشر إماماً يلد، وأجعله أمةً كبيرة».

۱- ۱ التوراة، الاصحاح ۱۱۷، الفقرتان ۲۰- ۲۱.

۲- ۲ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ۱۷: الفقرة ۲۰.

۳- ۳ أي اثمرهُ ب محمد صلى الله عليه و آله، انظر ميقات الحج، العدد الأول، دعوة ابراهيم عليه السلام في رفع القواعد: ۲۴۴.

ص: ۷۵

فیتضح من هذه الفقرة أن التکثیر والمبارکة إنما هما فی صلب اسماعیل علیه السلام، مما یجعل القصد واضحاً فی الرسول محمد صلی الله علیه و آله وأهل بیته علیهم السلام باعتبارهم امتداداً لنسل اسماعیل علیه السلام (۱).

أما فی الانجیل، فقد ذکر القرآن الکریم أنّ اللّه تعالی بشّر بنبی یأتی بعد عیسی علیه السلام اسمه أحمد. قال تعالی وإذ قال عیسی ابن مریم یا بنی اسرائیل إنی رسولُ اللّه الیکم مصدقاً لما بین یدیَّ من التوراة ومبشراً برسولٍ یأتی من بعدی اسمُهُ أحمد (۲) (۳)

.وقد جاء فی الحدیث الشریف عن الرسول صلی الله علیه و آله أنه قال: «أنا دعوة ابراهیم» (۴).

کیفیة الحج الإبراهیمی

بنی ابراهیم علیه السلام أول بیت لعبادة اللّه تعالی والتقرب إلیه وحده لا شریک له، فی حین کانت الشعوب والقبائل فی أنحاء الأرض فی عهد إبراهیم وبعده، یبنون بیوتاً لعبادة أصنامهم وتماثیلهم أو لموتاهم العظماء أو الأعزاء.

وبعد إکمال ابراهیم علیه السلام البیت طلب من اللّه تعالی أن یعلمه المناسک الخاصة بهذا البیت العبادی، وشرع اللّه تعالی له شعائر الحج والعبادة فی هذا البیت المقدّس:

۱- ۱ معالم المدرستین، العلامة السید مرتضی العسکری ۱: ۵۳۸- ۵۳۹.

۲- ۲ أحمد ومحمد: تعنی کثیر الحمد والثناء. وجاء فی التوراة فی النصوص الأصلیة باسم ماحمود أو ماحماد وکذلک تعنی المعنی نفسه.

۳- ۳ الصف: ۶.

۴- ۴ المیزان فی تفسیر القرآن، الطباطبائی ۱: ۲۸۱.

ص: ۷۶

«والشائع فی الأخبار والروايات العربيـة القديمة أنّ الحج، على زمن ابراهيم عليه السـلام، كـان يعنی قصد كعبةمكـة والطواف بالبيتوالتلبية وقضاء بقية المناسك، ثم جاءت الوثنية بأصنامها وبيوتها وعباداتها فصار الحجُّ يشملها أيضاً» (۱).

ومناسك الحج الإبراهيمی... هی المناسك التی فرضـها الإسلام على المسلمين، والتی سنأتی عليها لاحقاً فی هذا الكتاب إن شاء اللَّه، وأصوله هی تلك التی شـرعها دين محمـد صـلى الله عليه و آله وبالتحديد ما يتعلّق بالإحرام والطواف والهدی و... من الناحية العبادية والتبری والتولی وغير ذلك من الأمور.

«ثم: إن اللَّه سبحانه أمر خليله ابراهيم عليه السلام أن يُشرع للناس أعمال الحج، كما قال: وأذن فی الناس بالحج... (۲)

ومـا شـرعه عليه السـلام لم يكن معلوماً لنا بجميع خصوصـياته، لكنه كان شـعاراً دينياً عنـد العرب فی الجاهليـة إلی أن بعث اللَّه تعالى النبی محمـداً صـلى الله عليه و آله وشـرع فيه مـا شـرع ولم يخـالف فيه ما شـرعه ابراهيم إلّابالتكميل كما يـدل عليه قوله تعالى قل إنّی هدانی ربّی إلى صراط مستقيم ديناً قيماً ملة ابراهيم حنيفاً (۳)

وقوله تعالى شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذی أوحينا إليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى (۴)

وكيف كـان فما شـرعه النبی محمـد صـلى الله عليه و آله من نسك الحـج المشـتمل على الإحرام والوقوف بعرفات والمبيت بالمشـعر والتضـحية ورمی الجمرات والسـعی بين الصـفا والمروة والطـواف والصـلاة بالمقـام، تحكی قصـة إبراهيم عليه السـلام وتمثـل مـواقفه ومواقف أهله ومشاهدهم ويا لها من

۱- ۱ الوثنية فی الأدب الجاهلی، د. عبد الغنی زيتونی: ۲۷۳.

۲- ۲ الحج: ۲۷.

۳- ۳ الأنعام: ۱۶۱.

۴- ۴ الشوری: ۱۳.

ص: ۷۷

مواقف طاهرة إلهیة...» (۱).

بعد مضـی قرون من هذه المواقف الطاهرة الإلهیة الروحانیة، حرفها الوثنیون من سکان الجزیرة وتعددت أنواع من الحج، کان أشهرها فی الجزیرة العربیة:

الحج الجاهلی والحج الحنیفی، والحج الصابئی الذی سنتحدث عنه فی الفصل القادم إن شاء اللَّه.

وظهرت فی الدیانة الیهودیة أنواع من الحج وأشکال، کما سیأتی فی الفصل الخامس...

وأیضاً فی الدیانة المسیحیة اُبتدعت أماکن وطقوس خاصة لحجهم وسیأتی فی الفصل السادس بإذنه تعالی

وبون شاسع بین حـج هؤلاء والحـج الإبراهیمی، عدا الحج الجاهلی فی الجزیرة العربیة، قریب بعض الشـیء فی بعض مراسـمه ومظهره کمـا مر بنـا فی قول الکلبی، حیث قـال: «ومنهم علی ذلـک بقایـا من عهـد إبراهیم وإسـماعیل علیهم السـلام یتنسـکون بها: من تعظیم البیت، والطواف به، والحج والعمرة، مع إدخالهم فیه ما لیس منه ...» (۲).

فأدخلوا فیه مثلًا: جواز الطواف بالتجرّد عن الثیاب، وجعلوا لکلّ قبیلة صـنماً یتنسکون به ویطوفون حوله و... وغیرها، وحرّفوا فیه السعی بین الصـفا والمروة إلّاقلیـل منهم حتی ظنّ بعض المسـلمین حین شُرع لهم الحـج أنهـا عادة جاهلیـة فقال تعالی إنّ الصـفا والمروة من شعائر اللَّه فمن حجّ البیت أو اعتمر فلا جُناح علیه أن یطوّف بهما... (۳)

ما جاء فی الروایات عن حج ابراهیم علیه السلام

۱- ۱ المیزان فی تفسیر القرآن ۱: ۲۶۳، الطبعة البیروتیة.

۲- ۲ کتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الکلبی: ۶.

۳- ۳ البقرة: ۱۵۸.

ص: ۷۸

هناک حشد کبیر من الروایات تحکی لنا مناسک حج‌ابراهیم علیه السلام وابنه اسماعیل وشعائرهم، فقد جاء عن محمد بن اسحاق أنه قال: «لما فرغ ابراهیم خلیل الرحمن من بناء البیت الحرام جاءه جبریل فقال: طف به سبعاً فطاف به سبعاً هو واسماعیل یستلمان الأرکان کلّها فی کلّ طواف، فلما أکملا سبعاً هو واسماعیل صلیا خلف المقام رکعتین، قال: فقام معه جبریل فأراه المناسک کلّها: الصفا والمروة ومنی ومزدلفة، وعرفة، قال: فلما دخل منی وهبط من العقبة تمثّل له ابلیس عند جمرة العقبة، فقال له جبریل: ارمه، فرماه إبراهیم بسبع حصیات فغاب عنه، ثم برز له عند الجمرة الوسطی، فقال له جبریل: ارمه، فرماه بسبع حصیات فغاب عنه، ثمّ برز له عند الجمرة السفلی فقال له جبریل: ارمه، فرماه بسبع حصیات مثل حصی الحذف فغاب عنه إبلیس، ثم مضی ابراهیم فی حجه وجبریل یوقفه علی المواقف ویعلمه المناسک حتی انتهی إلی عرفة، فلما انتهی إلیها قال له جبریل: أعرفت مناسکک؟ قال إبراهیم: نعم! قال: فسمیت عرفات بذلک لقوله أعرفت مناسکک؟ ...» (۱).

وعن عبید بن عمیر اللیثی قال: «... ثم حجَّ باسماعیل ومن معه من المسلمین، من جرهم وهم سکان الحرم یومئذ مع اسماعیل وهم أصهاره، وصلی بهم الظهر والعصر والمغرب والعشاء بمنی ثم بات بهم حتی أصبح وصلی بهم الغداة، ثم غدا بهم إلی نمرة، فقام بهم هنالک حتی إذا مالت الشمس جمع بین الظهر والعصر بعرفة فی مسجد إبراهیم، ثم راح بهم إلی الموقف من عرفة فوقف بهم، وهو الموقف من

۱- ۱ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۶۶- ۶۷.

ص: ۷۹

عرفة الذى يقف عليه الإمام يريه ويعلمه، فلما غربت الشمس دفع به وبمن معه حتى أتى المزدلفة، فجمع بين الصلاتين المغرب والعشاء الآخرة، ثم بات حتى إذا طلع الفجر صلى بهم صلاة الغداة، ثم وقف به على قزح من المزدلفة وبمن معه وهو الموقف الذى يقف به الإمام، حتى إذا أسفر غيرمشرق دفع به وبمن معه يريه ويعلمه كيف ترمى الجمار حتى فرغ له من الحج كلّه، وأذن به فى الناس، ثم انصرف إبراهيم عليه السلام راجعاً إلى الشام، فتوفى بها صلى اللّه عليه وسلم وعلى جميع أنبياء اللّه والمرسلين» (۱).

يذكر القرآن الكريم أنّ ابراهيم واسماعيل عليهما السلام بعد إكمالهما بناء الكعبة، قالا:

... وأرنا مناسكنا وتُب علينا... (۲)

.يقول عطاء: «وأرنا مناسكنا: أبرزها لنا وأعلمناها» (۳).

فاستجاب اللّه تعالى هذا الدعاء أيضاً كاستجابته لبقية أدعيتهما كما ذكرنا سابقاً، وعلمهم مناسك الحج عن طريق الوحى (جبريل عليه السلام).

الخليل عليه السلام يمتثل لذبح ابنه قربانا

وجاء موسم الحج ورأى ابراهيم عليه السلام رؤيا- ورؤيا الأنبياء وحى- رأى أنه يذبح ابنه ليقدمه قرباناً للّه تعالى فى الموسم، وشاء اللّه تعالى أن يكون امتثال ابراهيم سُنة، ففدى اللّه تعالى اسماعيل عليه السلام بكبش عظيم لتكون سُنة الذبح فى موسم الحج، وليس التضحية بالإنسان التى كانت سائدة فى التاريخ الإنسانى نتيجة تخوف الناس من غضب الطبيعة والآلهة كما كانت الطقوس السنوية التى كانت تقيمها

۱- ۱ المصدر السابق ۱: ۷۰- ۷۱.

۲- ۲ البقرة: ۱۲۸.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۷۰.

ص: ۸۰

الحضـارات القديمـة كحضـارة «ألازتيـك» بتقـديمها كلّ عام شاباً جميل الصورة، قوى البنيان، بعـد قراءة بعض الأدعيـة وعبق البخور ونغمات الترانيم ولبس الملابس الزاهية الألوان الفاخرة، يطعن الشاب بخنجر الكهنة لتغتسل الجنبات بالدم الشـريانى الأحمر الزاهى فى الوقت الذى ترتسم فيه وجوه الكهنة بابتسامات الارتياح بتنفيذ المهمة!! (۱)

أو فى حضارة وادى النيل حيث تُلقى سنوياً فتاة شابة، تُلقى حيّةً للنيل بدعوى خصوبته وقذفه بالطمى المناسب.

ويقول المؤرخ وِل ديورانت «والظاهر أنّ التضـحية بالإنسان قد أخذ بها الإنسان فى كلّ الشعوب تقريباً، فقد وجدنا فى جزيرة كارولينا فى خليج المكسيك تمثالًا كبيراً معدنياً أجوف لإله مكسيكى قديم، فوجدنا فيه رفات كائنات بشرية، لا شك أنها ماتت بالحرق قرباناً للَّه، وكلنا يسـمع عن (مُلُخ) الذى كان الفينيقيون والقرطاجنيون وغيرها من الشعوب السامية حيناً بعد حين، يقدمون له القرابين من بنى الإنسان» (۲).

وجـاء الإعلان السـماوى على يـد ابراهيم وابنه اسـماعيل عليهما السـلام بإيقاف (القربان البشـرى وليُضـحّى بالحيوان... وها هو القرآن الكريم يقصّ علينا قصـة فداء اسـماعيل عليه السـلام بالذبح العظيم، فلنقرأ الآيات التالية: وقال إنى ذاهبٌ إلى ربّى سـيهدين* ربّ هَبْ لى من الصـالحين* فبشـرناه بغلاـم حليم* فلمـا بلغ معه السـعى قـال يا بُنىّ إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تُؤمر ستجدنى إن شاء اللَّه من الصابرين* فلما أسلما وتلّه للجبين*

۱- ۱ قصة الحضارة: مج ۱، ۱۱۳- ۱۱۴.

۲- ۲ انظر مجلة الفيصل، العدد ۲۵۸، مقال د. الجلبى تحت عنوان: «يوم الحج الأكبر: يوم ميثاق السلام العالمى».

ص: ۸۱

ونادیناه أن یا إبراهیم* قد صدّقتَ الرؤیا إنّا کذلک نجزی المحسنین* إنّ هذا لهو البلاءُ المبین* وفدیناه بذِبْحٍ عظیم* وترکنا علیه فی الآخرین* سلامٌ علی ابراهیم* کذلک نجزی المحسنین* إنّه من عبادنا المؤمنین* وبشّرناه بإسحاق نبیاً من الصالحین (۱)

.وهذا لیس إعلاناً بقدسیهٔ الدم البشری فحسب، بل درساً عملیاً لبنی الإنسان فی حال التضحیهٔ وتقدیم القربان.

والنصّ القرآنی أعلاه یبین الذبیح اسماعیل علیه السلام، الغلام الحلیم الولد البکر لإبراهیم علیه السلام. بینما محرفو التوراهٔ کتبوا أنّ الذبیح إسحاق ونصّهم التوراتی هکذا:

«قال الرب لإبراهیم، خذ ابنک وحیدک الذی تحبه اسحاق واذهب إلی أرض موریهٔ و...» (۲).

بینما کان اسماعیل ابنه الوحید، وبُشّر بإسحاق بعد عدهٔ سنین من ولادهٔ اسماعیل، وعند تحلیلنا للنص التوراتی نجده ینطبق علی اسماعیل والتحریف فی الاسم واسم المکان، ونجد فی النص القرآنی وضوحاً کاملًا أنّ ابراهیم علیه السلام ابتلی بذبح ابنه اسماعیل وبعدها بُشّر بإسحاق: وبشّرناه بإسحاق نبیاً. سُئل الإمام الصادق علیه السلام: أیهما کان أکبر اسماعیل أم اسحاق؟ وأیهما کان الذبیح؟ فقال: کان اسماعیل أکبر من اسحاق بخمس سنین، وکان الذبیح اسماعیل، وکانت مکهٔ منزل اسماعیل، وإنما أراد ابراهیم أن یذبح اسماعیل أیام الموسم بمنی قال: وکان بین بشارهٔ اللَّه لإبراهیم باسماعیل وبین بشارته باسحاق خمس سنین» (۳).

وعن الإمام الباقر علیه السلام حین سأله محمد بن مسلم عن المکان الذی کاد

۱- ۱ الصافات: ۹۹- ۱۱۲.

۲- ۲ العهد القدیم، التوراهٔ، الاصحاح ۲۲، العدد ۲.

۳- ۳ بحار الأنورا، المجلسی ۱۲: ۱۳۰.

ص: ۸۲

اسماعيل عليه السلام أن يُذبح فيه، قال: «سألتُ أبا جعفر عليه السلام أين أرادَ ابراهيم عليه السلام أن يذبح ابنه؟ قال: على الجمرة الوسطى وسألته عن كبش ابراهيم عليه السلام ما كان لونه؟ قال كذا وكذا... الخ» (۱).

حدّث ابراهيم عليه السلام ابنه اسماعيل بأمر الذبح؛ لكى لا يذبحه على حين غفلة وليكون على بينةٍ من أمره، ثم قال له فانظر ماذا ترى بعد هذه الاستشارة جاء الجواب من اسماعيل عليه السلام الولد الحليم؛ ليبين أرفع صور الإيمان وأجلّها فى تاريخ الإنسانية بقوله: يا أبتى افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء اللّه من الصابرين (۲)

.وهذا هو الإيمان، بل هو الاندماج الكلى فى إرادة اللّه تعالى التى تتركز فى العمل بوصاياه وأوامره والتضحية بكلّ غال ونفيس فى سبيله.

قال محمد بن كعب القرظى: فذكرت ذلك (۳) لعمر بن عبدالعزيز وهو خليفة، إذ كنتُ معه بالشام. فقال لى عمر: إنّ هذا الشىء ما كنت أنظر فيه، وإنى لأراه كما قلت، ثم أرسل إلى رجل كان عنده من الشام وكان يهودياً فأسلم وأحسن إسلامه، وكان يرى أنه من علماء يهود، فسأله عمر بن عبدالعزيز عن ذلك وأنا عنده، فقال له: أى ابنى إبراهيم الذى كان أمر بذبحه؟ فقال: اسماعيل، ثم قال: واللّه يا أمير المؤمنين إنّ اليهود لتعلم ذلك، ولكنهم يحسدونكم معشر العرب على أن يكون أبوكم الذى أمر اللّه بذبحه لما فيه من الفضل الذى ذكر أنه كان منه بصبره على ما أمر به، فهم يزعمون أنه إسحاق لأنّ إسحاق أبوهم (۴).

۱- ۱ الكافى، الكلينى ۴: ۲۲۰۹، والوسائل ۱۴: ۱۱۰، والفقيه ۱: ۱۴۹.

۲- ۲ الصافات: ۱۱۰.

۳- ۳ ذكر له الاختلاف فى أيهما الذبيح من ولدى ابراهيم.

۴- ۴ ابراهيم أبو الأنبياء، عباس محمود العقاد، منشورات المكتبة العصرية، بيروت- صيدا: ۸۶.

ص: ۸۳

ابراهيم يذبح ابنه قرباناً للّه «وفديناه بذبحٍ عظيم»

الانحراف عن ملة ابراهيم عليه السلام

ص: ۸۴

ومَن یرغب عن ملة إبراهیم إلّامن سفه نفسه ولقد اصطفیناه فی الدنیا وإنه فی الآخرة لمن الصالحین* إذ قال له ربّه أسلم قال أسلمتُ لربّ العالمین* ووصّی بها إبراهیم بنیه ویعقوب یا بنیَّ إنّ اللَّه اصطفی لکم الدینَ فلا تموتنَّ إلّا وأنتم مسلمون(۱)

.إنّ ملـة ابراهیم علیه السـلام، بإجمـاع العلمـاء والفقهاء والمفسّرین هی الإسـلام الخالص الصـریح، إن کان بمعناها اللغوی أو بمعناها الاصـطلاحی، ومن انحرف أو ینحرف عنها فهو ظالم لنفسه، سـفیه، غافل جاهل، ومن سار علیها فهو مسـلم طاهر مهتد من تبعة ابراهیم علیه السلام فمن تبعنی فإنه منّی (۲)

.والدین عند اللَّه الإسـلام، والیهودیة والنصرانیة وغیرهما أسماء أطلقها أصحابها علی أنفسهم، ولو رجعنا إلی تاریخ هذه الملل نجد أن الیهود قبائل یرجع تاریخها إلی یهوذا (۳)، والنصاری قبائل یرجع تاریخها إلی مدینة الناصرة (۴).

لکن هؤلاء صورت لهم عنصریاتهم وأهواؤهم أنّ ابراهیم یهودیٌ، والنصاری أنه نصرانیٌ، لکن القرآن الکریم یبطل تصوراتهم الجریئة علی خلیله علیه السلام فی سورة آل عمران بقوله تعالی ما کان إبراهیم یهودیاً ولا نصرانیاً

۱- ۱ البقرة: ۱۳۰- ۱۳۲.

۲- ۲ ابراهیم: ۳۶.

۳- ۳ یهوذا: أحد أولاد یعقوب علیه السلام أخ لیوسف علیه السلام من أبیه.

۴- ۴ الناصرة: مدینة فی بلاد الشام نزلتها مریم وابنها عیسی علیهما السلام.

ص: ۸۵

ولكن كان حنيفاً مسلماً (۱)

.وفى سورة البقرة قال تعالى وقالوا كونوا هوداً أو نصارى تهتـدوا قل بل ملـة ابراهيم حنيفاً وما كان من المشـركين* قالوا آمنا باللَّه وما أُنزل الينا وما أنزل إلى ابراهيم واسـماعيل واسـحق ويعقوب والأسـباط وما أوتى موسى وعيسى وما أوتى النبيون من ربّهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون (۲)

.هـذا مـا يؤكـده القرآن الكريم دائماً، أنّ ابراهيم أبو الأنبياء عليهم السـلام جميعاً، أنه الإمام والأسوة الحسـنة للجميع، والأسوة: القـدوة وهى: الحالة التى يكون عليها الإنسان فى اتباع غيره، إن حسناً وإن قبيحاً وإن ساراً وإن ضاراً، ولهذا قال تعالى لقد كان لكم فى رسول اللَّه أُسوة حسنة فوصفها بالحسنة (۳). فهو- ابراهيم عليه السلام- أسوة حسنة وإمام فى الشريعة الإلهية التوحيدية.

ولكن- مع الأسف الشديـد- أنّ هـذه الأسوة تُركت، وحرّف ما جاء به ابراهيم عليه السـلام وأبناؤه من الأنبياء عليهم السـلام، وصارت العادات والسلوكيات بعيـدة عن ذلك الـدين، رغم إرسال السـماء العدد الغفير من الأنبياء والرسل، ولم يأخذ بهذا الدين إلّا من هدى اللَّه قلبه وأسلم للّهوحده. قال تعالى ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين (۴)

.واليهود والنصارى وغيرهم من أتباع الهوى والمصالح والشيطان ابتعدوا كثيراً

۱- ۱ آل عمران: ۶۷.

۲- ۲ البقرة: ۱۳۵- ۱۳۶.

۳- ۳ المفردات فى غريب القرآن، الأصفهانى: ۱۸.

۴- ۴ آل عمران: ۸۵.

ص: ۸۶

عن ملة ابراهيم عليه السلام وحرّفوا دين اللَّه تعالى

تقول الكاتبة بربارة براون: «إن مسألة تحريف الإنسان لوحى اللَّه هى السبب فى نزول القرآن على النبى محمد صلى الله عليه و آله. الوحى النهائى لخاتم رسل اللَّه... إنّ القرآن الكريم يتكلّم حول هذا التحريف الذى أصاب كتب الوحى السابقة فى عدد من الآيات» (۱).

وهذه بعض آيات كتاب اللَّه العزيز تبيّن تحريف أصحاب الكتب السماوية السابقة:

فبدّل الذين ظلموا قولًا غير الذى قيل لهم (۲)

.... وقد كان فريقٌ منهم يسمعون كلام اللَّه ثم يُحرّفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون (۳)

.وإنّ منهم لفريقاً يلوُن ألسنتهم بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب ويقولون هو من عند اللَّه (۴)

.وتضيف بربارة براون قائلة: «إنّ القرآن قد جاء من اللَّه لتصحيح كلّ هذه التحويرات المتعمدة أو غير المقصودة لوحيه السابق. إنّ اللَّه قد بيّن تماماً أنّ هذا، وهو وحيه الختامى، لن يعتريه ما أصاب الكتب السابقة قائلًا: إنا نحن نزّلنا الذكر وإنا له لحافظون (۵) ...» (۶).

لقد حفظ اللَّه تعالى القرآن الكريم من كلّ سوء، وجعله وتعاليمه خالدة إلى يوم

۱- ۱ نظرة عن قرب فى المسيحية، بربارة براون: ۷۸، نشر توحيد، ترجمة المهندس مناف حسين الياسرى، كندا.

۲- ۲ البقرة: ۵۹.

۳- ۳ البقرة: ۷۵.

۴- ۴ آل عمران: ۷۸.

۵- ۵ الحجر: ۹.

۶- ۶ نظرة عن قرب فى المسيحية: ۷۹.

ص: ۸۷

الحساب؛ لأنه البلاغ الأخير والبيان الختامی والإنذار النهائی لبنی آدم علیه السلام. وإذا قورنت نصوص القرآن فی وقتنا الحاضر مع النصوص التی نزلت علی محمد صلی الله علیه و آله لا نجد فیها أی نقص أو تبدیل أو تغیر أو زیادة، رغم مرور أکثر من (۱۴۰۰) عام علی نزولها. بینما نجد الیهودیة والمسیحیة والدیانات الوضعیة مستمرة فی الانحراف یوماً بعد آخر، وکلّ یوم یأتون بجدید، کتعالیم الحج وأماکن الحج ومناسک الحج مثلًا کما سنری ذلک فی الفصول القادمة إن شاء اللَّه...

وللقرآن الکریم مخطوطات أصلیة لا تزال فی الوجود لتثبیت ذلک. ففی مکتبة الشیخ حمود فی المدینة المنورة فی العربیة السعودیة توجد نسخة من القرآن یرجع تاریخها إلی القرن السابع المیلادی أی القرن الأول الهجری وهی أقدم نسخة معروفة فی الوجود، وقد کتبت بالید علی جلد غزال بعد سنین قلیلة فقط من رحیل النبی محمد صلی الله علیه و آله. ونسخة أخری تعود إلی القرن السابع المیلادی أیضاً وهی من زمن الخلیفة عثمان وتوجد فی متحف توبکابی فی استانبول فی ترکیا (۱)...

قال تعالی فی القرآن الکریم نفسه أنه لا یمکن أن یناله التحریف: لا یأتیه الباطل من بین یدیه ولا من خلفه (۲)

۱- ۱ المصدر السابق: ۷۹.

۲- ۲ فُصلت: ۴۲.

ص: ۸۸

ص: ۸۹

ص: ٩٠

ص: ۹۱

الفصل الرابع: الحج فی الديانة اليهودية

الحج فی الديانة اليهودية

اشارة

مارس اليهود الحج بأشكال مختلفة، واتجهوا إلى أماكن متعددة، واتخذت كل فرقة من فرقهم وجهة معينة، تحجُّ اليها فی أعيادها الخاصة، وعلى وفق مذهبها وتعاليمه وعقيدتها، وما تفرض عليها من الأوامر والنواهی...

وفكرة الحج، ليست طارئة على اليهود، فقد كانت منتشرة آنذاك، فمن كان على دين ابراهيم عليه السلام، كان يعرف الحج ويمارسه فی بيت اللَّه الحرام، ومن كان من الأقوام السامية، فانه يحج إلى المعابد والهياكل وقبور الموتى وغير ذلك مما وجدناه فی الحضارات والأمم.

فاليهود كغيرهم، حجوا ومارسوا طقوساً خاصة بالحج، وسفر الخروج فی التوراة حدّد لهم أعياداً دينية سنوية يزورون فيها مقدساتهم بملابس خاصة أو جديدة، وينحرون ويطوفون ويقرأون الأدعية والتعويذات الخاصة وغير ذلك، وحجهم خليط من حج وضعی وحج سماوی، فهو صورة جديدة بين حج وثنی باطار توحيدی.

والظاهر أن حج اليهود كان فرضاً واجباً أوجبته التوراة عليهم، هذاما يؤكده

ص: ۹۲

النص التالی:

«والحج إلی معبد من المعابد عادة سامیة قدیمة جعلت حتی فی الأجزاء القدیمة من أسفار موسی الخمسة فرضاً یجب أداؤه، فقد ورد فی سفر الخروج، فی الاصحاح الثالث والعشرین، الآیة الرابعة عشرة: «ثلاث مرات یعیّد لی فی السنة» وفی الآیة الثالثة والثلاثین من الاصحاح الرابع والثلاثین «ثلاث مرات فی السنة یظهر جمیع ذکورک أمام السید الرب إله إسرائیل» وربما کان فی بلاد العرب أیضاً أماکن کثیرة للحج حیث کانت تقام شعائر شبیهة بالحج إلی عرفات» (۱).

وفی کل عید من هذه الأعیاد الثلاثة اتخذت الفرق الیهودیة حجاً إلی أماکن معینة، ففی یوم الاستغفار (عید المظال) کانوا یحجون إلی جبل سیناء، وفی عید الفصح إلی بیت المقدس، وفی عید استیر وعید المطر و... و... الخ یتجهون إلی أماکن أخری کما سنری من خلال البحث ان شاء اللّه...

مع هذا، وعند استقرائنا للتوراة، لم نجد ذکر مکان معینٍ خاصٍ للحج علی لسان نبیهم موسی علیه السلام کوعدٍ الهی لهم، ونتساءل هنا: هل اللّه تعالی لم یشرع لهم فریضة الحج إلی مکان معین، أم رواة وکتبة النصوص الدینیة التوراتیة تجاوزوا ذکرها، أم تعمدوا تحریفها لعنصریتهم المعروفة؟

ولهذا تعددت اماکن الحج، وکثرت الیها الرحلات الیهودیة فی الأعیاد السنویة، ویکاد کل موضع یبدأ اسمه بکلمة «بیت» یکون مکان حج وزیارة سابقاً أو لاحقاً، فمثلًا «بیت المقدس» و «بیت إیل» و «بیت آوِن» کان بالقرب من بیت إیل و «بیت إصِلْ» فی یهوذا و «بیت حور» بالقرب من القدس و «بیت هاجَنَّ» فی المکان الذی ولد فیه عیسی علیه السلام فی بیت لحم و «بیت هاشطة» وبیوت أخری

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامیة ۷: ۳۰۵.

ص: ۹۳

وأخرى كثيرة يطول الكلام فى عدّها وذكرها، يمكن الرجوع إلى الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديد) حيث أحصاها وعدّها عدّاً... وفى تحديد أوقات الحج، يقول د. حسن ظاظا: أما الأوقات التى يحجون فيها فهى موازية لأعيادهم وهى ثلاثة أوقات:

۱- عيد الفصح: ويقع فى فصل الربيع، ومدته ۷ أيام تبدأ يوم ۱۵ نيسان فى التقويم اليهودى.

۲- عيد الحصاد أو الأسابيع (شبو عوت)، ومدته يوم واحد، ۶ من شهر سيوان اليهودى، ويقع فى أوائل الصيف (يونية).

۳- عيد الظُلل: (سوكوت) ومدته ثمانية أيام، ويأتى فى الخريف، ويبدأ يوم ۱۵ تشرى اليهودى، ويسمون هذه المواسم «الثلاثة الاعتيادية» يستحب فيها الحج؛ لاقترانها بالكثير من الصدقات (۱).

وجهة النبىّ موسى عليه السلام فى الحج

ومن الضرورى والمناسب أن نعرف وجهة كليم اللّه النبى موسى عليه السلام فى الحج، قبل أن نقف على ما حرّف اليهود من شريعة موسى عليه السلام نبيهم الذى ينسبون أنفسهم إليه، ويدّعون أنهم من أتباعه ومحبيه والسائرين على خطه وتعاليمه...
عند تتبعنا للأخبار والروايات والأحاديث الواردة من السُنة الشريفة لا نجد الكليم موسى عليه السلام توجه بوجهة معاكسة أو مخالفة لما توجه إليها أنبياء اللّه والمرسلون فهو عليه السلام حج وطاف ولبى فى بيت اللّه العتيق مقتدياً بسنة آبائه وأجداده من الأنبياء، ومجيباً لأوامر السماء، هذا ما تؤكده الروايات فى حجه عليه السلام، نختار منها:

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۱۰.

ص: ۹۴

روی عن ابن عباس أنه قال: «کنّا مع رسول اللَّه صلی الله علیه و آله بین مکة والمدینة، فمررنا بوادٍ، فقال: أی واد هذا؟ قالوا: وادی الأزرق، قال: کأنی أنظر موسی صلی اللَّه علیه وسلم (فذکر من طول شعره شیئاً لا یحفظه داود- أحد رواة الحدیث-) واضعاً أصبعیه فی أذنیه، له جؤار إلی اللَّه بالتلبیة ماراً بهذا الوادی، قال: ثم سرنا حتی کذا وکذا... الخ» (۱) أی ذکر حجه إلی مکة المکرمة والکعبة الشریفة.

وروی عن أبی جعفر الباقر علیه السلام: مرّ موسی بن عمران علیه السلام فی سبعین نبیاً علی فجاج الروحاء... یقول: لبیک عبدک ابن عبدیک» (۲).

وعن أبی جعفر الباقر علیه السلام أیضاً أنّه قال: «أحرم موسی من رملة مصر، قال:

ومرّ بصفائح الروحاء محرماً، یقود ناقة بخطام من لیف، علیه عباءتان قطونیتان، یُلبی وتجیبهُ الجبال» (۳).

وروی عن الإمام الصادق علیه السلام أنّه قال: «مرّ موسی النبی (صلوات اللَّه علیه) بصفائح الروحاء علی جمل أحمر، خطامه من لیف علیه عباءتان قطونیتان وهو یقول: لبّیک یا کریم لبیک» (۴)

.وجاء فی أخبار مکة: «حج موسی النبی علی جبل أحمر فمرَّ بالروحاء علیه عباءتان قطونیتان متزر بأحدهما مرتدی بالأخری فطاف بالبیت، ثم طاف بین الصفا والمروة فبینا هو بین الصفا والمروة إذ سمع صوتاً من السماء وهو یقول: لبیک عبدی أنا معک، فخر موسی ساجداً» (۵)

۱- ۱ سنن ابن ماجة ۲: ۹۶۵، محمد بن یزید القزوینی، الحلبی وشرکاه.

۲- ۲ وسائل الشیعة ۱۲: ۳۸۵ ح ۱۶۵۷۴.

۳- ۳ وسائل الشیعة ۹: ۵۴.

۴- ۴ بحار الأنوار ۹۹: ۱۸۵، الطبعة البیروتیة.

۵- ۵ أخبار مکة، الأزرقی: ۶۸- ۶۹.

ص: ۹۵

والنبی موسی علیه السلام من کبار الأنبیاء والرسل، وفی مصطلحاتنا الإسلامیة یُعدُّ من أُولی العزم، وعلیه فلا یمکن أن ینحرف فی حجه إلی الوجهة غیر الصحیحة وغیر المرضیة عند اللَّه تعالی وإذا وجدنا هناک انحرافاً فی الیهودیة فهو فی قومه الذین خالفوه، ولم یلتزموا بتعالیمه وأوامره مما أخذهم اللَّه تعالی بانحرافهم وذنوبهم، فکانوا قوماً مهانین ومغضوباً علیهم إلی یوم یبعثون، قال تعالی فیهم: وضُربت علیهم الذلةُ والمسکنة وباءوا بغضبٍ من اللَّه ذلک بأنهم کانوا یکفرون بآیات اللَّه ویقتلون النبیین بغیر الحق ذلک بما عَصَوا وکانوا یعتدون (۱)

انحراف الیهود فی حجهم

لم یتبع الیهود سُنة کلیم اللَّه موسی علیه السلام، نبیهم الذی توجه فی حجه إلی بیت اللَّه العتیق کما مرّ علینا سابقاً، بل حرّفوا أغلب تعالیم دینه ومن ضمنها الحج، ومن الملاحظ أن: «الحج عند الیهود فی الوقت الحاضر لیس بفریضة عندهم ولا برکن من أرکان العبادة کما هو فی الإسلام، فهو علی أکثر تقدیر یشبه (العُمرة) عند المسلمین» (۲)

.وانقسم (۳)

الیهود بعد الکلیم علیه السلام إلی عدة فرق، وکلُّ فرقة اتخذت لها وجهة

۱- ۱ البقرة: ۶۱.

۲- ۲ طقوس الحج عند الیهود، د. حسن ظاظا، الفیصل، العدد ۲۱۰: ۱۰.

۳- ۳ انقسم الیهود بعد موسی علیه السلام إلی عدة فرق ودویلات من الناحیة السیاسیة ومن الناحیة القبلیةومن الناحیة الدینیة، والذی یهمنا هنا انقسامهم من الناحیة الدینیة، فقد انقسموا إلی خمس فرق دینیة، وهی: فرقة الفریسیین وفرقة الصدوقیین، وفرقة السامریین، وفرقة الحدسیین، وفرقة القرائین.

ص: ۹۶

ومكاناً تحج إليه بوضع تعاليم وطقوس وشعائر خاصة بها.

ولنعرض قسماً منها على سبيل المثال لا الحصر:

۱- توجه قسم منهم إلى بيت المقدس وهيكل سليمان عليه السلام.

۲- والقسم الآخر إلى جبل النبى موسى عليه السلام فى طور سيناء.

۳- وآخرون إلى بئر الحى الرائى بالقرب من مدينة الخليل.

۴- ومنهم من توجه إلى (بقاع مباركة)- حسب تعبيرهم- أهمها الجبال الشامخة والتلال والآبار وعيون الماء وأماكن طبيعية أخرى وسنحاول ان شاء اللّه تعالى تفصيل هذه النقاط قدر استطاعتنا، وبيان الأساليب المتبعة فى حجهم وتاريخه والمواقع الجغرافية لكلّ منها.

الحج إلى بيت المقدس

يُعدُّ بيت المقدس أو القدس من أهم الأماكن المقدّسة لدى اليهود- إضافة إلى أهميته عند المسيحيين والمسلمين- لذلك تميّز حجهم لهذا البيت بقدسية ومعنى خاصين.

عظّم اليهود بيت المقدس وخاصة فرقة (يهوذا) المنحدرة من داود وسليمان عليهما السلام، خصوصاً بعد بناء النبى سليمان عليه السلام للهيكل المعروف فى القدس الشريفة ب (هيكل سليمان).

«وقدسية بيت المقدس عند اليهود تاريخها مقارناً لبناء سليمان الهيكل، والهيكل المعبد المركزى لليهود الذى صار حرماً للحج وقبلة للصلاة منذ عهد داود وسليمان عليهما السلام، وهذا المعبد الضخم تعرض عبر تاريخه ولحد الآن إلى أحداث جِسام لم يبق منه إلّاجزء من جدار، يعرف عند اليهود باسم (الجدار الغربى) وعند سائر الأُمم باسم «حائط المبكى وهو جدار من سور يرجع إلى عهد هيرودس المعاصر

ص: ۹۷

لمولد المسيح عليه السلام» (۱)

.والقـدس: مدينـة تقع وسط فلسطين فوق تل صـخرى من تلال اليهوديـة على ارتفاع (۷۶۲ م) على بُعـد حـوالى ۵ كم من يافـا، وهى المدينة الجديدة... أما المدينة القديمة فتقع بآثارها الدينية بالمملكة الأردنية الهاشمية.

قراءة تلمودية عند حائط المبكى

وبيت المقـدس: هو البيت الـذى فيه مقدسات الأديان الثلاثة (اليهودية- والمسـيحية- والإسـلام) وتضم المدينة القديمة معظم الأماكن المقدسـة. كـان اليهود يعتقـدون أن جانباً من أحـد جـدران المسـجد الأقصـى بنى بأحجـار أخـذت من هيكـل سـليمان، وهو الجـدار المعروف بحائط المبكى .. وقد تكون هى شـليم، المذكورة فى سـفر التكوين، وجعلها داود عاصـمته بعد انتزاعها من اليبوسيين، وأقام سليمان هيكله العظيم بها، فزاد من بهائها وعظمتها، واتخذها ملوك يهوذا عاصمة

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۹.

ص: ۹۸

مملكتهم. التى ظهر فيها كثير من عظماء الأنبياء من بنى اسرائيل الذين نادوا برسالتهم فى شوارعها.

ويُقال: «ما فيها موضع شبر إلّاوقد صلّى فيه نبى» (۱)

.«حارب اليهود العرب لانتزاعها من ايـديهم، واضـطر اليهود إلى أن ينزلوا للعرب عن المدينـة القديمـة، ولكن المدينة الجديدة لا تزال فى قبضتهم» (۲)

.القدس الحالية

المهم، أنّهم- فرقـة يهوذا- اتخـذت من بيت المقـدس وهيكل سـليمان محجـةً سـنويةً لها فى العيـد السـنوى الدينى المسـمى ب (عيد الفصح) (۳)

.وأهم المراسم المتبعة فيه هى «الضـحية» أى القربان أو «الهدى» فى المصطلح الإسلامى، يقدم إلى الرب أو الإله، وهذا القربان تؤكده وصايا تلمودهم (۴)

، التى تختلف اختلافاً كبيراً مع الوصايا المنصوص عليها فى التوراة فى مسألة

۱- ۱ معجم البلدان ۱: ۱۱۲.

۲- ۲ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

۳- ۳ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۴۵۴.

۴- ۴ التلمود: تعاليم دينية وضعها علماء اليهود، وهى كالرسائل العملية عندنا، مع فارق لا قياس فيه.

ص: ۹۹

«الضحية»، فالتوراة أوصاهم بتقديم «ثور» (۱)

قرباناً للرب فی عید الفصح. أما تعالیم التلمود فکانت توصیهم أن تکون الضحیة من البشر:

و «تختار الضحایا أو الذبائح فی عید الفصح من الأطفال، الذین لا تتجاوز سنهم العاشرة أو تزید عنها قلیلًا. ویمزج دم الضحیة بعجین الفطائر قبل تجفیفه أو بعده... ویستنز الیهود دم الضحیة بطرائق کثیرة: فأحیاناً یتم ذلک عن طریق «البرمیل الابری» وهو برمیل مثبت علی جوانبه من الداخل إبر حادة توضع فیه الضحیة حیّة فتنغرز هذه الإبر فی جسمها، وتسیل الدماء ببطء من مختلف الأعضاء، وتظل کذلک فی عذابٍ ألیم حتی تفیض روحها، بینما یکون الیهود الملتفون حول هذا البرمیل فی أکبر نشوة بما یبعثه هذا المنظر فی نفوسهم من لذة وسرور. وینحدر الدم إلی قاع البرمیل ثم یصب فی إناء مُعد لجمعه»(۲)

.و «أحیاناً تقطع شرایین الضحیة فی عدة مواضع لیتدفق الدم من جروحها.

وأحیاناً تذبح الضحیة کما تذبح الشاة ویؤخذ دمها، وبعد أن یتجمع الدم بطریقة من الطرق السابقة أو غیرها تسلم إلی الحاخام أو الکاهن أو الساحر، الذی یقوم باستخدامها فی إعداد الفطائر المقدسة أو فی عملیات السحر» (۳)

.أما الزمان أو الوقت الذی یحجون فیه إلی بیت المقدس، لیقیموا شعائرهم فی عیدهم الدینی هذا، فهو الیوم الرابع عشر من الشهر الأول من سنتهم الدینیة وهو شهر نیسان، ویحتفلون فیه بنجاة موسی علیه السلام وبنی إسرائیل من فرعون وقومه

۱- ۱ العهد القدیم، سفر الخروج، الاصحاح ۲۹: «خذ ثوراً واحداً ابن البقر وکبشین صحیحین و... الخ» راجع.

۲- ۲ الیهود والیهودیة، د. علی عبدالواحد وافی: ۴۴- ۴۵، وکتاب حقائق وأباطیل، فوزی محمد حمید: ۱۴۱- ۲۰۰.

۳- ۳ المصدر نفسه، ومن المعلوم عندهم أن یکون دم الضحیة من غیر الیهود، وإذا کان دم مسیحی فیکون أفضل عندهم.

ص: ۱۰۰

وخروجهم من مصر (۱)

.والفصح فى اللغة (فصح أى الفسح أو الخروج أو المرور).

وقد ورد أن هذا العيد «عيد اليهود، ۱۵ نيسان (الشهر السابع فى التقويم العبرى) ويسمى أيضاً عيد الفطير، وفيه خروج بنىإسرائيل من مصر هرباً من فرعون» (۲)

.وعن قضية التضحية بالأطفال يقول وِل ديوارنت:

«لقد كان اليهود الأقدمون يشتركون مَع الكنعانيين والمؤابيين والفينيقين والقرطاجنين وغيرهم من الشعوب فى عادة التضحية بطفل، بل بطفل محبوب، لاسترضاء السماء الغضبى، ثم أصبح فى الإمكان على توالى الأيام أن يستبدل بالطفل المجرم المحكوم عليه بالإعدام، وكان البابليون يلبسون هذا الضحية أثواباً ملكية، لكى يمثل بها ابن الملك، ثم تجلد وتشنق، وكان هذا نفسه يحدث فى رودس فى عيد كرونس. وأكبر الظن أن التضحية بحمل أو جدى فى عيد الفصح ليست إلّا تخفيفاً لهذه التضحية البشرية اقتضاه تقدم المدنيّة» (۳)

.والظاهر أن اليهود فى الحال الحاضر يضحون بحمل أو جدى فى حجهم إلى بيت المقدس، وقتلهم للبشر اتخذَ صوراً أخرى ..

جبل موسى عليه السلام فى صحراء سيناء

اعتقد اليهود أن الجبل الواقع فى طور سيناء، الذى يبعد (۳۲۰) كيلومتراً عن منطقة عيون موسى والذى يبلغ ارتفاعه (۷۶۰۰) قدم، هو الجبل الذى كلّم اللّه

۱- ۱ انظر العهد القديم، سفر اللاوبين، الاصحاح ۲۳، الفقرات ۵- ۹.

۲- ۲ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۲۴۷.

۳- ۳ قصة الحضارة، مج ۶، ۱: ۲۶۴.

ص: ۱۰۱

تعالى موسى عليه السلام فيه، وأنزل عليه الألواح المقدسة... فقدسوا هذا الجبل جيلًا بعد جيل وحجّوا إليه، وعدّوه من المقدسات اليهودية المهمة.

وقد صرّح الاستاذ (منشه حاريل) استاذ الجغرافيا الدينية وتاريخ الأديان بالجامعات العبرية قائلًا: «إن اليهود يحجون كلّ عام... ومن القرن السابع الميلادى حتى اليوم إلى جبل موسى ويتحملون مشقة الوصول إليه، وتسلق (۳۸۰۰) درجة للوصول إلى قمته، التى يعتقدون أن موسى كلّم ربّه فوقها، وتلقى منه الرسالة والوصايا، حتى أصبح ذلك الجبل بالنسبة لهم كالكعبة بالنسبة للمسلمين. ولا يقل عدد من تحملوا مشقة ذلك الحج عن العشرين مليون يهودى، حتى أصبح ذلك الجبل من المقدسات الدينية» (۱)

.ثم بيّن خطأ اعتقادهم وصرّح فى حديث له نُشر فى مجلة المختار الألمانية عام (۱۹۷۴ م) بأنّ كلّ ما ورد ببحوث البعثة الأمريكية صحيح، وأنّه يتفق مع النتائج، التى توصلت إليها بحوث معهده، وتمَّ تسجيلها وإعداد مخططاتها من بضع سنوات، فالجبل الذى يحجون اليه ليس هو نفسه الجبل الذى كلّم اللّه تعالى موسى عليه السلام فيه.

ولما سئل عن سبب عدم موافقته على نشرها واعلانها رسمياً قال: «فإعلان تلك البحوث أو الحقائق التاريخية ستخيب آمالهم وتفقدهم ثقتهم فى اسطورة تحولت إلى عقيدة» (۲)

.والحقيقة، أنّ التوراة تذكر مشخصات وعلامات لجبل موسى عليه السلام تختلف عما موجود فى الجبل الذى يحجون إليه سنوياً كبُعده من عيون موسى وارتفاعه وغيرها من العلامات... ووصف الأرض أنّها أرض مناجم الفيروز والنحاس،

۱- ۱ فرعون موسى، د. سيد كريم، مجلة الهلال، العدد ۵: ۷۳، عام ۱۹۷۵ م.

۲- ۲ المصدر السابق.

ص: ۱۰۲

الذى اشتهر اليهود بصناعتها والتجارة فيها فى ذلک الوقت (۱)

.فالجبل الـذى يحجون إليه سـنوياً بعيـد عن عيون موسـى وأكثر ارتفاعاً من الجبل المذكور فى التوراة، والذى كشـفته البعثة الأمريكية للآثار، وليس لمناجم الفيروز والنحاس وجود فيه...

إذن هـذه العقيـدة الإسـطورية لليهود، أصـبحت واضـحة للعيان كوضوح الشـمس فى ظهر النهار أنّها بِدعة ابتدعتها أنفسـهم بعد ميلاد عيسى المسيح عليه السلام بسبعة قرون، ومثلها تعاليم التلمود، ومثلها من تدوين التوراة من قبل، وهكذا.

أما مناسـک حجهم إلى هـذا الجبـل، يمكن بيانهـا من خلال الموازنـة التى أجراها (هوتسـما) (Houtsma) بين الوقـوف- وقوف المسـلمين فى عرفات- وبين إقامة بنى إسـرائيل على جبل سيناء، فهؤلاء يعدون أنفسهم لهذه الإقامة بالامتناع عن النساء (سفر الخروج، الاصحاح ۱۹، آيه ۱۵)، وبغسل ثيابهم (الخروج، ۱۹/ ۱۰ و ۱۴) وبذلک يقفون أمام الرب، وعلى هذا النحو لا يقرب المسلمون النساء ويرتدون ثياب الإحرام ويقفون أمام الخالق فى سفح جبل سيناء» (۲)

.ومن مناسک هـذا الجبل أيضاً، الاستسـقاء من ماء عين (شـيلوه المقدسـة) ولهـذا الاستسـقاء تعويـذة خاصـة، وإنارة المعبد، وكذلک الضحية (الهدى) وأمور أخرى إضافة إلى ذلک فإن وقت هذا الحج لهذا الجبل، يكون عادةً فى عيد المظال أو (يوم الاستغفار) (۳)

، «فمن الطبيعى عند البحث فى معناه الأصـيل أن نوازن بينه وبين عيد الخريف عند سامى الشـمال، وهو عيد المظال (أو يوم الاستغفار) وهو أمر نجد له ما يؤيده أيضاً من أن عيد المظال فى التوراة غالباً ما يطلق عليه للايجاز اسم «حج»

۱- ۱ راجع سفر الخروج العهد القديم يبين ويوضح جغرافية ذلک المكان.

۲- ۲ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۶.

۳- ۳ راجع المصدر نفسه: ۳۱۰.

ص: ۱۰۳

(سفر القضاة، الاصحاح ۲۱، الفقرة ۱۹، وسفر الملوك الأولى الاصحاح الثامن، الفقرات ۲ و ۶۵)...» (۱)

بئر الحى الرائى بالقرب من الخليل

وهناك فرقة أخرى من اليهود قدست هذه المنطقة التى فيها (البئر المقدس) وحجت إليها، وما زالت هذه الفرقة تعتقد أنّها بلد جدّهم الأعلى إسحاق بن الخليل ابراهيم عليهم السلام، ومدينة إقامته ووفاته.

جاء فى التوراة: «وكان بعد موت إبراهيم أن اللّه بارك إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحى الرائى و... الخ» (۲)

.وذكرت التوراة أيضاً أنّ إسحاق تزوج من (رفقة) فى ذلك المكان فى حياة أبيه إبراهيم عليه السلام وامّه سارة:

«وكان إسحاق قد أتى من وُرُود بئر لحى رُئى. إذ كان ساكناً فى أرض الجنوب، وخرج إسحاق ليتأمل فى الحقل عند إقبال المساء، فرفع عينيه ونظر وإذا جِمالٌ مقبلة، ورفعت رفقةُ عينيها فرأت اسحاق فنزلت عن الجمل، وقالت للعبد:

مَن هذا الرجل الماشى فى الحقل للقائنا؟ فقال العبد: هو سيدى. فأخذت البرقُعَ وتغطّت، ثم حدَّث العبدُ إسحاق بكلّ الأمور التى صنع، فأدخلها إسحاق إلى خِباء سارة أُمّه، وأخذ رفقة فصارت له زوجة وأحبها» (۳)

.ولهذه القصة فى هذا المكان المقدس، لها وقع خاص فى قلوب اليهود؛ لذلك قُدست المنطقة وقُدس ماءُ بئرها.

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۶.

۲- ۲ العهد القديم، سفر التكوين، الاصحاح ۲۵، الفقرة ۱۱.

۳- ۳ المصدر السابق، الاصحاح ۲۴، الفقرات ۶۲- ۶۷.

ص: ۱۰۴

ومنطقـة (بئرالحی‌الرائی) تقع‌بالقرب من‌مدینـة الخلیل، والخلیل علی بُعد (۴۴) کم جنوب بیت المقـدس، وهی مدینـة حبرون القدیمة، وفیها قبر الخلیل إبراهیم وزوجه سارة وإسحاق ویعقوب وقبر رفقة، ویضمّ هذه القبور مسجدٌ کبیر (۱)

.ولهؤلاء الخمسة مکانة خاصة عند بعض الیهود؛ لذلک قُدست قبورهم وأماکن ذکریاتهم، واعتبرت مکاناً یُحج الیه، ویتقرب بهم إلی اللَّه فی تقـدیم الأضـاحی والنـذورات والهـدایا، وقراءة الأدعیـة والتضـرع والتخشع والبکـاء؛ للحصول علی النعیم الاخروی من خلالهم ولرضا الربّ الاله.

ویقول د. حسن ظاظا فی الحج إلی هذه المنطقة:

«وبئر الحی الرائی، بـالقرب من الخلیـل، وقبـاله سـندیانة قمْرا، کثیر من أتقیاء الیهود یحجون الیها حتی الیوم، لِما جاء فی التوراة: وکان بعد موت إبراهیم أنّ اللَّه بارک إسحاق ابنه، وأقام إسحاق عند بئر الحی الرائی، وتزوج عندها فی رفقة قبل موت ابویه سارة وإبراهیم» (۲)

معبد (بیت إیل) بالقرب من نابلس

معبد (بیت إیل) بالقرب من نابلس (۳)

عظمت هذا المعبد فرقة أخری من الیهود وهی فرقة (السامریة) وهی الفرقة الیهودیة التی لا تؤمن إلّابالأسفار الخمسة، التی تمثل القسم الأول من (العهد القدیم)، وکذلک لا تؤمن بالبعث والیوم الآخر... وقد ذکرها ابن حزم فی کتابه

۱- ۱ انظر الموسوعة العربیة المیسرة: ۷۶۴.

۲- ۲ طقوس الحج عند الیهود، د. حسن ظاظا، الفیصل، العدد ۲۱۰: ۷.

۳- ۳ نابلس: مدینة بالمملکة الأردنیة الهاشـمیة، علی الضفة الغربیة لنهر الأردن، وعلی بُعد ۶ کم شمال بیت المقدس، یعیش بها عدد قلیل من السامریین القـدامی، الـذین مازالوا یحافظون علی طقوس عبادتهم وعلی تقالیدهم القدیمة. ذکرتها التوراة باسم شـکیم بمعنی منکب، انظر الموسوعة العربیة المیسرة: ۱۸۱۱.

ص: ۱۰۵

(الفصل فی الملل والأهواء والنحل) قائلًا:

«إنّهم يبطلون كلّ نبوة كانت فی بنی إسرائيل بعد موسی ويوسع عليهما السلام، فيكذبون شمعون وداود وسليمان وأشعيا واليسع وإلياس وعاموص وحبقوق وزكريا وأرميا وغيرهم، وأنّهم يقولون: إنّ مدينة القدس هی نابلس، وهی من بيت المقدس على ثمانية عشر ميلًا، ولا يعرفون حرمة بيت المقدس ولا يعظمونه.

وهم بالشام لا يستحلون الخروج عنها» (۱)

.وكان معبد «بيت إيل» الذی أقامه يعقوب فی أرض كنعان بالقرب من نابلس، المكان الأول الذی يحج اليه بنو اسرائيل حتى أن شيّد سليمان الهيكل فی القدس، ولم يفقد منزلته هذه إلّابعد انشطار مملكة سليمان نصفين بعد وفاته:

۱- السامرة شمالًا وكانت مملكة معادية لأسرة داود وسليمان فی الجنوب، وتسمى نفسها إسرائيل! واستمرت فی الحج إلى بيت إيل.

۲- يهوذا المنحدرة من داود وسليمان، فكانت تحج إلى «الهيكل» فی أورشليم، وهو الاسم الذی اشتهرت به منذ سليمان (۲)

.وفی هذا المعبر قبر يوسف عليه السلام، وعين يعقوب عليه السلام بالقرب منها (۳)

.أما القبلة التی تتوجه إليها فرقة السامرة فهی نحو جبل يقال له «غريز يم» بين بيت المقدس ونابلس. قالوا: إنّ اللّه تعالى أمر داود أن يبنی بيت المقدس بجبل نابلس، وهو الطور الذی كلّم عليه موسی عليه السلام، فتحول داود إلى (إيلياء) وبنی البيت ثمة، وخالف الأمر، فظلم، والسامرة توجهوا إلى تلك القبلة دون سائر

۱- ۱ الفصل فی الملل والأهواء والنحل، ابن حزم ۱: ۸۲.

۲- ۲ انظر طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، الفيصل، العدد ۲۱۰: ۷.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۸۱۱.

ص: ۱۰۶

اليهود (۱). الذين قبلتهم بيت المقدس.

وكلمة «إيل» تعني «اللَّه» فيكون معنى المعبد «بيت اللَّه» ويجاور هذا المعبد، جبل ونخلة، الجبل اتخذوه كعرفات في مكة، والمعبد كالكعبة، والنخلة ك (العُزى :

وهي في وادي بطن نخلة، قطعها خالد بن الوليد بأمر النبي محمد صلى الله عليه و آله التي كان يُحجُ إليها في الجاهلية ويُعلق عليها النذور والهدايا... فمقام تلك النخلة كهذه.

ولفرقة السامرة طقوس خاصة كالطواف والأضاحي وغيرها من صعود الجبل والوقوف عليهِ، وتقديم النذورات والهدايا والقرابين للشجرة المقدسة؛ لتقضي لهم حوائجهم... وقد جاء في سفر القضاء: «وكانت دبورة النبيّة، زوجة لفيدوت متولية قضاء بني إسرائيل في ذلك الزمان- أي بعد موسى بقرنين- وكانت دبورة تجلس تحت (نخلة دبورة) بين الرامة وبيت إيل (في إقليم نابلس) في جبل أفرايم، وكان بنو إسرائيل يصعدون إليها لتقضي لهم» (۲)

.ومن الجدير ذكره أنّ دعاء السمات للشيعة الإمامية، ذكر قدسية هذا المكان، ويبدو أنّ السبب هو تجلي مجد اللَّه تعالى للنبي يعقوب عليه السلام جاء في الدعاء: «اللهم وباسمك العظيم الأعظم الأعز الأجل الأكرم، وبمجدك الذي تجليت به لموسى كليمك عليه السلام ول... ول... وليعقوب نبيك عليه السلام في بيت إيل» (۳).

أماكن مقدسة من الطبيعة

وحجَّ قسمٌ آخر من اليهود إلى أماكن طبيعية كالجبال الشاهقة، وبعض التلال والأشجار والآبار وعيون الماء، اعتماداً على النصوص التوراتية، واقتداءً بسُنة

۱- ۱ الملل والنحل، الشهرستاني، ت ۵۴۸ ه: ۲۰۰، الطبعة الإيرانية.

۲- ۲ سفر القضاء، الإصحاح ۴، الفقرات ۴- ۵.

۳- ۳ مفاتيح الجنان، الحاج الشيخ عباس القمي، دعاء السمات.

ص: ۱۰۷

الأجداد، الذين قدسوها واعتبروها آيات عظيمة تقربهم إلى الرب.

وهذا النص التوراتى يبين قدسية الأماكن الطبيعية من الأرض: «هذه هى الفرائض والأحكام التى تحفظون لتعلموها فى الأرض التى أعطاك الربُّ إله آبائِك؛ لتمتلكها كلّ الأيام التى تحيون على الأرض. تخربون جميع الأماكن حيث عبدت الأُمم، التى ترثونها آلهتها على الجبال الشامخة، وعلى التلال، وتحت كلّ شجرة خضراء. وتهدمون مذابحهم، وتكسرون أنصابهم، وتحرقون سواريهم بالنار، وتقطعون تماثيل آلهتهم، وتمحون اسمهم من ذلك المكان... لا تفعلوا هكذا للرب إلهكم. بل المكان الذى يختاره الرب إلهكم من جميع أسباطكم ليضع اسمه فيه سُكناه تطلبون والى هناك تأتون. وتقدمون إلى هناك محرقاتكم وذبائحكم وعشوركم ورفائع أيديكم ونذوركم ونوافلكم وأبكار بقركم وغنمكم» (۱).

وهذا النص التوراتى له وقع كبير فى نفوس بعض اليهود، حيث يذهبون سنوياً إلى تلك الأماكن المخصصة من الطبيعة، التى احتلها الأجداد وقضوا على سكانها، وأحرقوهم، وقتلوهم، يذهبون إليها حجاجاً معيدين مع ذبائحهم وضحاياهم ونذورهم وهداياهم، وهذا ما يوجبه عليهم المقطع الأخير من النص، اضافة إلى أمرهم بالصلاة الخاصة هناك، وتقديم البكر من البقر والغنم إما ضحية أو هدية، وقبل هذا كلّه يوصيهم النص أن يقدموا محرقاتهم اى (ينيروا المكان) ليستضيئوا ولا تمسهم الظلمة.

وهذا الحج فى الحقيقة عادة وثنية اقتبسها اليهود، الذين عاشوا فى قرون سبقت عهد موسى عليه السلام، فانتقلت إلى ابنائهم فادخلوا عليها عبر القرون والأيام ما يسدّ حاجتهم العنصرية والنفسية، فجعلوها ضمن معتقدهم الدينى.

۱- ۱ سفر التثنية، الاصحاح ۱۲، الفقرات ۱- ۷.

ص: ۱۰۸

ويقول د. حسن ظاظا: «كان اليهود- أو بنو إسرائيل- يجعلون من الأشجار والجبال والتلال وعيون الماء والآبار مزارات يحجون إليها ويتبركون بها، ويبنون عندها معابدهم» (۱).

جاء في الحديث عن إبراهيم عليه السلام في التوراة: «وتجلّى له الرب في سندبانة (قَمْرا) وهو جالس بباب الخيمة، عند ارتفاع النهار. فرفع بصره وألقاه فرأى ثلاثة رجال واقفين أمامه، فلما رآهم هَمَّ لاستقبالهم أمام باب الخيمة، وسجد على الأرض قائلًا: مولاى! إن كانت لى حظوة فى عينيك، فلا تضرب صفحاً عن عبدك، سأقدّم لكم بعض الماء فتغسلون أرجلكم، وتتكئون تحت الشجرة، وأقدّم كسرة خبز، لتسندوا بها قلوبكم، ثم تنصرفوا، بعد ذلك، فإنكم لذلك مررتم بعبدكم.

قالوا: اصنع كما قلت! فاسرع إبراهيم إلى الخيمة، إلى سارة، وقال: هاتى ثلاثة أصواع من دقيق سمين، فاعجنيها واصنعيها خبز مَلَّة. وبادر إبراهيم إلى البقر فأخذ عجلًا حنيذاً طيباً، ودفعه إلى الغلام، فأسرع فى إعداده. ثم أخذ زبداً ولبناً، والعجل الذى كان قد هيّأه، ووضع ذلك بين أيديهم، وهو واقف أمامهم تحت الشجرة، فأكلوا. ثم قالوا: أين سارة، امرأتك؟ قال: هى فى الخباء، قال: سأرجع إليك مثل الآن فى العام القادم، ويكون لسارة امرأتك ابن. وكانت سارة تستمع عند باب الخباء، وهو وراءه. وكان إبراهيم وسارة شيخين طاعنين فى السن، يستحيل أن يكون لهما ما للنساء. فضحكت سارة فى نفسها قائلة: أبعد شيخوختى يكون لى تَنَعُّم (۲)؟ وبعلى شيخ كبير! فقال الرب لإبراهيم: ما بال سارة قد ضحكت قائلة: أألدُ وأنا عجوز؟ أهذا على الرب أمر عسير؟ فى مثل هذا الوقت من قابل،

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود: ۷.

۲- ۲ التنعّم: يعنى البنين أو بمعنى الذريّة.

ص: ۱۰۹

أعود اليك ويكون لسارة ابن» (۱).

ولأن التجلی الإلهی والبشری بإسحاق كانتا عند هذه الشجرة (السنديانة)، فقد قدسها بنو إسرائيل وكانوا يحجون إليها، ويتبركون بها، ويطلبون منها حوائجهم.

«أما العيون والآبار فمن أشهرها «قادش» الذی يدل اسمها المؤابی علی تقديسها، واحتفظت فی اسمها بالعربية (عين قديس) ويتصدر الآبار (بئر سبع) جنوب شرقی غزّة. وكان الساميون القدماء من بنی إسرائيل وغيرهم يعتقدون أنّ هذه البئر (مسكونة) أی تقيم فيها كائنات غير منظورة من الملائكة والجن، وأنّ عددهم سبعة، تسهر علی عقاب الحانث فی يمينه، المتعمد للكذب، فكان عليه أن يذهب مع خصمه إلی تلك البئر، ويدعو علی نفسه باللعنات السبع، كأن يموت بلا عقب، وأن يفقد كلّ عزيز عليه، وأن يصاب فی ماله، وصحته، وشرفه، وأن يضرب فی الأرض شريداً، وأن يفقد السمع والبصر والعقل... الخ» (۲).

تلخيص واستنتاج

وصفوة القول أنّ الديانة اليهودية عرفت الحج كممارسة عبادية، مادية ومعنوية، كما عرفتها الديانة الإسلامية والديانات الأخری التوحيدية وغير التوحيدية، لكن الفرق يكمن فی ماهية هذه العبادة والأعمال والشعائر والمكان والزمان، والأهم من هذا كله، اتباع ما اعتقدوا هم به، وليس بما جاءهم به نبيهم من شريعة السماء، بالتوجه الصحيح إلی المكان المطلوب، والزمان المعين، والمناسك المفروضة و... الخ.

۱- ۱ سفر التكوين، الاصحاح ۱۸، الفقرات ۱- ۱۴.

۲- ۲ طقوس الحج عند اليهود: ۷.

ص: ۱۱۰

والحج فُرض على الناس منذ زمن الخليل إبراهيم عليه السلام حين أذن فى الناس:

وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالًا وعلى كلّ ضامرٍ يأتين من كلِّ فجّ عميق (۱)

.وهـذا الفرض السـماوى عيّن المكـان وعيّن الزمان واشترط الاسـتطاعهٔ لأدائه، فقال تعالى ولِلَّه على الناس حـج البيت من اسـتطاع إليهِ سبيلًا (۲)

أى حقّ على الناس كافهٔ أن يحجوا إليه- إلى البيت الحرام- حيث هى الدعوهٔ عامهٔ وليست خاصهٔ لفئهٔ معينهٔ من الناس دون أخرى ولم يخصـص المسـلمين دون غيرهم أو المؤمنين دون غيرهم، اللَّه تعالى لا يفرق بين عباده، فلم يقل ولِلَّه على المسـلمين أو على المؤمنين أو على الفرقهٔ الفلانيهٔ أو الفئهٔ الفلانيهٔ، أو تلك القبيلهٔ أو العنصر المعين أو اللون المفضل، بل جاء الخطاب عاماً للنّاس.

وقوله تعالى إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكهٔ مباركاً وهدًى للعالمين (۳)

. ومن غير الممكن أن يجعل اللَّه تعالى لفئهٔ من عباده بيتاً فيه البركهٔ والهدى والرحمهٔ وغفران الذنوب و... و... ويحرم آخرين منه.

وقـد روى عن الإمـام موسـى الكـاظم عليه السـلام حين سُـئل عن هـذه الآيـهٔ ولِلَّه على الناس حـج البيت... ومن كفر فإنّ اللَّه غنى عن العالمين قال: «من قال ليس هذا هكذا فقد كفر» (۴).

إذن فالحج لغير بيت اللَّه الحرام لا يُقبل من أى إنسان أياً كان، فهو بِدعهٔ لا يقبلها اللَّه تعالى ولا تأخذ معنى الحج الحقيقى.

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ آل عمران: ۹۷.

۳- ۳ آل عمران: ۹۶.

۴- ۴ وسائل الشيعهٔ ۱۱: ۱۶، ح ۴۱۲۸.

ص: ۱۱۱

هناك نصوص قرآنية تدين الخلط بين الحق والباطل، وتدين التباس الأمر على الناس نتيجة الانحراف، وترجعها إلى انعدام الرؤية الواضحة والصحيحة والاضطراب عند بعض من الناس، من أضلهم وأغواهم الشيطان للانحراف عن الطريق المستقيم وعن جادة الصواب، إلى طريق الهوى وطريق الغواية... قال تعالى

لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون (۱)

.فاليهود يعلمون أن اللّه تعالى شرع حجّاً... ويعلمون قدسية بيت اللّه الحرام، ويعرفون أن جدهم إبراهيم الخليل عليه السلام بنى بيتاً لعبادة اللّه تعالى مع هذا أنكروا الحق وألبسوه بالباطل وتوجهوا إلى أماكن ارتاحت لها أنفسهم وثبتت فيها عنصريتهم. ونسج الانحراف خيوطه فتاهت الحقيقة عليهم جيلًا بعد جيل، وضاعت معه مقدساتهم الحقيقية ومعتقداتهم الواقعية، ولعب الهوى أيضاً دوره، والإنسان ابن الهوى إذا لم يقيده قيد ويرشده مرشد(۲)

... وهذه المسألة فى غاية الدقة والأهمية.

۱- ۱ آل عمران: ۷۱.

۲- ۲ نقصد بالقيد والمرشد: العقل والإيمان الحقيقى، والارتباط باللّه تعالى.

ص: ۱۱۲

ص: ۱۱۳

ص: ۱۱۴

ص: ۱۱۵

الفصل الخامس: الحج فی الديانة المسيحية

الحجّ فی الديانة المسيحية

اشارة

مضـی النصـاری علی شاكلـة نظائرهم اليهود فی اتخاذ وجهات متعـددة، ومراسم وسـلوكيات خاصـة، خطّتها لهم خيالاتهم وأهواؤهم، وزيّن لهم الشيطان سوء أعمالهم وتصرفاتهم، حتی أحسّوا أنّهم علی حقّ وغيرهم علی باطل.

عرفوا الحـج أنّه طواف ودوار حول مقـدسات العقيـدة، فطـافوا بمقـدساتهم، وقـدموا الأضاحی والنـذورات والهـدايا... بكوا وتضـرعوا وطلبوا الغفران، وبعضهم ترك ملذات الدنيا المحللة والشهوات المباحة، واتجهوا للرهبانية عن الحياة ليتخذوا من (العذراء مريم) أسوة، ومن إلههم الثانی عيسی المسيح ربّاً- كما يزعمون- يغفر ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويدخلهم نعيم الجنة!!

وانقسم المسيحيون إلی عدّة فرق، وكلّ فرقة اتخذت وجهة خاصة فی الحج ومراسم وطقوس حجّ خاصة.

وقـد خصّص لهم كتابهم (الإنجيل المحرف) أعياداً دينية، كـ (عيد الفصح) و (عيد القيامة)، و (عيد الميلاد) و (عيد الفطاس)، وغالباً ما يصاحب أعيادهم حج وطقوس خاصة به.

ص: ۱۱۶

يقول أحد الكتاب المسيحيين (فنسنك wensinck) فی‌معنی الحج عندهم:

«وقد فسّر لغويو العرب الحج بأنه «القصد» ويتفق هذا ومعنی الحج عندنا (أی عند النصاری علی أنه من الواضح أنّ هذا المعنی اصطلاحی، كالفعل العبری، ولعل المادة ومعناها فی اللغات السامية الشمالية والجنوبية «يطوف» أو «يدور»...» (۱).

ولم نقرأ فی إنجيلهم المحرف ذكراً للحج عندهم، بل هناك أعياد دينية، يفرحون بها ويذكرون اللَّه (الأب) وابنه (يسوع المسيح) الذی جمع فی تكوينه بين الروح الإلهية والتكوين الإنسانی فهو- حسب تعبيرهم- مركب من إله وإنسان.

وعلی هذا فالمسيحية ذات إلهين وليس إلهاً واحداً، وإنَّ ديناً له أكثر من إله واحد ليس ديناً توحيدياً بل ثنائياً أو ثلاثياً يُسيِّره الإله الأب والإله الابن وروح القدس.

فالمكان الذی وُلد فيه الإله الابن محجة أولی لهم، ومكان الصلب والرفع محجة ثانية، وكل مكانٍ صلی فيه عيسی المسيح أو ظهر هو أو أمّه مريم العذراء، فهو مكان مقدس ومحجة لهم، وهذا الظهور والتجلی فی أی زمان أو مكان أو لأی شخص منهم فهو مقدس ومحل زيارة ومحجة سنوية فی أحد الأعياد الدينية التی رسمها لهم كتبة الإنجيل.

الإنسان المتدين بدين المسيحية كأی إنسان آخر فهو ابن عقيدته، ونظرة أی إنسان إلی الحياة والكون ومفاهيمه فی شتی المجالات، بل وحتی عواطفه وأحاسيسه كلّها تدور حول محور العقيدة التی يتبناها، والتی تسهم فی بنائه الفكری والأخلاقی والاجتماعی والعبادی.

فإذا حكّم الإنسان عقله تجلی له الطريق الصحيح، وإذا قلّد أو غفل أو تعصب انحرف. فكتبة الإنجيل من أمثال هؤلاء الذين قلّدوا وغفلوا وتعصبوا فامتزج

۱- ۱ دائرة المعارف الإسلامية، مجموعة من المستشرقين ۷: ۳۰۴.

ص: ۱۱۷

عندهم الحق بالباطل. وأول من أدخل البِدع وحرّفَ فی الدیانة المسیحیة، شاب یهودی اسمه شاؤول یذکر قصته الکتاب المقدس فی الاصحاح السابع من العهد الجدید، ادّعی أنّه حصلت له رؤیا ظهر فیها عیسی المسیح ودعاه إلی التبشیر.

وفجأةً غیّر هذا الشاب اسمه إلی (بولص) وأدخل فی المسیحیة ما لیس فیها؛ لیکسب بدعوته الوثنیین والجهال من الیهود ومن غیرهم.

ففی کتاب: «المئة: تقییم الأشخاص الأکثر أهمیة فی التاریخ» فإنّ مؤلفه مایکل هارت یقول: «لیس هناک شخص لعب دوراً فی الضخامة کالدور الذی لعبه بولص فی إشاعة المسیحیة» (۱).

وجهة النبیّ عیسی علیه السلام فی الحج

وعیسی روح اللَّه علیه السلام لبّی نداء نبی اللَّه وخلیل الرحمن إبراهیم علیه السلام، حین أمره اللَّه تعالی أن یؤذن فی الناس بالحج، وعَلِم (وهو من الأنبیاء الکبار: أی من أولی العزم) من اللَّه تعالی أن هذا النداء عام ولم یختص بشریحة معینة من شرائح المجتمع، بل هو یشمل جمیع الأدیان السماویة وجمیع الأنبیاء والرسل، وهو تکلیف عام، واجب علی المکلفین ومستحب لغیر المکلفین، وسنبین شروط التکلیف فی الفصول اللاحقة إن شاء اللَّه تعالی

وقد أکدت الروایات الشریفة عن الرسول صلی الله علیه و آله وعن أئمة الهدی علیهم السلام، حج ابن مریم عیسی روح اللَّه علیه السلام، إلی الکعبة الشریفة، فقد جاء عن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أنّه قال:

«والذی نفس محمد بیده لیُهلّن ابن مریم بفجّ الروحاء حاجاً أو معتمراً أو لیثنّیهما» (۲).

۱- ۱ عن کتاب: نظرة عن قرب فی المسیحیة، بربارة براون: ۲۲.

۲- ۲ مسند أحمد ۲: ۲۴۰ و ۲۷۲ بتفاوت یسیر و ۲۹۰ فی حدیث قال فیه: «وینزل الروحاء فیحج منها أو یعتمر أو یجمعهما».

ص: ۱۱۸

وعن الإمام جعفر الصادق علیه السـلام، قال: «ومرّ عیسـی بن مریم علیه السـلام بصفائح الروحاء وهو یقول: لبیک عبدک وابن أمتک» (۱).

وفی تحدید الوقت الذی کان الأنبیاء یحجون فیه إلی البیت العتیق، ومن ضمنهم عیسی علیه السلام، قال الإمام الرضا علیه السلام:

«... وقتها عشرهٔ ذی الحجهٔ... النبیون آدم ونوح وإبراهیم وعیسـی وموسی ومحمد (صلوات اللَّه علیهم) وغیرهم من الأنبیاء، إنما حجّوا فی هذا الوقت، فجعلت سُنهٔ فی أولادهم إلی یوم القیامهٔ» (۲).

والنبیّ عیسی علیه السلام أحد أولی العزم الخمسهٔ، ومن غیر الممکن أن تکون وجهته فی الحج مخالفهٔ عن وجههٔ بقیهٔ الأنبیاء والرسل، کأن یتخذ من بیت المقدس أو مکاناً آخر محجهٔ خاصهٔ له ولقومه واتباعه.

انحراف النصاری فی الحج

والنصاری أو المسـیحیون حالهم حال الیهود فی التحریف والانحراف عن سُـنهٔ اللَّه والأنبیاء، وعدم التزامهم بتعالیم نبیهم المرسل إلیهم الذی ینسـبون أنفسهم إلیه، وما أنزل علیه من شرائع السماء، وضربهم علی تعالیم الشریعهٔ بحُجب التحریف والکتمان، والترک الصریح لها، وقد ذکرهم القرآن الکریم، مستنکراً أعمالهم وعبادتهم فی آیات بینات کثیرهٔ منها قوله تعالی

قل یا أهل الکتاب لستم علی شیء حتی تقیموا التوراهٔ والإنجیل وما أُنزل إلیکم من ربّکم ولیزیدنَّ کثیراً منهم ما أُنزل إلیک من ربّک طغیاناً وکفراً

۱- ۱ بحار الأنوار، المجلسی ۹۹: ۱۸۵، الطبعهٔ البیروتیهٔ.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۱۹

فلا تأس علی القوم الکافرین (۱)

.فالآیـة الکریمـة صـریحة البیان واضـحة المعنی أن أعمالهم لیست مقبولـة، وهی لا شـیء حتی یعملوا بما أمرهم اللّه من خلال الکتب السماویة المنزلة علی أنبیائه.

عیسـی علیه السـلام کغیره من الأنبیاء جاء بشیراً ونذیراً نبیاً وهو بشر، لکن المسیحیین انقسموا فریقین من بعده: فریقاً کفروا وعادوا إلی وثنیتهم. والفریق الآـخر جعـل من شخصـیة عیسی علیه السلام مرتکزاً للـدین وأخـذ الـدین اسـمه من عیسـی المسیح، وأخـذت کل المعتقدات المسـیحیة تتمحور حول عیسـی؛ المسـیح. الأعیاد المسـیحیة الرئیسـیة تتعلق بأحداث فی حیاة عیسـی المسـیح. ورمز العقیدة المسـیحیة، وهو الصـلیب، یشـیر إلی عیسـی المسـیح. وصـلوات المسـیحیین موجهة إلی عیسی لأنهم یعتبرون أن اللّه نفسه لا یمکن أن یخـاطبه إنسان عادی. وحسب ما یقوله المؤلف المسـیحی فرتز رایـدنور: «إن مفتاح العقیـدة المسـیحیة هو أن عیسـی المسیح کان فی الواقع السبب فی وجودها کلّها، وأنه هو الذی یحافظ علی تماسکها بأجمعه» (۲).

فهـذه الملّـة من البشـر جعلوا من أمـاکن ذکریـات نبیهم، وما تجلی لهم من شـخصه وشخصـیة أمّه عبر تاریخه إلی یومنا هـذا، جعلوها أماکن حج دینیة فی أعیادهم السنویة... نذکر من هذه الأماکن المقدسة ما یلی:

۱- اتجه بعض المسـیحیین إلی بیت المقدس فی فلسـطین حیث الصـلیب الأصیل للسید المسیح عیسی بن مریم علیه السلام اقتداءً بسنة الملکة هیلانة.

۲- واتجه قسمٌ آخر إلی کنیسة رومة فی ایطالیا (Rome (rom.

۱- ۱ المائدة: ۶۸.

۲- ۲ کیف تکون مسیحیاً فی عالم غیر مسیحی: ۱۷۶، نقلًا عن نظرة عن قرب فی المسیحیة، بربارة براون: ۱۴.

ص: ۱۲۰

۳- ومنهم من حجَّ إلى لورد فى فرنسا للمكان الذى ظهرت فيه السيدة العذراء لهم.

۴- وتوجه جمع منهم إلى كنيسة (فاطيما) (Fatima) لتجلى السيدة النورانية صاحبة المسبحة فاطيما.

۵- وآخرون توجهوا إلى أماكن متفرقة كقبور الأسلاف من موتاهم، أو إلى الجبال وغيرها من الطبيعة.

وسنحاول قراءة كلّ واحدة من هذه النقاط قدر استطاعتنا، وإلقاء الضوء على الموقع الجغرافى ونبذة عن تاريخها إن شاء اللَّه تعالى

الحج إلى بيت المقدس

التوجه فى الحج إلى بيت المقدس، لم يرد فيه نص لا فى التوراة ولا فى الإنجيل، بل سُنة اتبعت نتيجة اسباب معينة، فعند النصارى كان السبب الرئيسى هو اتباع سُنة الملكة، (هيلانه (Helene) (ste) أمّ الامبراطور قسطنطين، التى اكتشفت العود الأصلى، الذى صُلبَ عليه عيسى المسيح، فجُعلَ ذلك اليوم مباركاً وعيداً يحج فيه إلى بيت المقدس الذى يحتضن العود المقدس...

«وهيلانة التى اهتدت إلى الدين المسيحى، وقامت عام (۳۲۶ م) بجولة تفقدية فى الشرق، زارت خلالها الأماكن المقدسة فى فلسطين، وقامت ببناء كنائس فى أورشليم وبيت لحم. يُروى أنّها عثرت على عود الصليب الحقيقى» (۱).

ويُروى أنّها «كرست اهتمامها لكشف مواضع الحوادث المهمة للمسيحيين، ولبناء كنائس تذكاراً لها» (۲).

۱- ۱ معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبّودى: ۸۹۶، طرابلس- لبنان.

۲- ۲ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ۳۹۰، العربى للإعلان والنشر.

ص: ۱۲۱

فالمسيحيون يكرّمون «كنيسة القبر المقدس، التى تقوم على المكان التقليدى لجبل (الجلجثة)، الذى يعتقد المسيحيون أن المسيح صلب عليه. يحيط بالمدينة القديمة سور شيده السلطان سليمان القانونى عام (۱۵۴۱)، وفى شرق المدينة القديمة يقع وادى قدرون وبه بستان جشمانى» (۱) و «حينما منع الأتراك السلاجقة، المسيحيين من زيارة بيت المقدس، وهدّموا كنيسة القبر المقدس (الآن كنيسة القيامة) قامت الحروب الصليبية، فسقطت فى أيدى الصليبيين عام (۱۰۹۹)...» (۲).

والزيارة أو الحج إلى كنيسة القيامة (كنيسة القبر المقدس)، عادةً تكون فى عيد الفصح السنوى وهو: «العيد الرئيسى عند المسيحيين، وهو ذكرى قيامة المسيح بين الأموات فى العقيدة المسيحية، ويقع بين (۲۲) مارس و (۲۵) أبريل، ويرتبط به عدد كبير من الأعياد الأخرى ويُسبق بالصيام الكبير الذى يدوم أربعين يوماً، ويجمعه «آلام المسيح»...» (۳).

وعيد الفصح: عيد دينى تُمارس فيه أوامر ونواهٍ خاصة كالصوم والصلاة والدعاء والنذور والأضاحى وغيرها، ويختلف بكثير عن عيد الميلاد المسيحى المشهور، الذى تحوّل إلى عيد قومى يُلزم به المتدين وغير المتدين من المسيحيين، وهو ذكرى مولد السيد المسيح، يلى صيام أربعين يوماً (هذا بالنسبة للملتزمين، أما غير الملتزمين فلا يعنيهم هذا الصيام)، وهو يوم ۲۵ ديسمبر بالتقويم الغربى، ويوم ۲۹ كهيك بالتقويم القبطى، احتُفِل به قبل (۲۰۰)، ثم انتشر وأصبح شائعاً وشعبياً فى القرون الوسطى، التصقت به عادات وتقاليد قومية، مثل غناء الترانيم،

۱- ۱ الموسوعة العربية الميسرة.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ الموسوعة العربية الميسرة: ۱۲۴۷.

ص: ۱۲۲

وتبادل الهدايا وإرسال التهانى، وغير ذلك، أما إقامة (شجرة عيد الميلاد) فهى عادة ألمانية الأصل (۱).

وهنا لا يهمنا هذا العيد، ولكن الشيء بالشيء يذكر. لأنهم يستحب لهم فى عيد الميلاد زيارة (كنيسة القيامة المقدسة) إن استطاعوا، وإلّا فأى كنيسة أخرى

أما الحج إلى (كنيسة القيامة) فى بيت المقدس الشريف المُسن من قبل الملكة هيلانه، فهو ذكرى العثور على عود الصليب الأصلى كما ذكرنا سابقاً، يحيون ذكراه، حتى أصبحت عادة وسُنة جيلًا بعد جيل، وكأنهم يحجون إليه لفريضة أو أمر إلهى شرعه له عيسى المسيح عليه السلام فتركز فى نفوسهم، أما حقيقة هذا الحج فهو التراث الذى خلّفته (هيلانه)، فهو تراث وحج مزيف وليس حجاً إلهياً حقيقياً.

رومة فى ايطاليا

تعدُّ روما من المدن المهمة والمقدسة للمسيحيين، وهى مركز ثقافى وفنى ودينى منذ عهد طويل ويطلق عليها: (المدينة الخالدة) وكذلك (المدينة المقدسة) وهى وسط ايطاليا قرب الساحل الغربى على ضفتى نهر «التيبر»، عاصمة ايطاليا، وفيها الفاتيكان مقر البابوية، وكان للإصلاح الكاثوليكى بعد عام (۱۵۲۷) م أثر فى استفادة البلاط البابوى- بعد أن خرب جنود شارل روما عام ۱۵۲۷ م- وكذلك استعاد مكانته وسلطته الروحية. استمرت روما فى الازدهار والإفادة من وفود جموع الحجاج عليها (۲).

وروما من كُبرى مُدن ايطاليا، ويرقى تاريخها إلى القرن الثامن قبل الميلاد.

۱- ۱ انظر المصدر السابق.

۲- ۲ انظر الموسوعة العربية الميسرة: ۸۹۸- ۹۰۰.

ص: ۱۲۳

كانت فيما ما مضى عاصمة الجمهورية الرومانية، ثم عاصمة الامبراطورية الرومانية، ثم عاصمة المقاطعات البابوية... وهى اليوم عاصمة الجمهورية الإيطالية، والعاصمة الإدارية والروحية للكنيسة الرومانية الكاثوليكية بوصفها مقرَّ الكرسى الرسولى (فى الفاتكان) (۱).

جاء فى تاريخ الحضارات العام: «فإننا نشاهد عناصر عديدة من المسيحيين تقوم فى العاصمة روما، ملتقى جميع الملل والطوائف، ومحجّة الشعوب على اختلافها» (۲).

كنيسة رومة فى ايطاليا

۱- ۱ انظر موسوعة المورد، منير البعلبكى ۸: ۱۶۳.

۲- ۲ تاريخ الحضارات العام، اشراف موريس كروزيه ۲: ۴۲۶.

ص: ۱۲۴

وروما المدينة الجميلة ذات الطبيعة الخلابة والآثار الجذابة ومقر الكنيسة الكاثوليكية ومقر الكرسى الرسولى، التى تستهوى القلوب المسيحية التى تعلقت بشخص عيسى المسيح عليه السلام، اعتُبرت كنيستها والآثار المحيطة بها، محجّة سنوية ومركزاً تجارياً وترفيهياً. والحج لهذه المدينة الأثرية- فى اعتقادنا- ما هو إلّانزهة سنوية ترفيهية اكثر مما هى معنوية الهية أو روحية.

إنّ هذا النوع من النزهة السنوية ممكن فى كل مكان وزمان، ولم يتوفر على أىّ من شروط الحج، ونحن نعتقد وتبعاً لما نعرف من الأوضاع الاجتماعية المتردية فى الغرب، لابد وأن يصاحب هذه السفرة السياحية قضايا وامور انحرافية لا أخلاقية مما لا يرضى اللَّه بها ولا السيد المسيح نفسه، فكيف يطلقون على هذه النزهة «حجاً»؟!

والظاهر أن زيارة المسيحيين لرومة تكون عادةً فى عيد القيامة، ويصاحبها استعمال البخور والماء المقدس فى التطهير، وإيقاد الشموع وتقديم النذور وبعض الأضاحى (۱).

كنيسة لورد فى فرنسا

ابتدع هذا الحج عام (۱۸۵۸ م) أى بعد ميلاد السيد المسيح عليه السلام بأكثر من ثمانية عشر قرناً، ويرجع سببه إلى ادّعاء إحدى راهبات الكنيسة فى فرنسا أنها شاهدت مريم العذراء، تجلت لها بجوار المغارة التى كانت بالقرب منها.

ولورد: بلدة فى الجزء الجنوبى الغربى من فرنسا. كانت فى القرون الوسطى ذات موقع استراتيجى هام. أصبحت منذ العام (۱۸۵۸ م) محجّاً يقصده المرضى

۱- ۱ انظر قصة الحضارة ۱۱: ۳۱۴- ۳۲۰.

ص: ۱۲۵

من الکاثولیک التماساً للشفاء بعد الذی أُذیع من أن العذراء تجلّت غیر مرهٔ، فی مغارهٔ هناک لفتاهٔ ریفیهٔ اسمها برنادت(۱) (Bernadette).

کنیسهٔ لورد فی فرنسا

وتدّعی الکتب المسیحیهٔ أن برنادت سوبیروس... المولودهٔ عام (۱۸۴۴ م) فی لورد (فرنسا) ظهرت لها السیدهٔ العذراء عام (۱۸۵۶ م) أو (۱۸۵۸ م)، أی کانت بالغهٔ من العمر (۱۲- ۱۴) عاماً، ودعتها إلی تأسیس معبد (لورد) الحالی، وکانت وفاتها عن عمر یناهز (۳۵) عاماً أی عام (۱۸۷۹ م) (۲).

۱- ۱ موسوعهٔ المورد ۶: ۱۴۸.

۲- ۲ المنجد، لویس معلوف: ۱۲۷، دار الشرق- بیروت.

ص: ۱۲۶

ومدینهٔ لورد الواقعهٔ بمقاطعهٔ البرانس العلیا جنوب غرب فرنسا یؤمها حوالی ملیون زائر سنویاً، التماساً للعلاج عن طریق المعجزات (۱).

ولا ـ شک أن (مُودهٔ) ظهور السیدهٔ العذراء وتجلیها للنصاری أصبحت معروفهٔ: وهی إما خیالات لمغالین أو لأغراض سیاسیهٔ أو اجتماعیهٔ أو تبشیریهٔ أو لُامور أخری عِلماً أنّ هذه المغارهٔ أصبحت لهم (باب المراد) یطلبون حوائجهم منها وینذرون لها ما استطاعوا إلیه سبیلًا أو أکثر، یحیون اللیل بالبکاء والتضرع آملین من العذراء غفران الذنوب وستر العیوب والشفاء من الأمراض.

وعجباً لسذاجهٔ بعض المسیحیین، أن یطلقوا علی هذه الأماکن، أماکن حج یُعبد فیها الرب الإله والرب الیسوع عیسی وامّه، تذکرها کتبهم بکلِّ جرأهٔ ووقاحهٔ... تجرهم طفلهٔ أحبت العذراء مریم علیها السلام وتعلقت بها وتخیلتها مرّات، هذا تعلیقنا علی هذه القضیهٔ إن صحت الأخبار فی نقلها...

کنیسهٔ (فاطیما) فی البرتغال

وقصهٔ فاطیما تتمحور فی قضیهٔ مقدسهٔ حدثت فی أوربا، اهتم بها العالم المسیحی؛ لأنها من شؤونه الدینیهٔ الخاصهٔ، وقد ارتبطت هذه القصهٔ باسم یمت إلی العالم الإسلامی بصلهٔ.

وفاطیما: قریهٔ فی شبه جزیرهٔ (فیبری) غرب اسپانیا فی مدینهٔ لیشبونهٔ فی البرتغال، فتحها عبد الرحمن عام (۷۱۰ م) وبقیت تحت رایهٔ الإسلام حتی القرن الحادی عشر المیلادی، استولت علیها أوربا وانجلی الإسلام عنها، وأصبح أغلب سکانها من المسیحیین.

وفی عام (۱۹۱۷ م) أصبحت فجأهًٔ محجهٔ للمسیحیین ومقصداً للزوّار، والمتابع

۱- ۱ انظر الموسوعهٔ العربیهٔ المیسرهٔ: ۱۵۷۴.

ص: ۱۲۷

لأخبارها يعجب للدين المزيج من التعاليم المسيحية والتعاليم الإسلامية، خصوصاً عند أهل القرية التى تحتضن كنيسة فاطيما...

وبـدأت القضـية هكـذا: ثلاثـة اطفال قرويين يفتحون عيونهم على حقيقـة تجلت لهم فى ضواحى القرية، لتصـبح فيما بعد مَعيناً متدفقاً لاعتقاد عميق فى حياة أبناء هذا البلد. الأطفال هم: جاسـنيتا- سـبع سنوات- وفرانسيسكو- تسع سنوات- ولوسيا- عشر سنوات- الشاهد الأصـلى لهـذه الحادثـة هى لوسـيا. وتروى ألسـنة الأطفـال الثلاثـة الحادث على النحو الآتى: فى عام ۱۹۱۶، قبـل عام واحـد من رؤيتنا السيدة التى تشع بالنور، تراءت لنا «ملاكاً» ورددت هذه العبارة:

لا تخافوا... أنا «ملاک السـلام». وقالت أيضاً «إلهى! أنا أعتقـد بك وأؤمن بك وأحبك، وإنى أطلب الغفران لهؤلاء الـذين لا يؤمنون، ولا يعتقدون بك، ولا يحبونك».

بعد ذلك تراءت لهم ملاكاً مرتين فى الصيف والخريف، وفى كلّ مرّة كانت تقول لهم: «قدّموا الأضاحى، واستغفروا للمذنبين وادعوا لهدايتهم» وقد لعبت المواقف الثلاثة دوراً فى تهيئة الأطفال لرؤية السيدة صاحبة المسبحة، وفى الثالث عشر من آيار (مايس) ۱۹۱۷ م، رأى الأطفال هالـة النور مرتين، ثم أطلّ نور عظيم من أعلى شـجرة البلوط، سـيدة أشـد ضـياءً من نور الشـمس تسـمى «فاطيما» راحت تكلمهم:

- لا تخافوا، لا أريد أن اخيفكم.

- من أنت؟

- فاطمة بنت الرسول.

- من أين جئت؟

- جئتُ من الجنة.

- ماذا تريدين منّا؟

ص: ١٢٨

- جئت لأطلب منكم أن تواظبوا على المجيء إلى هنـا، وسأقول لكم فيما بعـد ماذا أريـد منكم. وأخـذت تظهر كلّ شـهر وفى لقائها السادس والأخير أظهرت معجزة كبرى أمام أنظار سبعين ألف شخص كانوا قد احتشدوا لرؤيتها... إذ شاهدت الحشود المنتظرة، توقف هطول المطر فجأة، واهتزت الشـمس واسـتقرت، ثم دارت مرّتين بنحو ظنَّ الناس بأنّها ستسـقط فى أى لحظة على رؤوسـهم. ثم عادت الشمس إلى موضعها. وأول صحيفة نشرت هذا الخبر (صحيفة ليسبون) فى الخامس عشر من تشرين الثانى من العام نفسه (١).

وهناك مصـدر آخر يقول: «ان فاطيما قرية وسط البُرتغال زُعم أنّ السـيدة العذراء ظهرت لثلاثة من أطفالها (اطفال القرية) فى ١٣ مايو عام ١٩١٧ م.

ومنذئذ أصبحت محجةً يقصد إليها المسيحيون من مختلف أرجاء الأرض...» (٢).

وتعتبر ليلـة الثالث عشـر من مايو- يوم الحادث- من كلّ عام ليلـة الـدعاء المهمة فى مزار فاطيما، إذ ينبغى وفقاً لوصـية السـيدة صاحبة المسبحة، قضاؤها بالـدعاء والتسبيح والاسـتغفار، وهو درس تعلّمهُ الناس هنا من السـيدة فاطيما؛ ليصـبح فيما بعد واحداً من معتقداتهم وتصوراتهم الدينيـة. والطريف أن هـذه الحشود البشـرية، التى تقطع مئات الكيلومترات كلّ عام من شـمال البلاد وجنوبها، قاصدة هذه المدينة المقدسة، لم يثنها عن مجيئها حرٌّ ولا برد، ولا ليل ولا نهار، بل وبعد انتهائها من الزيارة يتمتم كلّ واحد بهذه الكلمات:

«سـيدتنا فاطيما! السـيدة صاحبة المسـبحة! السيدة هالة النور! أنا مضطر الآن للابتعاد عنكِ، ولكن أطلب من اللَّه أن لا يجعل هذا اللقاء آخر لقائى بك، وأن

١- ١ «فاطيما» مهوى الأفئدة وملاذ المتضرعين، الطاهرة، العدد ٧٠: ١١- ١٢.

والفلم التحقيقى الذى عرضه تلفزيون الجمهورية الإسلامية باللغة الفارسية.

٢- ٢ موسوعة المورد، البعلبكى ۴: ١٠٨.

ص: ۱۲۹

يكون هذا الالتماس وهذا الشوق حيّاً في وجودى دائماً يا فاطمة! فى أمان اللّه يا سيدتنا الطاهرة» (۱).

كنيسة فاطميا فى البرتغال

وتعليقنا على هذه الواقعة التى جاءتنا من بعيد، من البرتغال أو بالأحرى من قرية نائية من البرتغال، من بيئة مسيحية، واقعة شاهد آثارها عدد كبير، وزارها الباب نفسه (۲)... وفى نفس الوقت تتعلق القضية بشأن إسلامى مهم هو ظهور السيدة فاطمة بنت الرسول صلى الله عليه و آله ذات المسبحة (۳).

۱- ۱ «فاطيما» مهوى الافئدة وملاذ المتضرعين: ۱۳.

۲- ۲ فى عام ۱۹۶۷ م. فى الذكرى الخمسين لإقامة المزار، زارها البابا بولس السادس تجليلًا للبقعةالمقدسة وتكريماً لها. كما زارها الباب بولس الثانى عام ۱۹۸۲ م.

۳- ۳ الطريف أن حجاج تلك الكنيسة يحملون بأيديهم مسبحة ويسبحون كتسبيح الشيعة الإمامية أى: يذكرون اللّه ۳۴ مرة اللّه اكبر، ويحمدون اللّه ۳۳ مرة الحمد للّه، ويسبحون اللّه ۳۳ مرة سبحان اللّه، كلٌ بلغته الخاصة.

ص: ۱۳۰

ص: ۱۳۱

ونحن نحترم السيدة مريم العذراء عليها السلام، وفي الوقت نفسه نقدس السيدة فاطمة الزهراء سيدة نساء العالمين، فهل يا ترى أنّ الذي ورد صحيح مئة بالمئة؟ ذلك ما لا أستطيع أن أنفيه على الأقل...

ولكن أتساءل... لَمْ نقرأ أن مجموعة من المسيحيين ومنهم صاحبة القضية الأصلية الراهبة (لوسيا) أنهم أسلموا مع أن القضية تستحق الإسلام، هذا اذا كان التجلي لشخص فاطمة الزهراء عليها السلام، وإذا كان التجلي لشخص مريم العذراء عليها السلام فلَم نقرأ أن لمريم عليها السلام اسماً يشابه اسم فاطمة؛ لكي تُسمى المنطقة باسمها.

ثم إنّ اهتزاز الشمس ودورانها مرتين ورجوعها إلى حالها منذ زمن قريب جدّاً (سنة ۱۹۱۷ م)... ليس أمراً عادياً، إنه أمر كوني تنقلب له الدنيا وتهتز له عقول العلماء الفلكيين، ولكن لم نسمع ولم نقرأ عن هذا الحدث الكوني شيئاً، في حين أن تسجيلات خسوفات وكسوفات عادية جاءت من آلاف السنين.

إنّ القضية أو القصة يجب أن تُقرأ بشكل مفصل نظرياً وميدانياً، واللّه أعلم ما وراء ذلك...

وقد سمعنا من أحد الناقلين القادمين من البرتغال أن التي تجلت لهم (۱) كانت (فاطمة) بنت أحد الخلفاء المسلمين وليست بنت الرسول صلى الله عليه و آله، فإن كانت هذه أو تلك فالقضية تحتاج إلى دارسة أكثر كما ذكرنا أعلاه...

حجهم إلى مقدسات أخرى

إضافة إلى ما ذكرنا من مقدسات النصارى هناك أماكن أخرى قدسها البعض منهم؛ كقبور الموتى وبعض الأشجار التي رُمز لها (بشجرة عيد الميلاد) وبعض الجبال وغيرها، ونذكر هنا تقديسهم وحجهم للقبور القديمة:

۱- ۱ أي تجلت للأطفال الثلاثة.

ص: ۱۳۲

كانت طريقـة الدفن المسـيحية آخر ما تُكرَّم به حياة المسـيحى، ذلك أن من عقائد دينهم عودة الحياة إلى الجسم والروح، ولهذا كان يُعنى بالميت أشـد عنايـة، فيقوم قسـيس بالخدمـة الدينية للميت وقت دفنه... فكان العمال يحفرون طرقات طويلة تحت الأرض مختلفة البُعـد عن سـطحها، توضع فيها أجسام الموتى فى دياميس بعضـها فوق بعض ممتـدة على جانبى هـذه الطرقات، وسار الوثنيون واليهود على هذه السـنة نفسـها، ولعلهم فعلوا هذا ليسهلوا مشقة الدفن ونفقاته على الجمعيات التى كانت تقوم بهذه المهمة. ويبدو لنا أن بعض هـذه الطرقـات قـد جعلت ملتويـة عمـداً، وقـد يبعث على الظن بأنهـا كانت تسـتخدم كمخابئ فى أوقات الاضـطهاد، فلما أن علا شأن المسيحية وانتصرت على أعدائها زالت عادة دفن الموتى فى السراديب، وأضحت الدياميس أماكن معظمة «يحجُّ» اليها الناس (۱).

والظاهر أنّ هذه الدياميس بقيت محجة لمئات السـنين حتى حلَّ القرن التاسع الميلادى، سدّت السـراديب ونسـيها الناس، ولم تُكشـف إلّابطريق المصادفة عام (۱۵۷۸) ميلادية (۲).

وكـذلك عادة تقـديس بعض الجبال وبعض الأشـجار، فقـد انقرضت بظهور عادة الحـج إلى رومة وفاطيما ولورد والقدس وغيرها من المقدسات الحديثة...

تلخيص واستنتاج

والحـج المسـيحى هو الآـخر ليس حجاً إلهياً صـحيحاً، وذلك بسـبب من أصل العقيـدة التى اختاروها أو صـنعوها ومزجوا بها بين اللّٰه والانسان، فديانتهم التى اختارتها عقولهم رأت أن المسيح عليه السلام هو الإله (الابن) المكمل للإله الحقيقى،

۱- ۱ انظر قصة الحضارة ۶، ۱۱: ۲۸۵- ۲۸۶.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۳۳

فالمسیحیة هی دیانة ذات إلهین ولیس إلهاً واحداً، وأن دیناً له أکثر من إله واحد لیس دیناً توحیدیاً...

وکما ذکرنا فی المقدمة ما قالته (بربارة براون) الکاتبة الأمریکیة التی أسلمت عن قناعة راسخة بعد أن رأت أن المعتقدات المسیحیة کلّها تدور حول الإله الابن (عیسی علیه السلام) وقالت: «إنّ المسیحیة هی دیانة ذات إلهین ولیس إلهاً واحداً» (۱)، والأعیاد والصلاة و... و... کلّها موجهة إلی عیسی المسیح...

وکذلک الحج عندهم لیس عبادة خالصة موجهة إلی الواحد الأحد- کما عند المسلمین- بل هی مرتبطة إما بشخص عیسی علیه السلام أو مکان ذکریاته کمسقط رأسه أو العود الذی صُلب علیه، أو المکان المرتبط بالسیدة العذراء مریم علیها السلام إذا تجلت لهم فی خیال أو تصور أو منام أحدهم أو للمغالین منهم...

ومن هنا تبین الانحراف والابتعاد عن الحج الحقیقی، الذی وضع اللَّه الواحد الأحد هدفه الأسمی والأول والآخر، وغیر ذلک لا یمکن أن نعتبره حجاً بأی حال من الأحوال مهما کان صاحبه مخلصاً، ومهما عمل من الأعمال والمناسک الدینیة...

فالحج عند النصاری إذن لیس مرتبطاً بالإله الحقیقی بالمرة، وإنما مرتبط بالإنسان الذی خلقه اللَّه تعالی للبشر؛ لیُبشر ویُنذر ولیبین الحق من الباطل...

والنبی عیسی علیه السلام ما هو إلّابشرٌ مثلنا یُشارکنا ونشارکه بالإنسانیة، اصطفاه اللَّه تعالی لیکون رسولًا نبیاً. وأمه أیضاً لا یمکن أن تُعبد أو أن تکون فی مقام أُم الإله الیسوع- کما یدّعون-، فهی امرأة انسانة، لکنها وصلت مرحلة الأولیاء الصالحین نتیجة علاقتها باللَّه وعبودیتها الحقّة له، ممّا جعلها سیدة نساء زمانها، وأمّ نبی اللَّه.

و أمّا النصاری فقد أشرکوا باللَّه تعالی حین جعلوا لعیسی علیه السلام وامّه علیها السلام مقام الإلوهیة ...

۱- ۱ نظرة عن قرب فی المسیحیة: ۱۳.

ص: ۱۳۴

صفحه سفید

ص: ۱۳۵

ص: ۱۳۶

ص: ۱۳۷

الفصل السادس: القدس فی تاریخ الأنبیاء

القدس، هل کانت مرکزاً لحج الأنبیاء؟

بیت المقدس أو القدس، مدینة تاریخیة قدیمة عرفت فی التاریخ مدینة مقدسة، اهتمت بها الأدیان الرئیسیة الثلاثة: الدیانة الیهودیة والدیانة المسیحیة والدین الإسلامی الحنیف...

ولفرط قداستها اعتبرها الیهود رمزاً لبیت اللّه تعالی واعتبرها النصاری رمزاً لروح القدس، واعتبرها المسلمون أولی القبلتین ومحل إسراء الرسول صلی الله علیه و آله...

وقد حفلت هذه المدینة بالأماکن المقدسة کقبة الصخرة والمسجد الأقصی وهیکل سلیمان وحائط المبُکی و... و... الخ مما تقدسه الأدیان الثلاثة.

ومن هنا جاء اهتمام التاریخ والأدیان بها والصراع علیها، وکلٌ یستطیع أن یؤدی شعائره وطقوسه فیها...

وقد عاش فیها عدد من الأنبیاء والمرسلین، فهی فی حقیقتها مدینة الأنبیاء والأولیاء، ولیس هناک مدینة فی تاریخ العالم تمتعت بقدسیة مستدیمة منذ أن أسسها

ص: ۱۳۸

(الیبوسیون الکنعانیون) (۱) قبل نحو خمسة آلاف عام حتی یومنا هذا، مثل مدینة أورشلیم، (بیت المقدس الحالیة): فهی الأرض المبارکة «دار السلام» کما سمّاها الأقدمون، وقد حمل ملوکها القدماء لواء عقیدة التوحید للإله العلی لأول مرة فی التاریخ البشری، علی ما یری کثیر من المؤرخین (۲).

وقد خصّها اللَّه تعالی بالعدید من الأنبیاء حتی قیل: إنّ بناءها تم علی أیدیهم وسکنوها وعمروها «ومافیها موضع شبرإلّا وقد صلّی فیه نبی أو قام فیه ملک» (۳)، کما خصّها اللَّه تعالی بإسراء خاتم الأنبیاء، ثم إنها قبلة الیهود والنصاری وصلّی إلیها المسلمون مع رسول اللَّه محمد صلی الله علیه و آله فی بدایة الدعوة الإسلامیة فترة قصیرة حتی منَّ اللَّه تعالی علی رسوله المصطفی بقبلةٍ یرضاها:... فلنولینک قِبلةً ترضاها فولِّ وجهک شطر المسجد الحرام وحیثُ ما کنتم فولّوا وجوهکم شطره وإنّ الذین اوتوا الکتاب لیعلمون أنه الحقّ من ربّهم وما اللَّه بغافلٍ عما یعملون (۴)

.وبالرغم من هذه القدسیة لبیت المقدس لکننا لم نجد فی القرآن الکریم ما یشیر الی أن اللَّه تعالی ینسبه إلی نفسه فی الکیفیة، التی نتلمسها فی الکعبة والتی تختص بها دون غیرها، کما فی قوله تعالی بیتی وبیتک (۵). کما ورد فی قوله ابراهیم علیه السلام مناجیاً ربّه عند بیتک المحرم (۶)

. ولو رجعنا إلی التوراة التی دونها الیهود

۱– ۱ الیبوسیون: أقدم سکان أورشلیم یرجع الخبراء تاریخ وجودهم فی المدینة إلی ما قبل خمسةآلاف سنة حین نزحوا من جزیرة العرب. وکونوا فی موطنه الجدید حضارة ذات حکومة وصناعة وتجارة ودیانة، المصدر: العرب والیهود فی التاریخ: ۳۹۱.

۲– ۲ العرب والیهود فی التاریخ، د. أحمد سوسة: ۳۸۶.

۳– ۳ معجم البلدان، یاقوت الحموی ۱: ۱۱۲.

۴– ۴ البقرة: ۱۴۴.

۵– ۵ البقرة: ۱۲۵. الحج: ۲۶.

۶– ۶ ابراهیم: ۳۷.

ص: ۱۳۹

أنفسهم فى الأسر، بعد السبى البابلى وبعد مضى ثمانمئة عام من نزول الوصايا العشر على موسى عليه السلام وتعاليم الشريعة الموسوية، ثم حشر تاريخ بنى اسرائيل فيها والتشويه والتحوير الذى جاء لخدمة مقاصد خاصة وأهداف معينة، حيث اتخذت من شخصية النبى موسى عليه السلام قوة دينية تتشبث بها ضد أعدائها، كما اتخذت من إرجاع أصلها إلى إبراهيم الخليل عليه السلام وحفيده «يعقوب عليه السلام» النسب الأصيل الذى يجعلها أهلًا لتكون «شعب اللّه المختار»، ومن بيت المقدس عقيدة (الوطن الموعود) الذى يفيض عليها قدسية وروحانية، وعزت كلّ ذلك إلى الإله «يهوه» والى ابراهيم الخليل ويعقوب وكلهم بريئون منها، ولو رجعنا إلى الانجيل فحاله حال التوراة، ومع كلّ ما شوهت وكتبت ودست لكننا لا نلمس أثراً ولا نصاً يقول: إنّ اللّه تعالى نسبه إلى نفسه أو أمر الناس أن يحجوا إليه بينما وجدنا ابراهيم الخليل عليه السلام عندما أقام البيت الحرام (الكعبة) جاءه الخطاب الإلهى وأذّن فى الناس بالحج... الخ وجاء تأكيد القرآن الكريم أولوية الكعبة فقال إن أول بيت وضع للناس للذى ببكة.

هجرة النبى ابراهيم عليه السلام إلى القدس

اشارة

لقد توصل علماء الآثار فى أحدث بحوثهم إلى أن ابراهيم الخليل عليه السلام ظهر فى القرن التاسع عشر قبل الميلاد أى قبل حوالى أربعة آلاف عام فى بلاد الرافدين، وعاش فى زمن نمرود، الملك الذى دفعته أحلامه المزعجة إلى مراقبة الحوامل وقتل الذكور من المواليد.

وزار عُملاؤه والدة ابراهيم عليه السلام ليكشفوا ما فى بطنها قبل أن يأتيها المخاض، وجسّوا جانبها الأيمن، فاختفى الجنين فى الجانب الأيسر، وجسّوا الأيسر، فاختفى

ص: ۱۴۰

فی الجانب الأیمن، فانصرفوا دون أن یظفروا بما ستلد، الأمر الذی اضطر أمَّ ابراهیم أن تلجأ إلی کهفٍ بالقرب من «کوثا» (۱)، وهناک رأی ابراهیم الخلیل نور الحیاة للمرة الأولی (۲).

ولما بلغ ابراهیم رشده، کما ورد فی القرآن الکریم، من محاورته لأبیه وقومه من عبدة الأوثان، قال تعالی ولقد آتینا ابراهیم رُشدَه من قبلُ وکُنّا به عالمین* إذ قال لأبیه وقومه ما هذه التماثیل التی أنتم لها عاکفون* قالوا وجدنا آباءنا لها عابدین* قال لقد کنتم أنتم وآباؤکم فی ظلالٍ مبین* قالوا أجئتنا بالحقِّ أم أنت من اللاعبین* قال بل ربّکم ربّ السماوات والأرض الذی فطرهُنَّ وأنا علی ذلکم من الشاهدین (۳)

.ثم صمم ابراهیم علیه السلام علی تحطیم أصنامهم وأقسم باللَّه علی ذلک وتاللَّه لأکیدن أصنامکم بعد أن تُوَلّوا مدبرین* فجعلهم جُذاذاً إلّاکبیراً لهم لعلهم یرجعون* قالوا من فعل هذا بآلهتنا إنه لمن الظالمین* قالوا سمعنا فتًی یذکُرهم یُقال له ابراهیم (۴)

.وکانت هذه القضیة سبباً لمحاکمته العلنیة أمام الأشهاد، وانتصر ابراهیم علیهم من خلال محاججته المنطقیة والموضوعیة: قالوا فأتوا به علی أعین الناس لعلهم یشهدون* قالوا أأنت فعلت هذا بآلهتنا یا ابراهیم* قال بل فعله کبیرهم هذا فسألوهم إن کانوا ینطقون* فرجعوا إلی أنفسهم فقالوا انکم أنتم الظالمون*

۱- ۱ کوثا: مدینة فی العراق بالقرب من مدینة بابل الحالیة، وکانت مرکزاً مهماً للسامیین.

۲- ۲ نقله الطبری، الثعلبی، الکسائی، ابن میمون، الزمخشری، البیضاوی، ابن الأثیر مع اختلاف بسیط فی التعابیر والألفاظ.

۳- ۳ الأنبیاء: ۵۱- ۵۶.

۴- ۴ الأنبیاء: ۵۷- ۶۰.

ص: ۱۴۱

ثم نُكّسوا على رؤوسهم لقد علمتَ ما هؤلاء ينطقون (۱)

.وبهـذا فشـل القوم مع ابراهيم عليه السـلام، وزادتهم العِزةُ بالإـثم عنـاداً وعـداءً لإبراهيم عليه السـلام، وأصـروا على التخلص منه: قالوا حرِّقوه وانصـروا آلهتكم إن كنتم فـاعلين* قُلنا يا نار كونى برداً وسـلاماً على ابراهيم* وأرادوا به كيـداً فجعلناهم الأخسـرين* ونجيناه ولوطاً إلى الأرض التى باركنا فيها للعالمين (۲)

.من هنـا اتخـذ ابراهيم عليه السـلام خليـل الرحمن، رأيـاً محـدداً فى تقرير مصـيره، فحين نجّـاه اللّه تعـالى من النار التى أضـرمها القوم للقضـاء عليه، صـمم الرحيـل والهجرة عن الوطن إلى الأـرض المباركـة (المقدسـة) التى باركهـا اللّه تعـالى للعالمين كما ذكرتها الآية الكريمة.

أجل إنها كانت مُقدسة، وكان فيها العابد الكاهن الموحّد للّه‌تعالى المؤسـس لبيت المقدس (ملكى صادق) الذى بارك لإبراهيم عليه السـلام كمـا ذكر المؤرخون والبـاحثون، وذكروا أيضاً أنّ (ملكى صادق) من سـلالة كنعان، وكان محافظاً على سُـنة اللّه القديمـة بين شعب وثنى، وقـد عُرف بالتقوى والزهد، وقيل: إنه كان يسـكن هو وقومه فى الكهوف، وكان أول من اختط (أورشـليم) القدس وبناها وكان محباً للسـلام حتى أطلق عليه «ملك السـلام» ومن هنا جاء اسم المدينـة «سالم» اى مدينة السـلام، ثم «شالم» و «شـليم» فهى اليوم «أورشليم» (۳).

هاجر ابراهيم خليل اللّه مع زوجه سارة ولوط وعدّة من أتباعه تحفهم رعاية

۱- ۱ الأنبياء: ۶۲- ۶۵.

۲- ۲ الأنبياء: ۶۸- ۷۱.

۳- ۳ انظر العرب واليهود فى التاريخ: ۳۸۵- ۳۸۷.

ص: ۱۴۲

اللَّه ورحمته إلی مدینة (حاران) (حرّان الحالیة) ومنها إلی أرض کنعان «شلیم» فلسطین الحالیة، لیستقر هو وأتباعه بالقرب من الرجل الصالح «ملکی صادق».

أمّ إبراهیم تخفی ولدها فی کهف بالقرب من «کوثا»

ص: ۱۴۳

وبعد فترهٔ، أصاب المدینهٔ قحط وغلاء، فانحدر ابراهیم علیه السلام وزوجه إلی مصر، ثم غادرها عائداً إلی «شلیم» وأقام فی حبرون مدینهٔ الخلیل الحالیهٔ، ثم رزقه اللّه ذکراً من الجاریهٔ المصریهٔ هاجر أسماه اسماعیل الذی فداه اللّه تعالی بالذبح العظیم کما ذکرنا سابقاً بعد بناء الکعبهٔ الشریفهٔ.

من خلال ما وصل إلینا من أخبار المؤرخین ومن بحوث المنقبین فی الآثار ومن القرآن الکریم وغیرها، لم یذکر أحدهم أنّ ابراهیم علیه السلام هاجر إلی القدس لیحج فیها، أو رجع من مصر لیؤدی مراسم الحج فی القدس، أو أنه اتخذها مکاناً للحج أو دعا للحج فیها، بل هی دار هجرته وغربته کما تذکر التوراهٔ: «تغرب ابراهیم فی أرض الفلسطینین» (۱). وکذلک «وسکن یعقوب فی أرض غربهٔ أبیه فی أرض کنعان» (۲).

وهذا ما قد عرفنا أنّ وطن ابراهیم الأول هو بلد وادی الرافدین أی فی العراق الحالیهٔ، بل إنه عراقی المولد کنعانی الأصل یرجع إلی الجزیرهٔ العربیهٔ التی انحدر منها آباؤه وأجداده إلی بابل. والجزیرهٔ العربیهٔ أصبحت بعد ذلک موطن ذریته من اسماعیل بعد أن أسکنه هو وأمه فیها...

القدس فی عهد یوسف علیه السلام

ورزق اللّه ابراهیم علیه السلام فی شیخوخته ولداً آخر سمّاه (إسحاق) أسکنه وأمّه العجوز سارهٔ فی مدینهٔ حبرون (الخلیل الحالیهٔ)، وآلَ أمر إسحاق علیه السلام أن یکون نبیاً ویرزق بیعقوب نبیاً، وشاء اللّه تعالی أن یرزق یعقوب أحدَ عشرَ ولداً ذکراً من زوجاته الأربع من بینهم کان یوسف الأثیر عند أبیه یعقوب یخصّه بقسط عظیم من

۱- ۱ العهد القدیم، التوراهٔ، سفر التکوین.

۲- ۲ المصدر نفسه.

ص: ۱۴۴

محبته ویمیزه علی اخوانه، وکان یوسف علیه السلام حسن السیرة، جمیل الصورة، کثیر الأحلام الصادقة، مما جعل یعقوب علیه السلام یهتم به ویؤثره علیهم فسبب ذلک حقد اخوته علیه، ثم کان سبباً فی محنته وغُربته عن الوالد حوالی ثلاثین عاماً لکنها- المحنة والغربة- کانت خیراً وبرکة علیه وعلی الأمم القریبة من مصر وعلی مصر نفسها وعلی اورشلیم موطن غربتهم...

وذُکرت قصة یوسف علیه السلام فی القرآن الکریم بشکل مفصل وجمیل کما ذکرتها التوراة مع فارقٍ بسیط، وفی هذا الحدیث لا یهمنا من قصة یوسف وأحداثها سوی أنه عندما خرج من بیت المقدس مباعاً إلی «فاطیفور» (۱) الجندی الفرعون، ثم دخل مصر، هل رجع إلی القدس حاجاً لها؟... هذا ما ستبینه المفاجأت فی حیاة یوسف علیه السلام!

تغرب یوسف علیه السلام عن الأهل والأحبة والاخوان عدداً من السنین، وبعد معاناة طویلة صار وزیراً علی مصر کلّها، فبعث وراء أبویه وعشیرته عن طریق اخوته الذین أرسلهم أبوهم (یعقوب علیه السلام) نتیجة القحط والفقر والجدب الذی أصاب مدینة «أورشلیم» وما حولها من البلدان الا مصر بشهامة یوسف علیه السلام وعقله الناضج، حیث ادّخر المواد الغذائیة فی المخازن المصریة الفرعونیة فی أیام الوفرة لأیام القحط (۲)...

واستقر آل یعقوب «بنو اسرائیل» (۳) فی مصر الفرعونیة، حتی وفاة یعقوب علیه السلام حیث جهزه یوسف علیه السلام مع وفد من أهل بیته ورجاله فی موکب عزٍّ

۱- ۱ نقلت المصادر التاریخیة وکذلک التوراة أن الذی اشتری یوسف علیه السلام من أخوته کان هذا الجندی، راجع التوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

۲- ۲ راجع القرآن الکریم؛ الآیات الشریفة من سورة یوسف، والتوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

۳- ۳ یعقوب: هو اسرائیل وتعنی بالعربیة عبداللّه وسمّیَ ابناؤه باسمه بنو اسرائیل.

ص: ۱۴۵

وجلال ودُفن فی منطقة «بئر الحی الرائی» (۱) بالقرب من قبر أبیه إسحاق وجده ابراهیم علیه السلام، فی مدینة الخلیل الحالیة.

وبقی بنو اسرائیل فی مصر وتوفی یوسف علیه السلام، ولم یذکر التاریخ لنا أو الآثار أو التوراة أو أی کتاب سماوی أن یوسف علیه السلام خلال مدة إقامته فی مصر أنه حجَبیت المقدس أو دعا القوم للحج إلیه، بل کلّ ما وصلنا أنّ بیت المقدس وما حولها فی عهد یوسف علیه السلام أصابها جدب وقحط وقلة فی الأمطار حتی ترکها الأغلبیة من سکانها طلباً للماء والغذاء.

یوسف علیه السلام یباع للفراعنة

۱- ۱ راجع، التوراة، العهد القدیم، سفر التکوین.

ص: ۱۴۶

إذن دخول بنی اسرائیل- بنی یعقوب- مصر وکان عام (۱۶۵۶) ق. م عن طریق یوسف علیه السلام فی عهد الملک (أبو فیس) ملک الهکسوس فی الأسرهٔ السادسهٔ عشرهٔ، وکان عددهم کما ورد فی التوراهٔ سبعین شخصاً بقیادهٔ یعقوب علیه السلام (۱)... واستقرت هذه الأسرهٔ حوالی (۴۰۰) عام حتی ظهر موسی علیه السلام بینهم...

هذا ما کان للقدس منذ زمن اسحاق علیه السلام حتی موسی علیه السلام فلم یحج أحدهم إلیها رغم قدسیتها ومقامها عند الجمیع، والقدسیهٔ شیء والأمر الإلهی شیءٌ آخر.

موسی الکلیم علیه السلام والقدس

وقصهٔ موسی علیه السلام، قصهٔ العظات والعبر والدروس، ذکرها القرآن الکریم بکامل تفاصیلها لأهمیتها، ولبیان حماقهٔ قومه الذین کانوا مستضعفین ومضطهدین، فأنجاهم موسی علیه السلام لیسیر بهم إلی الأرض المقدسهٔ، فیسکنهم فیها، لکنهم لجوا وکفروا فباءوا بغضبٍ من اللَّه إلی یوم یُبعثون.

وذکرت التوراهٔ قصته بما یشابه ما قصّه القرآن الکریم فی ذکر عنادهم ولجاجتهم، إلّاأن التوراهٔ حوّرت فی نهایهٔ مطاف بنی اسرائیل مع موسی علیه السلام وأخبار الأجداد والسلف منهم فی شرعیهٔ استحلال القدس ودخولها وقتل أهلها وسلبهم وحرق ما حلی لهم من ممتلکات سکان أهلها. فقد ذکروا أنّ ابراهیم الخلیل حین دخل مدینهٔ «ملکی صادق» بارکه الرب وقطع معه میثاقاً هذا نصّه:

«لنسلک أعطی هذه الأرض من نهر مصر إلی النهر الکبیر إلی نهر الفرات» (۲). وفی موضع آخر من التوراهٔ نجد النص التالی: «وأعطی لک ولنسلک من بعدک أرض

۱- ۱ فرعون موسی، د. سید کریم، الهلال، العدد ۵: ۷۵.

۲- ۲ العهد القدیم، سفر التکوین، الاصحاح، الفقرهٔ.

ص: ۱۴۷

غربتک. کلّ أرض کنعان لک ملکاً أبدیاً» (۱).

ولو رجعنـا إلی کلیم اللَّه موسـی علیه السـلام واسـتقرأنا تـاریخه منـذ الولاـدهٔ حتی الوفـاهٔ والرحیـل إلی الملکوت الأعلی لنفهم ما هی علاقته علیه السلام بالأرض المقدسهٔ وبیت المقدس، وهل کان یزورها ویحج إلیها... هذا ما ستملیه علینا النصوص الواردهٔ فیه.

وموسـی علیه السـلام: هو ابن عمران بن قاهان بن لاوی بن یعقوب بن اسـحاق بن إبراهیم علیه السـلام، وُلد فی مصـر، وتربی فی بیت «رمسیس الثانی» (۲) الملک الفرعونی وعدو بنی اسرائیل، الذی کان یتوقع أن تلد بنو اسرائیل ذکراً یقضی علی عرشه وسلطانه (۳).

کبر موسـی علیه السـلام فی البیت الفرعونی، وبلغ أشده، فأنعم اللَّه تعالی علیه بالعلم والحکمهٔ بالاضافهٔ إلی ما تعلمه من علوم فی بیت مربیه، ولما بَلَغَ أشده واستوی آتیناه حُکماً وعلماً وکذلک نجزی المحسنین (۴)

.لقـد أعدَّ اللَّه تعالی موسـی علیه السـلام لرسالته ودعوته بعد محنٍ کثیرهٔ وغُربهٔ وهجرهٔ وابتلاءات، اصـطفاه نبیاً ورسولًا، وأمره بالدعوهٔ إلی اللَّه، فسأل موسی علیه السلام من اللَّه أن یشرک أخاه هارون معه فی هذه المهمهٔ، واجابَ اللَّه سؤله، وأمره أن یذهب هو

۱- ۱ المصدر نفسه، الاصحاح، الفقرهٔ.

۲- ۲ وهذا هو فرعون موسی! نجیب فرج، اکتوبر، مجلّهٔ الهلال لعام ۱۹۷۶: ۲۶، وفرعون موسی، د. سید کریم، العدد ۵: ۷۳ وغیرها.

۳- ۳ کان الفرعون قـد أخبرته السـحرهٔ والکهنـهٔ أن ذکراً من بنی اسـرائیل یقضـی علی عرشه فجعل یقتل الـذکور من موالیدهم، لکن موسـی علیه السـلام نجی، بایحـاء اللَّه تعالی لأم موسـی فقال: «وإذ أوحینا إلی أمک ما یوحی* أن اقـذفیه فی التابوت فاقـذفیه فی الیم فلیلقه الیم بالساحل یأخذه عدوٌ لی وعدوٌ له» سورهٔ طه ۲۸- ۲۹.

۴- ۴ القصص: ۱۴.

ص: ۱۴۸

وأخوه إلى فرعون مؤيدين بالآيات والمعجزات، وأمرهما أن يقصداه بالذات لأنه طغى وفسد فى الأرض (۱)، وبعد جدال ومحاججات، أيقن فرعون أنه لم يقهر موسى وأخاه، بل هم قهروه وانتصروا عليه، فضاق فرعون ذرعاً بموسى فأتمر على قتله والخلاص من دعوته، ومن قوة بيانه التى قد تؤثر فى القوم.

فجاءَ الأمر الإلهى لموسى عليه السلام بالخروج من مصر مع بنى اسرائيل المعذبين فيها، فانطلق بهم سرّاً متوجهاً إلى الأرض المقدسة... خاطب موسى عليه السلام قومه فى صحراء سيناء، مذكراً إياهم نعم اللّه تعالى عليهم، وخروجهم من رقّ العبودية، وهدايتهم فى بعثه نبياً فيهم و... و... الخ.

رغم استمرار موسى عليه السلام فى إصلاحهم وهدايتهم، لكنهم عارضوا وعاندوا وقسوا، وغضب اللّه عليهم مراراً ثم تابوا ثم أنعم عليهم ثم عصوا ولجّوا ثم تابوا ثم عصوا وهكذا. وكان سلوكهم مع نبى اللّه موسى الكليم هكذا، حتى اشرفوا على حدود الأرض المقدسة، طلب موسى عليه السلام منهم الدخول فيها، بعد أن أرسل رواداً للاستطلاع على الأوضاع هناك، (وهذا دليل على أنّ موسى عليه السلام لم يدخلها قبل هذا الوقت ولم يعرف عنها شيئاً، وأنه سيدخلها لأول مرة فى حياته)، فلما رجع الرواد أخبروه أن قومها أقوياء طوال الهامات، وأن مدنها حصينة، فارتاع بنو اسرائيل ولم يمتثلوا لأمر موسى عليه السلام بمباشرة الغزو بل قالوا له: إنّ فى هذه الأرض جبابرة لا طاقة لنا بهم فلن ندخلها ما داموا فيها، فإذا خرجوا منها نلبى طلبك وندخلها، قال تعالى

وإذ قال موسى لقومه يا قوم اذكروا نعمة اللّه عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم ما لم يُؤتِ أحداً من العالمين* يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب اللّه لكم ولا ترتدوا على أدباركم فتنقلبوا خاسرين* قالوا

۱– ۱ القرآن الكريم، الآيات ۴۲– ۴۷ من سورة طه و ۱۸– ۲۲ من سورة الشعراء.

ص: ۱۴۹

يا موسى إنّ فيها قوماً جبّارين وإنّا لن نَدخُلها حتى يَخرجوا منها فإن يخرُجُوا منها فإنّا داخلون (۱)

.هكـذا كانت نهاية المطاف مع موسى عليه السلام، نهاية الجهد والتعب والسفر الطويل والعناء فى سبيل دخول الأرض المقدسة، أن يقول بنو اسرائيل لموسى عليه السلام: لن نـدخلها أبـداً مـا داموا فيهـا فاذهب أنت وربك فقاتلا إنّا ها هنا قاعـدون* قال ربّ إنّى لا أملك إلّانفسى وأخى (۲)

ثم دعـا عليهم فقـال: فـافرق بيننـا وبين القوم الفاسـقين* قـال فإنهـا محرّمـة عليهم أربعين سـنة يتيهون فى الأـرض فلا تأس على القوم الفاسقين (۳)

. فاستجاب اللّه تعالى دعاءه وأخبره بأنّ الأرض المقدسة لن يدخلوها وسيتيهوا فى صحراء سيناء أربعين سنة فلا يأخذه الحزن عليهم، إنهم خارجون عن طاعة اللّه تعالى ..

وبعدسنين‌التيه وقبل دخول الأرض‌المقدسة، أمر اللّه تعالى موسى عليه السلام أن يذهب إلى جبل «نبو» وأن ينظر إلى الأرض المقدسة ولا يدخلها، فصعد موسى عليه السلام، ونظر إليها من‌فوق‌الجبل، وتوفى فوق الجبل، ودُفن على الفسجة وهو الكثيب الأحمر (۴).

يقـول البيضـاوى نقلًا عن النجـار عن المدينـة المقدسـة الـتى نظر إليهـا موسـى من الجبـل، يقـول: «إنّ المدينـة هى بيت المقـدس أى «أورشـليم» أو «أريحـا». ولعـل القول بأنهـا «أورشـليم» الـذى دعا أهلها لأن يسـموا أحـد أبوابها «باب حطـة» والقرآن لـم يبين المدينـة، والتوراة لم يذكر المسألة أصلًا» (۵).

۱- ۱ المائدة: ۲۰- ۲۲.

۲- ۲ المائدة: ۲۴- ۲۵.

۳- ۳ المائدة: ۲۵- ۲۶.

۴- ۴ انظر: قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار: ۲۹۸.

۵- ۵ المصدر نفسه.

ص: ۱۵۰

ومما سبق لم يتبين لنا- خلال عرض حياة موسى عليه السلام- أنّ القدس «بيت المقدس» كانت «بيت حج» موسى عليه السلام أو أنه دعا قومه أن يدخلوها ليحجوا إليها ويطوفوا حولها، كلُّ ما فى الأمر أنهم كانوا قد استضعفوا عند الفراعنة حيث قال اللَّه تعالى عن تلك الفترة التى عاشوها فى مصر: وإذ نجّيناكم من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يُذبّحون أبناءَكم ويستحيون نساءَكم وفى ذلكم بلاءٌ من ربّكم عظيم (۱)

.وحين استضعفوا وظُلموا أرسل اللَّه تعالى لهم موسى عليه السلام ليخرجهم من الظلمات إلى النور، لكنهم أبوا أن يطيعوا اللَّه ورسوله، فحرمهم من الأرض المقدسة وغضب عليهم.

سليمان يبنى الهيكل المقدس

دخل بنو اسرائيل مدينة «أورشليم» القدس بقيادة «يوشع بن نون» سبط يوسف عليه السلام، بعد وفاة موسى وهارون عليهما السلام، وكان أول بلد احتلوه مدينة «أريحا»، وقيل: «أورشليم»، وقد أمرهم ربّهم أن يدخلوا باب المدينة خاشعين متذللين للَّه تعالى وأن يقولوا «حطّة» أى حطّ يا رب عنّا خطايانا، ولكن هؤلاء القوم خالفوا أمر اللَّه تعالى كعادتهم- فدخلوا متكبرين، وفسقوا بدل أن يستغفروا ربهم كما دعاهم لذلك (۲). وولى يوشع أمرهم حتى وافاه الأجل فولىَ أمرهم بعده قضاة حكموا فترة من الزمن دون أن يكون لهم ملك ذو سطوة وعزّة، وكانوا عرضة لغزوات الأُمم المجاورة لهم، وكانت العادة المتبعة عندهم أنهم إذا خاضوا حرباً ضد

۱- ۱ البقرة: ۴۹.

۲- ۲ انظر الآيات الكريمة ۵۸- ۵۹ من سورة البقرة.

ص: ۱۵۱

أعدائهم جعلوا «تابوت العهد» (۱) أمامهم يستنصرون به لتقوى عزائمهم.

وكان بنو اسرائيل فى عهد القضاة فى حالة بدوية، وكانت عصبتهم تتجه نحو القبلية واستمروا كذلك حتى عام (۱۰۴۰) ق. م حين ظهر فيهم زعيم وحد شمل قبائلهم وجمعها تحت راية واحدة، وقبض بيده على زمام الحكم وكان بذلك أول ملك فى بنى اسرائيل، وقد عُرف فى التاريخ اليهودى باسم «شاول» وسمّاه القرآن الكريم «طالوت».

ظهر لطالوت عدوٌّ جبار عرف باسم «جالوت» وشاع شرّه وفساده، دعا طالوت قومه للجهاد فى سبيل اللّه وحثهم على قتال أعدائهم، وخرج جالوت ووقف وسط الوادى ونادى صفوف بنى اسرائيل أن يختاروا رجلًا منهم لمبارزته وقال: إن استطاع رجلكم أن يغلبنى صرنا لكم عبيداً، وإن ظفرت أنا به وقتلته تصيرون لنا عبيداً، فارتاع بنو اسرائيل وأحجموا عن محاربته، وظل يتحداهم أربعين صباحاً ومساءً، حتى برز شاب يرعى غنمه، جاء يتفقد اخوته الذين اشتركوا مع جنود طالوت، أرسله أبوه ليخبره بحال أولاده، وكان هذا صغيرهم المسمى «داود»، حين رأى بأمّ عينيه توعدات جالوت لبنى اسرائيل وتمرجله عليهم، لم يطق داود الموقف، فقذف جالوت بحجر أخرجه من مقلاعه، فضربه على جبهته فخرَّ الجبار على أثرها على الأرض يتلوى وفى سرعة البرق الخاطف وثبَ عليه داود واستل سيفه وقطع رأسه، فبهرت بنو اسرائيل من هذا الموقف

۱- ۱ تابوت العهد: صندوق من خشب حفظ فيه موسى ألواح الشريعة التى أُنزلت عليه فى جبل سيناء، استولى عليه الفلسطينيون إثر انتصارهم فى معركة افيق، ووضعوه فى قرية «يعاريم». وقام داود من ثَمّ بنقله فى موكب رسمى إلى أورشليم حيث بنى له سليمان هيكلًا. وحفظه فى قدس الأقدس. وزال تابوت العهد أثناء حريق الهيكل عام ۵۸۷ أو ۵۸۶ ق. م على يد نبوخذ نصر، انظر معجم الحضارات السامية، هنرى س. عبودى: ۲۶۴.

ص: ۱۵۲

الجبار، وأكبرت داود وجعلته مقدماً بين رجال الحرب فى بنى اسرائيل... ثم ما لبث فترة حتى صار ملكاً عليهم.

«وتولى داود الحكم فى بنى اسرائيل، فجمع كلّ اسرائيل وذهب معهم الى «أورشليم»... وأقام فى الحصن «حصن صهيون» لذلك دعيت «مدينة داود».

وبنى بناءً مستديراً من القلعة... واختار القسم الشمالى... وبنى فيه مذبحاً للرب» (۱).

ثم جعل داود ابنه سليمان ولىَّ عهده قبل أن يموت، ولمّا ولىّ سليمان عرش الملوكية، أتَمَّ أعمال أبيه وواصل الفتوحات ونظّمَ المملكة تنظيماً حديثاً وشيّد الهيكل، وأوتى الحكمة، وجمع بين النبوةِ والملك، والحُكم والعدل، ودعا ربّه قائلًا:

ربِّ اغفر لى وهبْ لى ملكاً لا ينبغى لأحدٍ من بعدى إنك أنت الوهاب (۲)

فاستجاب له ربه، فقال تعالى فسخّرنا له الريح تجرى بأمره رُخاءً حيث أصاب* والشياطين كلَّ بنّاءٍ وغوّاص* وآخرين مقرّنين فى الأصفاد* هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب* وإنَّ له عندنا لزُلفى وحُسن مآب (۳)

.مَلّكَ اللّه تعالى سليمانَ ما يشاء من الملك، فوسع سليمان بيت المقدس وبنى الهيكل المسمى ب «هيكل سليمان» (۴)، ويسمى الآن موضع الهيكل القديم (الحرم

۱- ۱ العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة: ۳۹۸.

۲- ۲

۳- ۳ ۲ و ۳ سورة ص: ۳۵- ۴۰.

۴- ۴ هيكل سليمان: بناء ضخم ومحل عبادة، بلغ ارتفاعه ۱۸۰ قدماً حين بناه سليمان عليه السلام، مرصعبالذهب، وكان الذهب يغشى أجزاء كثيرة من الهيكل، وجىءَ بمعظم مواد بنائه من فينيقية، وكان يقوم بمعظم الأعمال الفنية صنّاع من صيدا وصور... واستمر بناؤه والعمل فى تشييده سبع سنين، كان فيه ۱۰۰ حوض من الذهب، وكانت الحجارة الكريمة ترصع أجزاء متفرقة منه، كما كان ملكان مغطيان بصفائح الذهب يحرسان تابوت العهد، وهذا الصرح الضخم لم يبقَ منه حجر واحد، بل إن موضعه نفسه لا يعرفه أحد على وجه التحقيق، انظر قصة الحضارة مج ۱: ج ۲: ۳۳۶ فما بعد...

ص: ۱۵۳

الشريف) وفی وسطه- فی الوقت الحاضر- مسجد قبهٔ الصخرهٔ والمسجد الأقصی الی الجنوب منه.

إذن فالهیکل المعروف فی القدس کان من إنشاء نبی اللَّه سلیمان علیه السلام، لکن هذا الهیکل العظیم الضخم، لم یرد فیه أنّ سلیمان بعد اتمامه للبناء أنه أذن فی الناس للحج فیه، أو أنه حجَّ إلیه یوماً من الأیام بأمرٍ من اللَّه تعالی ..

وهنا لنا أن نتساءل من أین جاء تشریع الحج للیهود والنصاری إلی الهیکل أو الی بیت المقدس واقامهٔ الطقوس التی یمارسونها الآن فی بیت المقدس؟

زکریا ویحیی وخدمهٔ الهیکل

زکریا علیه السلام من أنبیاء بنی اسرائیل، قضی عمره الشریف فی الدعوهٔ إلی اللَّه وخدمهٔ الهیکل المقدس فی بیت المقدس «أورشلیم» وعلی هذا فهو «لاوی» لأن خدّام الهیکل «لاویّوا» النسب، أی من نسل لاوی بن یعقوب النبی علیه السلام.

کان زکریا علیه السلام قد بلغ من الکبر عتیاً، وامتلأ رأسه شیباً، وامرأته عجوز عاقر غیر قادرهٔ علی الإنجاب، وبلغ زکریا درجهٔ الیأس من أن یکون له ولد یخلفه فی خدمهٔ الهیکل المقدس والدعوهٔ إلی اللَّه تعالی لأنّ أقاربه- بنی اسرائیل- أصبحوا شِرار القوم- حسب تعبیره علیه السلام- ویخاف أن لا یقیموا أمور الدین ولا یتولوا الناس بالعدل بعد موته، لعلمه بحالهم وعدم تمسکهم بالشریعهٔ الإلهیهٔ وخاف تحریفها، فدعا اللَّه تعالی بنداء خفی یطلبُ منه الولد، وحفزه ما یراه من إکرام اللَّه تعالی مریم، إنه کلما دخل علیها المحراب فیسألها یا مریم أنی لک هذا (۱)

تجیبهُ قائلهٔ: هو من عند اللَّه إن اللَّه یرزق من یشاء بغیر حساب (۲)

وحفزه ما یراه من عبادهٔ

۱- ۱ آل عمران: ۳۷.

۲- ۲ آل عمران: ۳۷.

ص: ۱۵۴

مريم عليها السـلام وخدمتها للهيكل المقدس، فطرق باب الدعاء إلى اللَّه تعالى واستجاب له ربه: فنادته الملائكة وهو قائم يصـلى فى المحراب أن اللَّه يبشّرك بيحيى مصدقاً بكلمة من اللَّه وسيداً وحصوراً (۱)

.أجل... استجاب اللَّه تعالى دعاء نبيه زكريا عليه السلام خادم الهيكل والمسؤول عنه والمبشر والنذير لبنى اسرائيل المعاندين، استجاب له بولد يخلفه فى النبوة والرسالة والهداية، وأرسل إليه ملائكة تبشّره بذلك، واختار له اللَّه تعالى اسـماً لم يكن أحد من قبله قد سمى بذلك الاسم: يا زكريا إنّا نبشّرك بغلامٍ اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً (۲)

تعجب زكريا عليه السـلام بهـذه البشـرى وقال: ربِّ أنّى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقراً وقـد بلغت من الكبر عتياً قال كذلك قال ربّك هو علىَّ هينٌ وقد خلقتك من قبلُ ولم تكُ شيئاً (۳)

.وتحققت إرادة اللَّه تعـالى وحملت زوجـة زكريـا واسـمها «اليصابـات»، ويقول أهـل الكتاب: كان حملها فى الزمن الـذى كانت مريم حاملًا فى عيسى ولا دليل على صحة هذا الادعاء عندنا فى وقت الحمل وزمنه.

لقـد كان يحيى عليه السـلام على أكمل أوصاف الصـلاح والتقوى منذ صـباه، وقد أوتى الحكمة، قال تعالى يا يحيى خذ الكتاب بقوةٍ وآتيناه الحكم صبيا (۴). وكذلك خصّه اللَّه تعالى بحنانه ورحمته لتقواه منذ الصـبا، وحناناً من لدنا وزكاةً وكان تقياً (۵). هذا ما كان من حياة زكريا وعلاقته فى الهيكل المقدس، وبعد وفاة

۱- ۱ آل عمران: ۳۹.

۲- ۲ مريم: ۷.

۳- ۳ مريم: ۹.

۴- ۴ مريم: ۱۲.

۵- ۵ مريم: ۱۳.

ص: ۱۵۵

زكريا عليه السلام، وقيل قُتِلَ، حسب ما جاء فى انجيل برنابا: «أنّ عيسى قال لليهود:

ستأتى عليكم دماء الأنبياء الذين قتلتموهم إلى دم زكريا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح» (۱).

فتسلم يحيى زمام الأمور بعد زكريا عليه السلام فى امور الدين والقضاء وخدمة الهيكل المقدس والصلاة والعبادة فى معبد الهيكل، وكان بارعاً فى الشريعة الموسوية- شريعة موسى عليه السلام- ومرجعاً مهماً لكلّ من يستفتى فى أحكامها...

وتذكر كتب التاريخ والتفسير أنّ فى زمن نبوةِ يحيى عليه السلام كان أحد حكام فلسطين يقال له «هيرودس» وكانت له بنت أخ تدعى «هيروديا» بارعة الجمال، عشقها عمّها وأراد الزواج منها. وكانت البنت وأمّها ترغبان فى ذلك، غير أن يحيى عليه السلام كان معارضاً لهذا الزواج؛ لأنه محرّم فى الشرائع السماوية، وكان يحيى آنذاك سيداً نبياً يُحترم كلامه، ولما عرفت أمّ الفتاة أن يحيى معارضاً لهذا الزواج، هيّأت بنتها فى كامل زينتها وأخرجتها على عمّها، ورقصت البنت أمامه، فسَرَّت قلبه، فقال لها: اطلبى ما تتمنين لأَسُرَّ قلبك، وكانت أُمّها قد لقّنتها أن تطلب منه رأس يحيى بن زكريا فى طبق، ففعلت ووفى لها عمّها وأمر بقتل يحيى فى محرابه ومحراب أبيه بين الهيكل المقدس ومذبح الرب (۲).

وبذلك صار هذا المحراب له قدسية خاصة عند أتباع زكريا ويحيى يُطافُ حوله فى مراسم حجّهم السنوى فى ذكرى يوم الغدر بهما.

ومن خلال ما تقدم لم نجد أن زكريا أذن للناس بالحج فى بيت المقدس ومحراب صلاة زكريا أو ابنه يحيى مع أنهم كانوا فى خدمة بيت المقدس من الناحية الدينية.

۱- ۱ قصص الأنبياء/ عبدالوهاب النجار: ۳۶۸. بيروت- لبنان.

۲- ۲ المصدر السابق/: ۳۶۸- ۳۶۹. وكذلك فى كتاب مع الأنبياء فى قصّة يحيى.

ص: ۱۵۶

منطقة الهیکل فی أدوارها الثلاثة من عهد سلیمان حتی العهد الاسلامی «عن کتاب» دلیل فلسطین التاریخی

روح اللّه عیسی علیه السلام والقدس

الی جذع النخلة فی الموضع الذی فیه مدینة (بیت لحم)، علی بضـعة کیلومترات من بیت المقدس، جاءت بنت عمران «مریم القدیسة» لتستتر أو لتعتمد علی النخلة الیابسة، وهی فی حالة المخاض قالت فی نفسها: یا لیتنیمتُّ قبل هذا وکنتُ نسیاً منسیاً* فناداها من تحتها ألا تحزنی قد جعل ربک تحتک سریاً* وهزی الیک بجذع النخلة تُساقط علیک رطباً جنیا* فکلی واشربی وقری عیناً (۱)

.لقد أراد اللّه تعالی أن یسکن روع مریم القدیسة العذراء، ولتعلم أن من أوجد

۱- ۱ سورة مریم: ۲۳- ۲۶.

ص: ۱۵۷

لها الرطب من النخلة الیابسة فی الشتاء، وأوجد لها الماء الجاری فی تلک الهضبة التی کانت علیها من الجبل- جبل صهیون- قادر أن یرد عنها کلّ سوء وحتی عیب العائبین، وقذف القاذفین، وسیأتی المولود الذی خلقه اللّه بکلمة «کن» علی غیر الطریقة العادیة فی التوالد، وهذا الولد اسمه المسیح عیسی وسیجعله اللّه تعالی ذا مکانة فی الدنیا وذا جاه وشرف وعلو قدر، کما أنه فی الآخرة من الصفوة المقربین الی اللّه تعالی .. وإنه خاتم أنبیاء بنی اسرائیل، ومَثَلُ خلقهِ کمثل آدم علیه السلام: إن مثل عیسی عند اللّه کمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له کن فیکون (۱)

.وضعت مریم العذراء مولودها! وهی وجلة من القوم وبما سیرمونها من الفاحشة والفجور، لکنَّ الملک جبرئیل «الوحی» علّمها بأمرٍ من اللّه تعالی أنها إذا أتت قومها أن تقول لهم: إنی نذرت للرحمن صوماً فلن أکلم الیوم إنسیاً (۲)

.وجاءت قومها تحمله، سألوها یا أخت هارون ما کان أبوک امرأ سوءٍ وما کانت أُمّک بغیاً (۳)

فأشارت إلی ولیدها، وتکلم بإذن اللّه تعالی قائلًا: إنّی عبد اللّه آتانی الکتاب وجعلنی نبیاً* وجعلنی مبارکاً أینَ ما کنتُ وأوصانی بالصلاة والزکاة ما دمتُ حیّاً... (۴)

.وبذلک ظهرت براءة مریم العذراء العابدة القدیسة المنذورة لبیت المقدس والعاکفة علی صلاتها فیه.

ومضت ثلاثون عاماً (۵) علی هذه المعجزة لمریم علیها السلام أتتها المعجزة الأخری أن

۱- ۱ آل عمران: ۵۹.

۲- ۲ مریم: ۲۶.

۳- ۳ مریم: ۲۸.

۴- ۴ مریم: ۳۰- ۳۱.

۵- ۵ بموجب روایات الإنجیل أنه بُعث نبیاً وهو فی عمر الثلاثین من عمره.

ص: ۱۵۸

بُعث عيسى روح اللّه عليه السلام نبياً ورسولًا فى بنى اسرائيل وأُنزل عليه الإنجيل، وبدأ بالدعوة إلى اللّه، ففريق صدّقوه واتبعوه حقاً، وفريقٌ كذّبوه وحاربوه، وفريقٌ ثالث انبهرت عقولهم به وبشخصه ومعجزة مجيئه إلى الدنيا من غير أب ومن إحيائه الموتى وشفائه للأكمه والأبرص وغيرها من المعاجز التى جاء بها عليه السلام، هذا الفريق من الناس جعلوه إلهاً يُعبد أو ابناً للّهالكبير وأنه نظير للمعبود الأب وغيرها من الاصطلاحات التى ميزووا به بقية مخلوقات اللّه تعالى ..

أجل... أنزل اللّه تعالى على عيسى عليه السلام الإنجيل: وقفّينا بعيسى بن مريم وآتيناه الإنجيل (۱)

. ولكن اين هو الإنجيل الذى من عند اللّه والذى ذكره القرآن الكريم؟

لقد ضاع «الإنجيل الأصل» وبقيت أناجيل متعددة محرّفة كتبتها أيادى النصارى أو بكلمة أخرى ألّفها تلاميذ المسيح عليه السلام من بعده بزمن طويل، وهى عبارة عن تعريف بأحوال المسيح وأعماله وأقواله وعظاته ومعجزاته وخوارق العادات التى أجراها اللّه تعالى على يده.

أهم الأناجيل التى تعترف بها الكنيسة، أربعة هى:

۱- انجيل متى ۲- انجيل مرقس ۳- انجيل لوقا ۴- انجيل يوحنا.

«إنّ هذه الأناجيل وغيرها من الأناجيل الكثيرة، لم تكتب زمن عيسى عليه السلام بل بعد عهده بفترة، قام بعض تلامذته وتلاميذهم وتلاميذ تلاميذهم وكتبوا قصصاً كثيرة. وكلّ واحد يسمى ما كتبه «انجيلًا» حتى قيل: إنّ الأناجيل بلغت: نيفاً ومائة انجيل» (۲).

والجدير بنا بيانه: أن هذه الأناجيل فى الظاهر لا ذكر فيها للأمر بالحج إلى بيت

۱- ۱ الحديد: ۲۷.

۲- ۲ قصص الأنبياء، النجار: ۳۹۹.

ص: ۱۵۹

المقـدس أو إلى أمـاكن ذكريات عيسـى عليه السـلام أو مسـقط رأسه مثلًا، ولكنّا نرى النصارى يحجون إلى بيت المقـدس والى جبل صهيون حيث مسقط رأس المسيح عليه السلام وبيت لحم.

هذا المكان في القدس بدأ الحج إليه منذ أن بُنيت أول كنيسة هناك...

«... وبيت لحم، بعثها الامبراطور قسـطنطينوس الأول الكبير، بعثها مدينـة دينيـة وبنى فيها عام ۳۲۶ م كنيسـة إلى جانب مغارة يرجح أن يكون المسيح ولـد فيهـا، وهى لا تزال قائمـة إلى اليوم، كما بنى فيها (يوستينيانوس) الأول ۵۲۶- ۵۶۵ كنيسة مزخرفة بالفيسانوس...» (۱).

وعلى هذا، فليس هناك مجال للاعتقاد بأنّ المسيح عليه السـلام جعل أوامر الحجمكان مسقط رأسه الشريف، وإنما طقوس وألاعيب نسجت بعده عليه السلام.

إسراء محمد صلى الله عليه و آله إلى القدس

وبُعث محمد صـلى الله عليه و آله بعد ميلاد المسيح ب (۶۱۰) أعوام؛ ليكون خاتماً لجميع الأنبياء والرسل وسـيدهم، وخصه اللَّه تعالى بخصائص ومعجزات كثيرة كان منها الإسراء والمعراج.

لقد أسـرىَ بالرسول الأكرم صـلى الله عليه و آله من المسـجد الحرام في مكة المكرمة إلى المسجد الأقصى (۲) في بيت المقدس، ثم عُرج به من بيت المقدس إلى السموات العُلى وقد اتفقوا على وقوع الإسراء والمعراج لوجود النصّ عليهما في القرآن والسُنة، قال

۱- ۱ معجم الحضارات، هنرى س. عبودى: ۲۵۳.

۲- ۲ المسجد الأقصى: مكان للعبادة ولفظة مسجد مأخوذة من الفعل سَجَدَ، فالمسجد موضعالسجود، وحين أُسرى بالرسول الأكرم، لم يكن في ذلك المكان بناء معروف بالمسـجد الأقصـى، وإنما سـمى في الآيـة الكريمـة ب المسـجد الأقصـى لأنه مكان يُسـجد فيه في العبادة.

ص: ۱۶۰

تعالی سبحان الذی أسری بعبده لیلًا من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی الذی بارکنا حوله لنریه من آیاتنا... (۱)

.جاء عن القمی عن أبیه عن ابن أبی عُمیر عن هُشام بن سالم عن أبی عبداللَّه علیه السلام فی تفسیر هذه الآیهٔ قال: جاء جبرئیل ومیکائیل وإسرافیل بالبراق لرسول اللَّه صلی الله علیه و آله فأخذ واحد باللجام وواحد بالرکاب وسوی الآخر علیه ثیابه، فتضعضعت البراق فلطمها جبرئیل ثم قال لها: اسکنی یا براق فما رکبک نبیّ قبله ولا یرکبک بعده مثله.

قال: فرقَّت به ورفعته ارتفاعاً لیس بالکثیر ومعه جبرئیل یریه الآیات من السماء والأرض. قال: فبینا أنا فی مسیری إذ نادی منادٍ عن یمینی: یا محمد فلم أجبه ولم التفت إلیه، ثم نادی منادٍ عن یساری: یا محمد فلم أجبه ولم التفت إلیه، ثم استقبلتنی امرأهٔ کاشفهٔ عن ذراعیها من کلّ زینهٔ الدنیا فقالت: یا محمد انظرنی حتی اکلمک فلم التفت إلیها، ثم سِرتُ فسمعتُ صوتاً أفزعنی فجاوزتُ، فنزل بی جبرئیل فقال: صلِّ فصلیتُ. فقال: أتدری أین صلیتَ؟ قلتُ: لا، فقال: صلیتَ بطورِ سیناء حیث کلّم اللَّه تعالی موسی علیه السلام تکلیماً، ثم رکبتُ فمضینا ما شاء اللَّه ثم قال لی: انزل فصلِّ فنزلتُ وصلیتُ فقال لی: أتدری أین صلیتَ؟ فقلتُ: لا، قال:

صلیتَ فی بیت لحم، وبیت لحم بناحیهٔ بیت المقدس حیثُ ولد عیسی بن مریم.

ثم رکبتُ فمضینا حتی انتهینا إلی بیت المقدس، فربطتُ البراق بالحقهٔ التی کانت الأنبیاء تربط بها، فدخلتُ المسجد ومعی جبرئیل إلی جانبی، فوجدنا إبراهیم وموسی وعیسی فیمن شاء اللَّه من أنبیاء اللَّه علیهم السلام فقد جمعوا إلیَّ واقیمت الصلاهٔ ولا أَشُکُ إلّاوجبرئیل یستقدمنا، فلما استووا أخذ جبرئیل بعضدی فقدمنی وأممتهم ولا فخر.

۱- ۱ الإسراء: ۱.

ص: ۱۶۱

ثم أتانى الخازن بثلاثِ أوانٍ وإناء فيه لبن وإناء فيه خمر وإناء فيه ماء، وسمعتُ قائلًا يقول: إن أخذ الماء غرق وغرقت أُمته، وإن أخذ الخمر غوى وغويت أُمته، وإن أخذ اللبن هدى وهديت أُمتُه، قال: فأخذتُ اللبن وشربتُ منه، فقال لى جبرئيل: هديت وهديت أُمتك.

ثم قال لى: ماذا رأيت فى مسيرك؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يمينى فقال: أوأجبته؟ فقلتُ: لا ولم ألتفت إليه فقال: داعى اليهود، لو أجبته لتهودت أمتك من بعدك، ثم قال ماذا رأيت؟ فقلتُ: نادانى منادٍ عن يسارى فقال لى: أوأجبته؟ فقلتُ: كلا ولم ألتفت إليه، فقال: ذاك داعى النصارى ولو أجبته لتنصرت أمتك من بعدك.

ثم قال: ماذا استقبلك؟ فقلتُ: لقيتُ امرأة كاشفة عن ذراعيها عليها من كلّ زينة الدنيا، فقالت: يا محمد انظرنى حتى أكلمك. فقال: أوكلمتها؟ فقلتُ: لم أكلمها ولم ألتفت إليها، فقال: تلك الدنيا ولو كلمتها لاختارات أمتك الدنيا على الآخرة (۱).

ومن بيت المقدس انتقل النبى محمد صلى الله عليه و آله إلى السماء- فكان المعراج- وهناك فُرض عليه وعلى أُمته الصلوات الخمس فى اليوم والليلة وغيرها، ثم عاد رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى مكة وجَرى ذلك كله فى ليلة واحدة (۲)...

ومن تلك الليلة قدّس المسلمون المسجد الأقصى فى بيت المقدس، وتوجهوا إليه فى صلاتهم بأمرٍ من اللَّه ثلاثة عشر عاماً وبضعة أشهر.

ولم يكن عجباً أن يتخذه المسلمون مكاناً مقدساً لهم، وأن يكون عندهم

۱- ۱ نقله القمى فى تفسيره للآية الأولى من سورة الاسراء، والطباطبائى فى الميزان، ومحمد جواد مغنية فى الكاشف، وسيد قطب فى تفسيره فى ظِلال القرآن، ونقله كُتّاب التاريخ الإسلامى باتفاق السُنة والشيعة، فراجع.

۲- ۲ المصدر السابق.

ص: ۱۶۲

بالمنزلة الثالثة بعد الحرم المكّى والمدنى من حيث القداسة والصيانة والرعاية...

فصلاة النبى فيه إماماً لأنبياء اللَّه دليلًا على أن اللَّه تعالى يورث الأرض لعباده الصالحين، ودليلًا على قدسية هذا المكان العظيم، لكن القدسية شيء والحج الذى نحن بصدده شيء آخر.

فالمسلمون يقدسون بيت المقدس، ويعتبرونه من مقدساتهم المهمة، لكنهم لم يحجوا إليه؛ لأنهم لم يؤمروا بذلك... ولم تأمر به الأديان السماوية السابقة.

والجدير بالذكر أنّ النبى محمداً صلى الله عليه و آله قيّد البراق بالصخرة المقدسة (۱) حين بلغ به الإسراء إلى بيت المقدس، وحتى يومنا هذا يُسمى الجدار الغربى للحرم القدسى بجدار البُراق (۲)، وجاء فى الروايات أيضاً أنّ النبى صلى الله عليه و آله صلى على أطلال هيكل سليمان إماماً لإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام وبقية الأنبياء...

والرحلة من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى من معجزات حبيب اللَّه محمد صلى الله عليه و آله وهى تربط بين عقائد التوحيد الكبرى من لدن إبراهيم وإسماعيل عليهم السلام، الى محمد صلى الله عليه و آله خاتم النبيين، وتربط بين الأماكن المقدسة لديانات التوحيد جميعاً، وكأنما أُريد بهذه الرحلة العجيبة إعلان وراثة الرسول الخاتم لمقدسات الرُسل قبله، واشتمال رسالته على هذه المقدسات، وارتباط رسالته بها جميعاً، قال تعالى إن الأرض للَّهيورثها من يشاء من عباده (۳)

۱- ۱ الصخرة المقدسة: صخرة ذات تاريخ قديم جدّاً قدسها أهل أورشليم وتصوروا أنها نزلت من‌السماء كالحجر الأسود فى الكعبة.

۲- ۲ جِدار البراق: هو الحائط الذى ربط فيه رسول اللَّه محمد صلى الله عليه و آله البُراق الدابة فى ليلة الإسراءفسمى بجدار البُراق.

۳- ۳ الأعراف: ۱۲۸.

ص: ۱۶۳

وهذه أروع رابطة وأروع علاقة بين الإسلام وبيت المقدس (محل عبادة الأنبياء)، وقد مثلها النبى الأكرم محمد صلى الله عليه و آله. لقد احترم الإسلام بيت المقدس، فهو فعلًا بيت مقدس ومحل عبادة للَّه تعالى وفيه مقدسات الأنبياء من أولهم حتى خاتمهم صلى اللَّه تعالى عليهم جميعاً وسلم، ولكن مع هذا لم يجعله لحظة واحدة مركزاً للحج ولا أخبر نبيه الكريم أنه أمر أحداً من الأنبياء بالحج إليه، بل الاتجاه المأمور به منذ خلق البشرية إلى نهاية الأرض، بالحج إلى مكة المكرمة حيث بيت اللَّه العتيق، فالإذن إليه لا لغيره.

الصخرة المشرفة، منها عرج رسول اللَّه صلى الله عليه و آله إلى السماء

ص: ۱۶۴

سبحان الذی أسری بعبده من المسجد الحرام إلی المسجد الأقصی

المسجد الأقصی حالیا

الكعبة لا القدس مركزاً لحج الأنبياء

من كـلّ ذلـك، ومن خلاـل ما أوردناه من حياة الأنبياء، لم نقرأ أنهم حجوا بيت المقـدس، كما قـد يتبادر إلى الـذهن من خلال اسـم البيت وقدسيته، ووجود الأنبياء

ص: ۱۶۵

فيه وممارستهم بعض شعائرهم... وعباداتهم و... و...

لكن البيت الحقيقى الذى حجّه الأنبياء ومارسوا فيه شعائر اللّه تعالى هو بيت اللّه العتيق والكعبة الشريفة، كما وردت فى الروايات عن النبىّ الأكرم صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار أنه أول بيت وضع للحج، وهو أول بيت للّهعُبد اللّه تعالى فيه، وهو أول بيت أسست شعائر الحج فيه، إلّاأنّ المنحرفين عن الجادة المستقيمة، اتّخذوا أماكن حج وشعائر حج على غرار الحج لبيت اللّه.

وكما أنّ لبيت اللّه الأولوية فى كلّ شىء، فإنه أعظم بيت وضع على الأرض، فقد قال الأزرقى: حدثنى جدى عن سعيد بن سالم عن عثمان بن ساج قال:

«أخبرنى ابن جريج، قال: بلغنا أنّ اليهود قالت: بيت المقدس أعظم من الكعبة؛ لأنه مهاجر الأنبياء، ولأنه فى الأرض المقدسة، وقال المسلمون: الكعبة أعظم، فبلغ ذلك النبىّ محمداً صلى الله عليه و آله فنزل: إنّ أول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركاً حتى بلغ فيه آيات بينات مقام ابراهيم وليس ذلك فى بيت المقدس، ومن دخله كان آمناً وليس ذلك فى بيت المقدس» (۱).

وبيت المقدس بيت مُقدّس واقعاً، وبيت عُبد فيه اللّه، وكلّ بيت يُعبد فيه اللّه فهو مسجد، وكلُّ مسجد هو بيت اللّه، لكن الكعبة شىء آخر، ولها شأنٌ آخر، فقد قال اللّه تعالى لآدم عليه السلام: «سأجعلُ فيها (۲) بيوتاً ترفع لذكرى، ويسبحنى فيها خلقى، وسأبوئك فيها بيتاً أختاره لنفسى، وأختصّه بكرامتى، وأوثره على بيوت الأرض كلّها باسمى، فأسميه بيتى، وأنطقه بعظمتى، وأجوزه بحرماتى، وأجعله أحقّ بيوت الأرض كلّها وأولاها بذكرى، وأضعه فى البقعة التى اخترتُ لنفسى، فإنى اخترتُ مكانه يوم خلقت السموات والأرض... ومن عظّم شأنه عظم فى عينى، ومن

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۷۵.

۲- ۲ أى فى الأرض.

ص: ۱۶۶

تهاون به صغر فی عینی، ولکلّ ملک حیازة ما حوالیه، وبطن مکة خیرتی وحیازتی وجیران بیتی وعمارها وزوّارها... فأجعله أول بیت وضع للناس... الخ» (۱).

۱- ۱. أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۴۶- ۴۷، منشورات الشریف الرضی.

ص: ۱۶۷

ص: ۱۶۸

ص: ۱۶۹

الفصل السابع: الحج فی الإسلام

مقدمة

اشارة

مسیرة الحج علی أشکاله المتنوعة طویلة بطول الأُمم والحضارات والأدیان، ابتدأت بظهور آدم علیه السلام علی وجه الأرض، ثم الأُمم القدیمة البائدة والحضارات کالحضارة الفرعونیة القدیمة والبابلیة والفارسیة وغیرها وانتهت إلی الحضارات والأدیان والامم الموجودة الآن کالمسیحیة والیهودیة والإسلام علی ما بینها من تفاوت... تفاوت فی طبیعته وشروطه وأشکاله وأعماله وتفاصیله المختلفة کما مرَّ علینا من خلال الفصول السابقة...

وقمة نضوج الحج هو تلاؤمه مع مختلف الظروف الحالیة والمستقبلیة مع الإسلام، فالحج فی هذه الدیانة السماویة الإلهیة، هو فی الحقیقة خاتم أشکال الحج، کما دین الإسلام خاتم الأدیان، ومحمد صلی الله علیه و آله خاتم الرسل والأنبیاء، وانسجامه مع مختلف الظروف مکاناً وزماناً، هو فی الحقیقة قمة نضوجه... ونضوجه من نضوج الإسلام، وکماله من کمال الإسلام.

ومن هنا تمیز الحج فی الإسلام عن کلّ أنواع الحج فی الأُمم والحضارات والدیانات الأخری تمیز بفرادته وهدفه السامی الصافی من کلّ شائبة. ولذلک

ص: ۱۷۰

جاء هـذه المرة صورة كاملـة متكاملـة موزعـة بین عدة أركان وفروع وملحقات وممارسات... ضـمن إطار كبیر اسـمه (الحج الأكبر أو حجة الإسلام).

إذن الحج الإسـلامی، هو حالة كاملة متكاملة بمعنی الكلمة، لا یمكن الوصول الی هدفها، إلّاإذا تفاعل فیها عقل وقلب الإنسان لیكون أعمالًا مادیـة جسدیة مزیجة بالروح والإیمان وبعلاقة من خارج الطبیعة، وهذه هی معنی الفرادة، وهذا هو معنی أبدیة الحج الإسـلامی واستمراره فی الزمان والمكان، فهو فریضة تتماشی والفطرة الإنسانیة السلیمة وإلّا لا معنی لاستمراریته وشموله وخلوده.

ویقع الحج فی الإسـلام موقعاً ممتازاً، یقع فی قمة الأجزاء الأساسـیة فی هذا الدین الحنیف، فحین قسّم الإسلام أجزاء الدین إلی اصول وفروع... وهی اساسـیات الـدین الإسـلامی... كـان الحـج أحـد هـذه الفروع وهی الصوم والصـلاة والزكـاة وغیرها، ومن مجموع هـذه الاصول والفروع یتشـكل أساس الإسـلام، فهی أعمدة كبری قام علیها الإسـلام، فالحج جزء أساس من الإسـلام، جزء ضمن أجزاء إذا سقط أحدها تداعت له سائر الأجزاء ولم یكن إسلاماً أبداً...

ولكلّ جزء منزلـة محـددة ووظیفة محددة تختلف عن سائر الوظائف الأخری .. ولكل فریضة منزلة خاصة تختلف وظیفتها عن وظائف الأخری ..

ویقف الحج بمنزلة شامخة بین المنزلات، بسبب عمومیته وفوائده الاجتماعیة العریضة، فالحج فی الإسلام، دعوة عبادیة عامة ومصالحة بین عـدد من الشـعوب؛ لـذلك جعـل اللّه فیه ثوابـاً كبیراً وعظیمـاً فإذا أدّاه الفرد كما ینبغی، كان كیوم ولـدته أمه، طاهراً كأن لم یأتِ بذنب، وجعل اللّه تعالی للحاج منزلة كبیرة یوم القیامة.

ویمكن أن یعرف المسلم، بل وحتی غیر المسـلم قیمة الحج، حین یری أو یسـمع بذلك الجمع الغفیر من الناس المتجه إلی اللّه تعالی بنیة العبادة والإخلاص للّهالواحد الأحد فی وقت واحد بمنطقٍ واحدٍ بلباسٍ واحدٍ بموقفٍ واحدٍ ب... ب... الخ، حقاً

ص: ۱۷۱

إنها فریضهٔ ذات منزلهٔ کبیرهٔ لا یعرف قیمتها الحقیقیهٔ إلّاالذی یؤدیها ویمارسها علی أکمل وجهها...

والحج فی الإسلام، منسک مهم وشعار عظیم لاستمرار الدین وإقامته، فقد جاء فی الحدیث عن الإمام جعفر الصادق علیه السلام: «لا یزال الدین قائماً ما قامت الکعبهٔ» (۱).

اذن فقیام الدین واستمراره بإقامهٔ ودیمومهٔ فریضهٔ الحج، حتی جاء فی الحدیث عنه علیه السلام أیضاً: «لو عطّل الناس الحج لوجب علی الإمام أن یُجبرهم علی الحج، إن شاؤوا وإن أبوا، فإنّ هذا البیت إنما وُضِع للحج» (۲).

اذن، فتعظیم الکعبهٔ وإقامهٔ الشعائر، هو الغرض الأسنی والهدف الأسمی من العبادهٔ، وهو أعلی درجات العبادهٔ عندما یؤدّی بشروطه الصحیحهٔ.

والحج بعد هذا «من بین أرکان الإسلام ومبانیه، عبادهٔ العمر، وختام الأمر، وتمام الإسلام، وکمال الدین فیه... قال النبی صلی الله علیه و آله: من مات ولم یحج فلیمت إن شاء یهودیاً أو نصرانیاً» (۳) هذا لمن استطاع إلیه سبیلًا ولم یؤده...

والحج فی الإسلام، لیس بدعهٔ، ولا خیالًا، أو اختلاقاً، أو ابتکاراً أو هوًی أو إرادهٔ شخص معین من البشر، بل هو شریعهٔ السماء وسُنهٔ الأنبیاء، التی سنّها إله الکون لأبناء آدم علیه السلام لغفران ذنوبهم وتوحید صفوفهم و... و... الخ، وبیّن اللَّه تعالی اسمه وأصوله ومناسکه وشعائره ولم یُدخل المسلمون علیه شیئاً إلّاما سنه اللَّه تعالی لهم.

وللحج فی الإسلام فلسفهٔ خاصهٔ وطعم خاص، ومن فلسفته أن جعله اللَّه

۱- ۱ وسائل الشیعهٔ ۲: ۳۷.

۲- ۲ المصدر السابق ۸: ۱۵.

۳- ۳ المحجهٔ البیضاء ج ۲، کتاب الحج: ۱۴۵، الطبعهٔ البیروتیهٔ.

ص: ۱۷۲

تعالى مؤتمراً عالمياً سنوياً يلتقى فيه المسلمون، يتداولون مشاكلهم وهمومهم، فهو رحمة ونفع للناس فى الدنيا والآخرة. قال تعالى ليشهدوا منافع لهم (۱)

حجُّ الحبيب محمد صلى الله عليه و آله

النبى محمد صلى الله عليه و آله، نموذج فريد من البشر فى كلّ شىء، حتى وصف اللَّه تعالى خلقه بالعظمة، فقال: إنك لعلى خُلقٌ عظيم (۲)

، فهو نموذج فى كلّ شىء، فى سلوكه وأعماله وأفعاله وممارساته، كيف لا، وهو الذى أوصل صدى الإسلام كلّ العالم؟ كيف لا، وهو الذى أنقذ الناس من الجهل المطبق إلى نور الحياة والحضارة... بخلقه العالى وسلوكه الهادئ وصبره الجميل وقلبه الواسع الكبير؟! وقد مارس كلّ شعائر اللَّه تعالى أحسن ممارسة وجسّدها أعظم تجسيد، حتى أصبح حبيباً للَّه، ويا لَه من شرف عظيم أن يصبح الإنسان الذى هو من مخلوقات اللَّه حبيباً لخالقه..! أجل، أحبه اللَّه تعالى وأحب أُمته حتى قال فيهم: كنتم خير أمةٍ أُخرجت للناس (۳)

.وقد أدى صلى الله عليه و آله الحج إلى الكعبة الشريفة كغيره من الأنبياء، وكان نموذجاً فى ذلك، فهو الصورة الرائعة للحج والنموذج الذى سار المسلمون على منواله...

وقد فرض اللَّه تعالى لحبيبه صلى الله عليه و آله الحج وشرعه له فى السنة السادسة للهجرة، وقيل: إنه اعتمر فى السنوات الأربع حتى أمره اللَّه تعالى وأنزل الآية الكريمة:

۱- ۱ الحج: ۲۸.

۲- ۲ القلم: ۴.

۳- ۳ آل عمران: ۱۱۰.

ص: ۱۷۳

وأذن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامرٍ یأتین من کلّ فجٍّ عمیق (۱)

.وکان هذا الأذان فی السنهٔ العاشرهٔ للهجرهٔ، فقد جاء فی الطبقات الکبری لابن سعد، روایهٔ أنس بن مالک ومجاهد: «کانت حجهٔ الرسول صلی الله علیه و آله فی ذی الحجهٔ سنهٔ (۱۰ ه) هی حجته الوحیدهٔ عقب هجرته صلی الله علیه و آله إلی المدینهٔ المنورهٔ» (۲).

وجاء عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «إنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله أقام بالمدینهٔ عشر سنین لم یحجّ، ثم أنزل اللَّه تعالی علیه: وأذن فی الناس بالحج یأتوک رجالًا وعلی کلّ ضامر... (۳)

فأمر المؤذنین أن یؤذنوا بأعلی أصواتِهم بأنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله یحجُّ من عامه هذا، فعلم به من حضر المدینهٔ وأهل العوالی والأعراب، فاجتمعوا، فحجَّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله، وإنما کانوا تابعین ینتظرون ما یؤمرون به فیتبعونه، أو یضع شیئاً فیضعونه: فخرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی أربع بقین من ذی القعدهٔ... الخ» (۴).

وقد بیّن اللَّه تعالی لحبیبه محمد صلی الله علیه و آله شعائر الحج ومراسمه فی آیات عدیدهٔ من القرآن الکریم، حتی بلغت أکثر من أربع وثلاثین آیهٔ، وأنزل سورهٔ خاصهٔ ب (الحج) تکریماً لهذ الرکن الإسلامی الأساسی، وعبر عنه- عن الحج- وعن مراسمه أنها من شعائر اللَّه ومن یعظم شعائر اللَّه فإنها من تقوی القلوب (۵)

وأطلق علی هذه الشعیرهٔ السماویهٔ ب (یوم الحج الأکبر)، وقال جلّ اسمه: وأذان من اللَّه ورسوله إلی الناس یوم الحج الأکبر (۶)

۱- ۱ الحج: ۲۷.

۲- ۲ الطبقات الکبری، ابن سعد ۲: ۱۸۹، وابن حزم، حجهٔ الوداع: ۱۳۷.

۳- ۳ الحج: ۲۷.

۴- ۴ وسائل الشیعهٔ ۸: ۱۵۰.

۵- ۵ الحج: ۳۲.

۶- ۶ التوبهٔ: ۳.

ص: ۱۷۴

وكان الرسول صلى الله عليه و آله فى مكة قبل هذا الأذان وقبل بعثته وبعدها يحج البيت ويختلف فى أدائه عمّن كانوا يحجون إليه من الجاهلية والحنيفية والصابئة وغيرهم، وقد ذكرت ذلك أغلب كتب التاريخ والتفسير.

وقد «سُئل الإمام الصادق عليه السلام، أحجَّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله غير حجة الوداع؟ قال:

نعم عشرين حجة» (۱).

وعنه عليه السلام أيضاً قال: «حجَّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله عشرين حجّة» (۲).

وكذلك قال أيضاً: «لم يحجّ النبى صلى الله عليه و آله بعد قدومه المدينة إلّاواحدة، وقد حجَّ بمكة مع قومه حجّات» (۳).

اقتداء المسلمين بسُنة نبيهم

الحج عند المسلمين، غير الحج فى الأديان الأخرى وبقية الأمم والحضارات، فهو الوحيد الذى بقى صافياً خالصاً، كما بدأ أول مرّة.

فكلّ أشكال الحج وأنواعه فى غير الإسلام قابلة للتغيير والتبديل ومعرضة لآفة التحريف فى أى زمان ومكان، لا- تشمله الثبوتية والخلودية، والسبب هو فى عدم كونه ركناً أساسياً من أركان أديانهم المتعددة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى عدم رجوعه إلى معصوم منزّه من الخطأ، بل هو من صنع بشر عاديين معرضين للخطأ والنسيان والغفلة والذنوب والنزعات الذاتية...

أما الحج عند المسلمين، فهو التزام واجب وأمرٌ مفروض من ربّ العزّة والجبروت، فرضه الإسلام على المسلمين، فاتبعوا وأطاعوا وعلموا والتزموا بما

۱- ۱ الكافى ۴: ۲۵۱، والوسائل ۱۱: ۱۲۵.

۲- ۲ المصدر السابق: ۲۴۵، والوسائل: ۱۲۶.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۴۴، والوسائل: ۱۲۴.

ص: ۱۷۵

قال نبیهم محمد صلی الله علیه و آله، وبما فعل وقرر، وعلموا أنه: وما ینطق عن الهوی* إن هو إلّا وحیٌّ یوحی (۱)

.فحینما أذّن رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی الناس بالحج: «... واجتمعوا لحجِّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله وإنّما کانوا تابعین ینظرون ما یؤمرون ویتبعونه أو یصنع شیئاً فیصنعونه، فخرج رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فی أربع بقین من ذی القعدة» (۲).

هکذا بدأ الحج عند المسلمین، اتباع سُنةِ حبیب اللَّه محمد صلی الله علیه و آله. وهذا سرُّ خلوده ودیمومته، فهو کان ومازال صادقاً صافیاً، لا تحریف ولا غلو فیه... وهو فرضٌ واجب لمن استطاع إلیه سبیلًا، ومن استطاع ولم یحج حجة الإسلام فهو لیس بمسلم، فقد جاء فی الحدیث عن الرسول صلی الله علیه و آله وآله الأطهار: «من مات ولم یحج حجّة الإسلام، ولم یمنعه من ذلک حاجة تجحف به، أو مرض لا یطیق معه الحج، أو سلطان یمنعه، فلیمت یهودیاً أو نصرانیاً» (۳).

الاستطاعة للحج

الحج فی الإسلام فرعٌ من فروع الدین ورکن أساس وفرض واجب أوجبه اللَّه تعالی علی عباده بشروط خاصة، فمن توافرت فیه الشروط، وجب علیه الحج، ومن وجب علیه الحج ولم یحج فقد کفر، للنص الموجود فی القرآن الکریم: وللَّه علی الناس حِجُّ البیت من استطاع إلیه سبیلًا ومن کفر فإنَّ اللَّه غنیٌّ عن العالمین (۴)

۱- ۱ النجم: ۳- ۴.

۲- ۲ الکافی ۴: ۲۴۵، والتهذیب ۵: ۴۵۴، والوسائل ۱۱: ۲۱۳.

۳- ۳ الکافی ۴: ۲۶۸، ومثله فی تفسیر ابن کثیر: ۳۸۶.

۴- ۴ آل عمران: ۹۷.

ص: ۱۷۶

أما الاستطاعة المذكورة فی الآیة الکریمة فهی:

۱- البلوغ: ویعنی سنّ التکلیف الشرعی وهی ۹ سنوات أو ۱۳ سنة علی رأی للأنثی و ۱۵ للذکر.

۲- العقل: أی لا تجب علی المجنون وفاقد الذاکرة وما شابه ذلک.

۳- الحریة: أی أن لا یکون عبداً مملوکاً.

۴- الزاد: والمراد به قدر الکفایة من القوت والشرب، ذهاباً وإیاباً.

۵- الراحلة: وهی الوسیلة التی توصله إلی مکة، ذهاباً وإیاباً.

۶- التمکّن من السیر: أی عدم المرض المانع للسیر، وأمان الطریق، وعدم منع الحاکم له (۱).

وشروط صحة حج الإسلام... فمن کان غیر مسلم لا یصح منه الحج ولا یجب علیه... إلّاأن یسلم.

«یجب الحج علی المستطیع من الرجال والنساء والخناثی علی الفور، وشرط وجوبه البلوغ والعقل والحریة والزاد والراحلة والتمکّن من السیر، وشرط صحته الإسلام» (۲).

ویجب الحج کذلک بأسباب أخری کالنذر والعهد والیمین والنیابة والاستئجار والإفساد (۳). وبتفصیل أکثر نذکر حجّ الأسباب فهی:

۱- النذر: وهو أن توجب علی نفسک ما لیس بواجب لحدوث أمرٍ، یُقال نذرت للّه‌أمراً (۴).

۱- ۱ شرائع الإسلام، المحقق الحلی: ۲۲۴- ۲۲۹.

۲- ۲ اللمعة الدمشقیة، العاملی: ۱۵۹.

۳- ۳ انظر المصدر السابق.

۴- ۴ المفردات فی غریب القرآن، الأصفهانی: ۴۸۷.

ص: ۱۷۷

۲- العهد: وسُمِّیَ المَوْثِق الذی یَلزَمُ مُراعاتُه عهداً قال تعالی وأوفوا بالعهد إنّ العهدَ کان مسئولا (۱)

.۳- الیمین: وهو الحَلِف مُستعارٌ من الید اعتباراً بما یفعله المعاهِدُ والُمحالف (۲) وغیره وهو أن یُقسم باللَّه أن یؤدی الحج للَّه.

۴- النیابهٔ: وهو أن یؤدی شخص الحج عن شخص آخر فی شروط خاصهٔ.

۵- الاستئجار: وهو إعطاء بدل مالی مقابل الحج نیابهًٔ عن شخص آخر.

۶- الإفساد: وهو بطلان الحج بترک رکن من أرکان الحج أو غیر ذلک.

والحج الذی وجب علی المکلف بالنذر وغیره مما ذکرناه، لا یجزئ عن حجهٔ الإسلام، فواجبه وفرضه یبقی علیه، وإذا قُید النذر وغیره فی سنهٔ معینهٔ وحصلت الاستطاعهٔ ل (حجهٔ الإسلام) فی تلک السنهٔ، یُقدم النذر وغیره علی حجهٔ الإسلام وتبقی الاستطاعهٔ إلی السنهٔ الثانیهٔ.

والسبب فی تقدیم النذر و غیره علی حجهٔالإسلام، لأنّ النذر أصبح مانعاً شرعیاً، و بما أنّ المانع الشرعی لا فرق بینه وبین المانع العقلی، فقد حجب حجهٔ الإسلام فی سنهٔ النذر؛ لذلک تؤجل حجهٔ الإسلام إلی سنهٔ أخری مع بقاء الاستطاعهٔ (۳).

أنواع الحج فی الإسلام

الحج لکلّ المسلمین، فریضهٔ أوجبها اللَّه تعالی علیهم، وفی الوقت نفسه راعی عباده فی ممارسته وبعض شعائره، فنوّعه علیهم، مراعاهٔ القرب والبعد من الکعبهٔ... فالذین جاوروا الکعبهٔ لهم نوع معین من الحج، والذی یبعد عنها له نوع

۱- ۱ المصدر السابق: ۳۵۰.

۲- ۲ المفردات: ۵۵۲.

۳- ۳ اللمعهٔ الدمشقیهٔ، باب الحج: ۱۶۴.

ص: ۱۷۸

آخر... وهكذا...

هناك ثلاثة أنواع للحج في الإسلام، ولكنها تقع ضمن إطار واحد، فالحج واحد في أصله، ومكانه، وزمانه إلّابعض ممارساته التي تتبع الجغرافية فقط، وهو ليس اختلافاً في الأصل ولا في الطبيعة الواحدة كما قد يتبادر إلى الذهن، وإنما هو اختلاف يتعلق بمكان القاصد للحج (أي بُعد منزله عن الكعبة) لا أكثر ولا أقل، وعلى هذا فسندخل في بيان أنواع الحج في الإسلام وهي:

۱- حج الأفراد.

۲- حج القران.

۳- حج التمتع.

۱ - ۲- حجُّ الإفراد والقران يجبان على أهل مكة، أو من يبعد عنها ستة عشر فرسخاً أي حوالي (۸۶) كم، ويجب في حج الإفراد والقران تقديم الحج على العُمرة.

وسمي (حجُّ قران) لأنَّ الحاج معه الهدى، وينفرد القران بالتخيير في عقد إحرامه بين الهدى والتلبية، واما الإفراد فبهما معاً (۱).

وصورة الإفراد: أن يحرم من الميقات أو من دويرة أهله إن كان منزله دون الميقات، ثم يمضي إلى عرفات فيقف بها، ثم يمضي إلى المشعر فيقف به، ثم إلى مِنى فيقضي مناسكه بها، ثم يطوف بالبيت ويصلي ركعتيه، ويسعى بين الصفا والمروة، ويطوف طواف النساء ويصلي ركعتيه، وعليه عُمرة مفردة بعد الحج والإحلال منه، ويأتي من أدنى الحِل. ويجوز وقوعها في غير أشهر الحج وشروطه النية (۲).

أما القارن (حج القرآن) فأفعاله وشروطه كالمُفرد، غير أنه يتميز عنه بسياق

۱- ۱ انظر اللمعة الدمشقية، باب الحج ۱: ۱۷۲، وشرائع الإسلام، باب الحج ج ۱.

۲- ۲ شرائع الإسلام: ۲۳۸- ۲۳۹.

ص: ۱۷۹

الهدى عند إحرامه. ويجوز للمفرد إذا دخل مكة أن يعدل بنيته إلى التمتع ولا يجوز ذلك للقارن.

۳- حج التمتع: وهو فرض من نأى منزله عن مكة أى على ما يزيد بُعده عنها أكثر من (۸۶) كم. ويجب فى هذا الحج تقديم العُمرة على الحج.

وسمى بحج التمتع لأن الحاج يتمتع بفترة تحلل، بين العُمرةِ والحج يُباح له فيها ما يحرم على المحرم. ويتكون هذا الحج من عبادتين واجبتين هما (۱):

أ- عُمرة التمتع.

ب- حجّ التمتع.

وصورة (حج التمتع): أن يُحرم من الميقات بالعُمرة المتمتع بها، ثم يدخل بها مكة. فيطوف سبعاً بالبيت، ويصلى ركعتيه بالمقام (۲)، ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعاً... ويُقصر.

ثم يُنشئ إحراماً آخر للحج من مكة يوم التروية على الأفضل، وإلّا بقدر ما يعلم أنه يدرك الوقوف بالمشعر الحرام، ثم يأتى عرفات فيقف بها إلى الغروب، ثم يفيض إلى المشعر فيقف به بعد طلوع الفجر، ثم يفيض إلى مِنى فيحلق بها يوم النحر، ويذبح هديه، ويرمى جمرة العقبة... (۳) وحج التمتع أفضل الحج كما سيأتى تفصيله إن شاء اللّه ونذكر قول الإمام الصادق عليه السلام هنا: «قال: الحج ثلاثة أصناف:

حج مفرد، وقِران، وتمتع بالعُمرة إلى الحج، وبها أمر رسول اللّه صلى الله عليه و آله والفضل فيها ولا نأمر الناس إلّابها» (۴).

۱- ۱ انظر اللمعة الدمشقية، باب الحج، أنواع الحج، حج التمتع.

۲- ۲ المقصود به مقام إبراهيم عليه السلام.

۳- ۳ شرائع الإسلام، المحقق الحلى، باب الحج: ۲۳۶.

۴- ۴ وسائل الشيعة ۲: ۱۴۸.

ص: ۱۸۰

وقال الفيض الكاشانى: «والتمتع فرض من نأى عن مكة بثمانية وأربعين ميلًا، وليس لهؤلاء غير التمتع عند أصحابنا لنصّ القرآن والصحاح المستفيضة عن أهل البيت عليهم السلام إلّامع الاضطرار كضيق أو طرء الحيض ونحو ذلك. والآخران فرض أهل مكة ومن بينه وبينها دون المسافة المذكورة على التخير بينهما، ولا يجوز لهم العدول إلى التمتع على الأصح إلّامع الاضطرار، فالمتطوع يتخير بين الأنواع الثلاثة، إلّاأنّ الأفضل له التمتع، وكذا الناذر إذا لم يعيّن أحدها، وكذا من له منزلان بمكة وغيرها يتساويان فى إقامته فيهما، فإن غلب أحدهما عليه لزمه فرضه، ومن أقام بمكة سنتين فهو من أهل مكة لا متعةً له» (۱).

أفضل الحج

كثرت الأحاديث والروايات والأخبار عن أفضل الحج، نذكر منها ما جاء عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام:

«أفضل الحج التمتع بالعُمرة إلى الحج، وهو الذى نزل به القرآن الكريم، وقام بفضله رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، وكان قد ساق الهدى فى حجة الوداع، فلما انتهى إلى مكة وطاف بالبيت وسعى بين الصفا والمروة نزل عليه ما نزل عليه، فقال: لو استقبلتُ من أمرى ما استدبرتُ لم أسق الهدى ولجعلتها متعةً، فمن لم يكن معه هدى فليحل، فحلَّ الناس وجعلوها عمرةً إلّامن كان معه هدى، ثم أحرموا للحج من المسجد الحرام يوم التروية، فهذا وجه التمتع بالعُمرة إلى الحج لمن لم يكن من أهل الحرم كما قال اللَّه تعالى لأن أهل الحرم يقدرون على العمرة متى أحبّوا، وإنما وسّع اللَّه عزّوجلّ فى ذلك لمن أتى من أهل البلدان، فجعل لهم فى سفرةٍ واحدةٍ حجةً وعمرةً

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ج ۲، باب الحج: ۱۶۲.

ص: ۱۸۱

رحمةً من اللّه لخلقه ومنّاً عليهم وإحساناً إليهم» (۱).

وسُئِلَ عليه السلام عن اختلاف الناس فى الحج فبعضهم يقول: خرج رسول اللّه صلى الله عليه و آله مُهلًا بالحج، وقال بعضهم: مُهلًا بالعُمرة، وقال بعضهم: خرج قارناً، وقال بعضهم: خرج ينتظر أمر اللّه عزّوجل...

فقال أبو عبداللّه (الصادق) عليه السلام عَلِمَ اللّه عزّوجلّ أنها حجة لا يحج رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعدها أبداً، فجمع اللّه عزّوجلّ له ذلك كلّه فى سفرة واحدة؛ ليكون جميع ذلك سُنّة لأمّته.

فلما طاف بالبيت وبالصفا والمروة أمره جبرئيل عليه السلام أن يجعلها عُمرة إلّامن كان معه هدى، فهو محبوس على هديه، ولا يحلّ لقوله عزّوجل: حتى يبلغ الهدى محله (۲)

فجمعت له العُمرة والحجّ.

وكان قد خرج على خروج العرب الأول؛ لأنّ العرب كانت لا تعرف إلّاالحج وهو فى ذلك ينتظر أمر اللّه عزّوجل، وهو يقول: الناس على أمر جاهليتهم إلّاما غيّره الإسلام، وكانوا لا يرون العُمرة فى أشهر الحج، فشقّ على أصحابه حين، قال: اجعلوها عمرة؛ لأنهم كانوا لا يعرفون العُمرة فى أشهر الحج (۳).

أفعال الحج فى الإسلام

وللحج فى الإسلام أفعال خاصة وشعائر معينة، علّمها ربّ العزّةِ والجبروت لعباده المؤمنين به، الطائعين له عن طريق حبيبه خاتم الأنبياء... وأفعال الحج عند المسلمين وعلى جميع المذاهب هى كالآتى:

۱- ۱ البحار ۹۹: ۱۳۸، ودعائم الإسلام ۱: ۳۰۰.

۲- ۲ البقرة: ۱۹۶.

۳- ۳ علل الشرائع: ۴۱۴.

ص: ۱۸۲

يُحرِم الحاج البعيد عن مكة من الميقات الذى مرّ به، أو بما يحاذيه، ويشرع بالتلبية، لا فرق فى ذلك بين معتمر بعمرة مفردة، أو متمتع، أو مفرد، أو قارن، أما أهل الحرم فيحرمون من منازلهم.

فإذا رأى الحاج البيت الحرام كبّر وهلل- استحباباً-.

وإذا دخل مكة اغتسل- استحباباً أيضاً-.

ثم يدخل البيت، ويستلم الحجر الأسود، ويقبله إن استطاع، وإلّا أشار إليه بيده، ويطوف طواف القدوم- استحباباً- إن كان مفرداً، أو قارناً، ثم يصلى ركعتى الطواف، ثم يستلم الحجر، إن استطاع، ويخرج من البيت، ثم يقيم بمكة باقياً على إحرامه، فإذا جاء يوم التروية، وهو اليوم الثامن من ذى الحجة خرج إلى عرفة، وإن شاء خرج قبله بيوم.

وإن كان معتمراً بعمرة مفردة، أو حاجاً حج التمتع طاف- وجوباً- وصلّى ركعتى الطواف، ثم سعى بين الصفا والمروة، ثم حلق أو قصّر.

ويتحلل حينئذٍ من إحرامه ويُباح له كلّ شىء حتى النساء.

ثم ينشئ المتمتع إحراماً آخر من مكة فى وقت يمكنه فيه أن يدرك الوقوف بعرفة حين الزوال من اليوم التاسع من ذى الحجة، والأفضل الإحرام يوم التروية، وأن يكون تحت الميزاب.

ويتجه الحاج متمتعاً كان أو قارناً أو مفرداً إلى عرفة ماراً بمنى ويبدأ وقت الوقوف بعرفة من زوال اليوم التاسع حتى فجر اليوم العاشر عند الحنفية والشافعية والمالكية.

ومن زوال التاسع إلى غروب شمسه عند الإمامية وللمضطر إلى فجر اليوم العاشر. ومن فجر التاسع إلى فجر العاشر عند الحنابلة.

ويدعو الحاج بعرفة، ويلح بالدعاء والبكاء حين الدعاء- استحباباً- ثم يتجه

ص: ۱۸۳

الى المزدلفة يصلى فيها صلاة المغرب والعشاء ليلة العيد جامعاً بينهما- استحباباً- باتفاق جميع المذاهب الإسلامية.

ويجب على الحاج المبيت فى هذه الليلة بالمزدلفة عند الحنفية والشافعية والحنابلة ولا يجب عند الإمامية والمالكية، ولكنه الأفضل، وفيها يجب الوقوف بالمشعر الحرام بعد طلوع الفجر عند الإمامية والحنفية، ومن المزدلفة يأخذ الحاج سبعين حصاة- استحباباً- ليرمى الجمرات فى منى.

ثم يتجه الحاج إلى منى قبل طلوع الشمس من يوم العيد، فيرمى جمرة العقبة متمتعاً كان، أو قارناً، أو مفرداً، ويرميها بين طلوع الشمس وغيابها، ويكبّر، ويسبّح عند الرمى- استحباباً-.

ثم يذبح، إن كان متمتعاً، غير مكى بالاتفاق، ولا يجب على المفرد بالاتفاق، ولكن يستحب، أما القارن فيجب عليه الذبح عند الأربعة (۱)، ولا يجب عليه عند الإمامية إلّاإذا صحب معه الأضحية وقت الإحرام، وإذا تمتع المكى وجب عليه الذبح عند الإمامية، ولا يجب عند بقية المذاهب.

ثم يُحلق أو يُقصّر- متمتعاً كان أو قارناً أو مفرداً- ويحلّ له بالحلق والتقصير ما حرم عليه إلّاالنساء عند الحنابلة والشافعية، وإلّا النساء والطيب عند الإمامية والمالكية.

ثم يعود إلى مكة فى نفس اليوم، أى يوم العيد، فيطوف طواف الزيارة، ويصلى ركعتيه، ويسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط، ثمّ يطوف طواف النساء ويؤدى ركعتيه، وبه تحلّ النساء، وهو ما عليه الإمامية.

ثم يعود إلى مِنى فى نفس اليوم العاشر، ليبيت فيها ليلة الحادى عشر، ويرمى

۱- ۱ نقصد المذاهب الإسلامية الأربعة غير الإمامية وهى: الشافعية والمالكية والحنبلية والحنفية.

ص: ۱۸۴

الجمار الثلاث عند زوال الشمس إلی غروبها.

ثم يفعل فی اليوم الثانی عشر ما فعل بالأمس.

وله أن يترك مِنی قبل غروب هذا اليوم بالاتفاق، وإن دخل الغروب، وهو فيها وجب عليه المبيت ليلة الثالث عشر، ورمی الجمار الثلاث فی هذا اليوم، وبعد الرمی يعود إلی مكة ويطوف طواف الوداع (۱).

---

۱ – ۱ راجع، اللمعة الدمشقية، كتاب الحج، افعال الحج ۱: ۱۷۹ فما بعدها. وكتاب الحج علی مختلف المذاهب، محمد جواد مغنية: ۱۴۹– ۱۵۵، وشرائع الإسلام فی مسائل الحلال والحرام، المحقق الحلی ج ۱، كتاب الحج، باب أفعال الحج والعمرة.

ص: ۱۸۵

الحجر الأسود فی الركن

ص: ۱۸۶

أفعال الحج الإسلامی

اشارة

تُقسّم أفعال الحج فی الإسلام إلی واجبات والی أرکان:

فالواجبات، هی:

۱- الإحرام: ولابدّ فیه من النیّة وهو أن یقصد بقلبه إلی أمور أربعة: ما یحرم به، من حجّ أو عمرة متقرباً.. ونوعه من تمتّع أو قِران أو إفراد.. وصفته من وجوب أو ندب.. وما یحرم له من حجة الإسلام أو غیرها (۱).

۲- الوقوف بعرفات من زوال الیوم التاسع حتی الغروب.

۳- المبیت بالمشعر الحرام: ینصرف من عرفة بعد غروب الشمس لیلة العید، الی المشعر مقتصداً فی سیره داعیاً إذ بلغ الکثیب الأحمر، ویکون بالمشعر لیلًا إلی طلوع الشمس، واقفاً أم نائماً، ویستحب إحیاء تلک اللیلة (۲).

۴- مناسک مِنی ویکون یوم العید؛ لیقوم بالمناسک الخاصة بمِنی وهی ثلاثة واجبات: الرمی والذبح والحلق أو التقصیر. ویجب علیه المبیت فی منی لیلتی أو ثلاثة لیالٍ، مقروناً بالنیة المشتملة علی قصده فی النسک المعیّن بالقربة بعد تحقّق الغروب... ویرمی الحجرات الثلاث نهاراً فی کلّ یوم یجب مبیت لیلته، ولو بات بغیر الرمی فعن کلّ لیلة شاة (۳).

* الرمی: وهی من الواجبات ومن مناسک مِنی ویکون البدء بجمرة العقبة؛ ویکون الرمی بالحصی التی جمعها من المشعر (۴).

* ذبح الهدی: وتقسیمه ثلاثة أقسام، یجب التصدق بثلثه لبعض المؤمنین،

۱- ۱ شرائع الإسلام ۱: ۲۴۵.

۲- ۲ اللمعة الدمشقیة، کتاب الحج: ۱۹۱.

۳- ۳ اللمعة الدمشقیة: ۲۰۰، وشرائع الإسلام: ۲۷۴ وما بعدها.

۴- ۴ المصدر السابق: ۱۹۵.

ص: ۱۸۷

وإهـداء ثلثه لبعضٍ آخر، ويأكـل من الثلث الأخـير، وذبـح الهـدى واجبٌ على المتمتع ولا يجب على غيره (۱). ووقته بمنى أربعـة أيام أولها يوم النحر (۲).

* حلق الرأس أو التقصـير: فإذا فرغ من الذبح، فهو مخيّر، إن شاء حلق، وإن شاء قصّـِر، والحلق أفضل للرجل فى حج الصرورة وللمرأة التقصير. ويجب تقديم الحلق أو التقصير على زيارة البيت لطواف الحج والسعى. ولو قدّم ذلک عامداً، جبره بشاة (۳).

۵- طواف الحج وهو سبعة أشواط.

۶- صلاة ركعتى الطواف.

۷- السعى سبعة أشواط بين الصفا والمروة.

۸- طواف النسـاء: وطواف النساء واجب فى الحـج والعمرة المفردة دون المتمتع بها، وهو لازم للرجال والنساء والصبيان والخناثى (۴). وهو سبعة أشواط حول البيت الحرام (۵).

۹- صلاة ركعتى طواف النساء: وهى كركعتى الطواف الركنى، فى الصورة والكيفية. ويأتى بها بعد الطواف. ولا تصح قبله.

وأما الأركان فهى:

۱- الإحرام ۲- التلبية ۳- الوقوف بعرفة ۴- الوقوف بالمشعر الحرام ۵- الطواف ۶- السعى ۷- الترتيب بين الأفعال (۶).

۱- ۱ اللمعة الدمشقية، مصدر سابق، وشرائع الإسلام، مصدر سابق: ۲۵۹، وما بعدها.

۲- ۲ شرائع الإسلام: ۲۹۴.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۶۴ وما بعدها، واللمعة الدمشقية: ۱۹۸.

۴- ۴ شرائع الإسلام: ۲۷۱.

۵- ۵ المصدر السابق.

۶- ۶ انظر المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ج ۲، باب الحج: ۱۶۱.

ص: ۱۸۸

يقول المحقق الحلی: «وأیُّ رکن من هذه الأرکان من ترکهُ عامداً بطل حجّه، ومن ترکه ناسیاً قضاه، ولو بعد المناسک» (۱).

فالأرکان إذن هنّ أساس صحهٔ الحج، وأی خطأ أو إشکال أو تقصیر أو نسیان وغیره یوجب علی الحاج إما الاستئناف أو القضاء، وهنا نحاول تفصیلها قدر الإمکان:

۱- الإحرام وهو لبس اللباس الخاص بالحج، أی الزی الموحد للمسلمین فی

هـذا الموسم، وهو عبارهٔ عن ثوبین غیر مخیطین مما یجوز لبسه فی الصـلاهٔ یأتزر بأحـدهما ویشـتمل بالآخر بالنسـبهٔ للرجال، أما للنساء فیجوز لهن لبس المخیط مما یستر البدن جمیعاً عدا الوجه والکفین، ویکون الإحرام من أحد المواقیت، أی الأماکن التی عینها الرسول صلی الله علیه و آله لأهل المـدن القادمین لأداء فریضـهٔ الحج، ولا یجوز الإحرام قبل المواقیت أو بعدها إلّافی حالات اسـتثنائیهٔ کالنذر ونحوه، وتشیر الی هـذا روایهٔ الإمام الصادق علیه السـلام: «لیس ینبغی أن یحرم دون الوقت الذی وقّته رسول اللَّه صـلی الله علیه و آله إلّاأن یخاف فوت الشهر فی العُمرهْ» (۲).

فـإذا تعـدی المیقـات دون أن یُحرم منـه «لم یصـح إحرامه، حـتی یعـود إلی المیقـات ویحرم منه، ولـو افـترض أن تعـذر علیه الرجـوع والإحرام من المیقات بعد أن ترکه عمداً لمیصحإحرامه وفاقاًللمشهور، بل ربما یفهم من غیر واحد عدم الخلاف فیه» (۳).

والمواقیت التی وقتها الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله والتی لا یجوز للحاج تعدیها إلّاوهو (مُحرم) هی:

۱- ۱ علل الشرائع، المحقق الکاشانی ۱: ۲۰۲.

۲- ۲ التهذیب ۱: ۴۶۱.

۳- ۳ الجواهر ۱۸: ۱۰۲.

ص: ۱۸۹

* میقات وادی العقیق: ویبعد عن مکهٔ (۱۰۰) کم تقریباً، وهو میقات أهل العراق، ونجد، وکلّ من کان طریقه به إلی مکهٔ.

* میقات یلملم: ویبعد عن مکهٔ (۹۴) کم، وهو میقات أهل الیمن ومن مرّ به.

* میقات قرن المنازل: ویبعد عن مکهٔ (۹۴) کم، وهو میقات أهل الطائف، ومن مرّ به.

* میقات الجحفهٔ: ویبعد عن مکهٔ (۱۸۷) کم، وهو میقات أهل مصر والشام ولمن مرَّ به.

* میقات ذو الحلیفهٔ: وهو مسجد الشجرهٔ، ویبعد عن مکهٔ (۴۹۲) کم وهو میقات أهل المدینهٔ، ولمن مرَّ به.

* أما الذی کان منزله فی مکهٔ أو من مکان بین المیقات وبین مکهٔ فمیقاته من منزله، أی یحرم من منزله (۱).

۲- التلبیهٔ: وهی الرکن الثانی من الأرکان، حیث لا ینعقد الإحرام لمتمتع

۲- التلبیهٔ: وهی الرکن الثانی من الأرکان (۲)، حیث لا ینعقد الإحرام لمتمتع

ولا ـ لمُفرد إلّابها، وبالإشارهٔ للأخرس مع عقـد قلبه. والقارِن بالخیار، إن شاء عقـد إحرامهبالتلبیـهٔ، وإن‌شاء قلّـد أو أشـعر علی الأظهر، و بأیهما بدأ کان الآخر مستحباً (۳).

وصورهٔالتلبیـهٔ: «لبیـک اللهم لبیـک، لبیک لا شـریک لک لبیک» وقیل یضـیف الی ذلک، «إنّ الحمـد والنعمـهٔ لک والملک لک، لا شریک لک» وقیل بل یقول: «لبیک اللهم لبیک، لبیک إن الحمد والنعمهٔ والملک لک، لا شریک لک لبیک» والأول الأظهر (۴).

۱- ۱ انظر شرائع الإسلام، باب الحج، المواقیت، واللمعهٔ الدمشقیهٔ، باب الحج، المواقیت.

۲- ۲ المحجهٔ البیضاء، الفیض الکاشانی ۲: ۱۶۱.

۳- ۳ المصدر السابق: ۲۴۵- ۲۴۶.

۴- ۴ المصدر نفسه.

ص: ۱۹۰

۳- ۴- الوقفان: وهما ركنان واجبان بالاتفاق:

أ- الوقوف بعرفة

وعرفات جبل، وحدوده من بطن عرنة وثوبة ونمرة إلى ذى المجاز، وهذه هى أسماء الأماكن الجغرافية المحيطة بعرفات. ويجزى الوقوف فى هذه الحدود الجغرافية بالاتفاق، ففى صحيحة معاوية بن عمّار عن الإمام الصادق عليه السلام قال: إنّ رسول‌اللّه صلى الله عليه و آله وقف بعرفات فى مسيرة الجبل، فلما وقف جعل الناس يبتدرون اخفاف ناقته فيقفون إلى جانبه، فنحّاها، ففعلوا مثل ذلك، فقال: أيها الناس إنه ليس موضع اخفاف ناقتى الموقف، ولكن هذا كلّه موقف، وأشار بيده إلى الموقف (أى جبل عرفات) وفعل مثل ذلك فى المزدلفة» (۱).

ب- الوقوف فى المشعر الحرام

ويسمى «المزدلفة» وأجمع الفقهاء على وجوب الوقوف فيه؛ لقوله تعالى فإذا أفضتم من عرفات فاذكروا اللّه عند المشعر الحرام واذكروه كما هداكم وإن كنتم من قبله لمن الضالين* ثم أفيضوا من حيث أفاض الناس واستغفروا اللّه إنّ اللّه غفورٌ رحيم (۲)

.ويقع المشعر أو المزدلفة ما بين المارين إلى وادى محسر، وهو أقرب من عرفات إلى مكة، وكلّ هذه المساحة من الأرض موقف واحد. ويكون الوقوف الشرعى فى المشعر الحرام بالتواجد فى ذلك المكان مع نية القربة لوقت شرعى محدد. ويقسّم الفقهاء الوقت الشرعى إلى قسمين:

الأوّل: الوقت الاختيارى، وهو لغير النساء والصبيان ممن لا عذر له فى التأخير، ويتحدد ما بين الطلوعين من يوم العيد وهو اليوم العاشر من ذى الحجة،

۱- ۱ الكافى ۱: ۲۹۳.

۲- ۲ البقرة: ۱۹۸- ۱۹۹.

ص: ۱۹۱

أی طلوع الفجر وطلوع الشمس، بشرط أن يستوعب الوقوف هذه الفترة بكاملها.

والثانی: الوقت الاضطراری، وهو وقت النساء والصبيان، ولمن له عذر يمنعه من الوقوف بين الطلوعين، ويمتد من طلوع الفجر إلی زوال الشمس فی يوم العيد.

ويستحب التقاط حصی الجمار من المشعر، والاحتفاظ بها إلی مِنی عند الرمی وعددها سبعون حصوة (۱).

۵- الطواف: والطواف ركن من أركان الحج المهمة لقوله تعالى وليطوفوا

بالبيت العتيق (۲)

. وقوله تعالی أيضاً: وطهر بيتی للطائفين والقائمين والركع السجود (۳)

.ومن سنن الطواف: الاغتسال، وتطيب الفم بالأذخر وهو نبات طيب الرائحة، ودخول المسجد الحرام من باب شيبة، ورفع اليدين عند رؤية البيت، والتكبير والتهليل والدعاء بالمأثور. وقد ورد فی الروايات: «من دخل مكة بسكينة غفر له ذنبه» (۴).

ويكون الطواف ابتداءً بالحجر الأسود والاختتام به، وأن يجعل البيت علی يساره حال الطواف، لا علی يمينه، غير مستقبل أو مستدبر، ولو فی خطوة واحدة، وأن يُدخِل فی الطواف حجر اسماعيل، ويتم سبعة أشواط بلا زيادة و لا نقصان، إجماعاً وللنصوص المستفيضة بل المتواترة (۵).

۱- ۱ اللمعة الدمشقية، كتاب الحج: ۱۹۲ ج ۱، والمحجة البيضاء، كتاب الحج الوقوف بالمزدلفة.

۲- ۲ الحج: ۲۹.

۳- ۳ الحج: ۲۶.

۴- ۴ من لا يحضره الفقيه ۱: ۷۳.

۵- ۵ الجواهر ۱۹: ۲۹۵.

ص: ۱۹۲

وعند الانتهاء من الطواف ینبغی للحاج أن یصلی رکعتی طواف الفریضة خلف مقام إبراهیم علیه السلام، للنصّ القرآنی: واتخذوا من مقام إبراهیم مصلی (۱)

.وبذلک «یستدل علی أنّ صلاة الطواف فریضة مثل الطواف؛ لأنّ اللّه أمر بذلک، والأمر فی الشرع یقتضی الایجاب، ولیس ههنا صلاة یجب أداؤها عنده غیر هذه» (۲).

۶- السعی بین الصفا والمروة: ویأتی بعد الطواف ورکعتیه فی العمرة

والحج بأنواعهما الثلاثة، والسعی بین الصفا والمروة من شعائر اللّه تعالی، حیث قال جلّ قوله: إنّ الصفا والمروة من شعائر اللّه فمن حجَّ البیت أو اعتمر فلا جناح علیه أن یطوّفَ بهما ومن تطوّع خیراً فإنَّ اللّه شاکرٌ علیم (۳)

.وجاء فی صحیحة معاویة بن عمار عن أئمة أهل البیت علیهم السلام: «إذا فرغت من الرکعتین فاتِ الحجر الأسود، فقبله واستلمه وأشر إلیه، فإنه لابد من ذلک. وإن قدرت أن تشرب من ماء زمزم قبل أن تخرج إلی الصفا فافعل...» (۴).

«... ثم اخرج إلی الصفا عن الباب الذی خرج منه رسول اللّه صلی الله علیه و آله وهو الباب الذی یقابل الحجر الأسود حتی تقطع الوادی وعلیک السکینة والوقار...» (۵).

ویتحقق السعی بنیة القربة إلی اللّه تعالی أولًا، ثم الابتداء بجبل الصفا، ثم الاختتام بجبل المروة، ویکون السعی بینهما سبعة أشواط أی أن یکون ذهابه شوطاً، وعوده شوطاً آخر. ولا تجب الموالاة بین الأشواط، فیجوز الاستراحة

۱- ۱ البقرة: ۱۲۵.

۲- ۲ فقه القرآن، الراوندی ۱: ۲۷۳.

۳- ۳ البقرة: ۱۵۸.

۴- ۴ الکافی ۱: ۲۸۴.

۵- ۵ التهذیب ۱: ۲۸۴.

ص: ۱۹۳

قبل إتمام السعى، أو الصلاهٔ الواجبهٔ أو نحوها. ويجوز السعى ماشياً أو راكباً (۱).

السعى بين الصفا والمروهٔ

۷- الترتيب بين الأفعال: اعتبره بعضهم ركناً واجباً من أركان الحج

كالفيض الكاشانى وغيره (۲)، والترتيب: هو أن يأتى بكل فعل من أفعال الحج حسب ما عينه رسول اللّه صلى الله عليه و آله، لا يقدم ولا يؤخر، أى لا يأتى مثلًا بالسعى بين الصفا والمروهٔ قبل الوقوفين أو الطواف وهكذا...

تروك الإحرام للحج

۱- ۱ اللمعهٔ الدمشقيهٔ، باب الحج، السعى.

۲- ۲ وكذلك جاء فى اللمعهٔ الدمشقيهٔ، مراعاهٔ الترتيب، أى يبدأ بطواف الحج وركعتيه، ثم السعى، ثم طواف النساء، ثم ركعتيه، وهكذا، راجع اللمعهٔ الدمشقيهٔ، كتاب الحج: ۲۰۰.

ص: ۱۹۴

یترتب علی الإحرام للحج (۱) تروک، منها محرمات ومنها مکروهات، أما المحرمات فهی عشرون أمراً، وأما المکروهات فعشرة (۲). وبیانها کالآتی:

۱- ۲- حرمة الفسوق والجدال، لقوله تعالی: فمن فرض فیهن الحج فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فی الحج (۳)

. ۳- حرمة الجماع والاستمتاع بشتی أنواعه، لقوله تعالی فلا رفث.

۴- حرمة التطیب وشم الطیب.

۵- حرمة الاکتحال بالسواد.

۶- حرمة صید البر.

۷- حرمة لبس السلاح.

۸- حرمة قص الاظفار.

۹- حرمة قطع الشجر والحشیش.

۱۰- حرمة إزالة الشعر، قلیله وکثیره. ومع الضرورة لا إثم.

۱۱- حرمة التظلیل للرجال وجوازه للنساء.

۱۲- حرمة قتل هوام الجسد، کالقمل والقراد وغیرها.

۱۳- حرمة إخراج الدم إلّاعند الضرورة، وقیل: یکره، وکذا قیل: فی حک الجلد المفُضی إلی إدمائه، وکذا فی السواک، والکراهیة أظهر.

۱۴- وحرمة استعمال دهن فیه طیب، قبل الإحرام وبعده.

۱۵- حرمة عقد الزواج لنفسه ولغیره.

۱- ۱ وکذلک العُمرة.

۲- ۲ شرائع الاسلام، مصدر سابق: ۲۴۸.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

ص: ۱۹۵

۱۶- حرمهٔ لبس المخيط للرجال وفی النساء خلاف، والأظهر الجواز.

۱۷- حرمهٔ لبس الخفين وما يستر ظهر القدم. فإن اضطرّ جاز وقيل: يشقها.

۱۸- النظر فی المرآهٔ، علی الأشهر.

۱۹- وكـذلك يحرم لبس الخاتم للزينهٔ، ويجوز للسُـنهٔ. ولبس المرأهٔ الحلیّ للزينهٔ. وما لم يُعتد لبسه منه علی الأولی، ولا بأس بما كان معتاداً لها، لكن يحرُم عليها إظهاره لزوجها.

۲۰- يُحرم تغسيل الُمحرم لو مات بالكافور (۱).

هذا بالنسبهٔ للمحرمات علی الُمحرم، أما المكروهات فهی ما يلی:

۱- الإحرام فی الثياب المصبوغهٔ بالسواد والعُصفُر وشبيهه، ويتأكّد فی السواد.

۲- يكره النوم فيها.

۳- ويكره الإحرام فی الثياب الوسخهٔ وإن كانت طاهرهٔ.

۴- يكره لبس الثياب المُعلَمهٔ.

۵- يكره استعمال الحنّاء للزينهٔ.

۶- يكره النقاب للمرأهٔ علی تردد.

۷- يكره دخول الحمام.

۸- يكره تدليک الجسد فی الحمام.

۹- يكره تلبيهٔ من يناديه.

۱۰- يكره استعمال الرياحين (۲).

۱- ۱ شرائع الإسلام، كتاب الحج: ۲۴۹- ۲۵۱، واللمعهٔ الدمشقيهٔ. ج ۱: ۱۸۱/ ط مكتب الاعلام الإسلامی ۱۳۷۱.

۲- ۲ المصدر السابق: ۲۵۱- ۲۵۲، واللمعهٔ الدمشقيهٔ ۱: ۱۸۱.

ص: ۱۹۶

ص: ۱۹۷

ص: ۱۹۸

ص: ۱۹۹

الفصل الثامن: أهمية الحج فى الإسلام وأفضليته

أ- أهمية الحج فى الاسلام

اشارة

للحج فى الاسـلام أهمية عظمى، وهو فريضة وركن من أركان الدين الإسـلامى الحنيف، وركنيته ثابتة فى جميع المذاهب الإسـلامية، فقد جاء فى الحديث عن الرسول صـلى الله عليه و آله: «بُنى الإسـلام على خمس: شـهادة لا إله إلّااللَّه وأنّ محمداً عبده ورسوله، وإقام الصـلاة، وإيتاء الزكاة، وحج البيت، وصوم رمضان» (۱). وقد جاء عن الامام الصادق عليه السـلام قال: «بُنى الإسلام على خمسة أشياء: على الصلاة، والزكاة، والحج، والصوم والولاية...» (۲).

ولهـذا فقـد حظى هـذا الركن بأهميـة بالغة وعظيمة فى كلّ أبعاده المادية منها والمعنوية، الروحية والعملية، فى كلّ أحكامه ومناسـكه ومعارفه وآثاره النفسية- الفردية والاجتماعية- ولذا فإنّ الدين الإسلامى يحتم على المسلم فى قبول حجّه، أن لا يكتفى بمعرفة أحكام الحج ومناسكه ومواقفه وكيفيته فحسب، بل

۱- ۱ صحيح مسلم، بشرح الامام النووى ۱: ۱۷۷.

۲- ۲ وسائل الشيعة ۱: ۱۳.

ص: ۲۰۰

ينبغى له التعرف على ما يترتب على تلك المناسك من التزامات روحيـة وأخلاقية لنفسه ولغيره، وعندئذ سيكون الحج مظهراً يجسـد الايمـان الحقيقى عبادةً وعملًا وقولًا، وصورةً رائعـةً من صور الكمال الايمانى والجمال الروحى، التى لو طبقها الانسان المسـلم فى كلّ لحظات حياته لأصبح من عباد اللّه الُمخلصين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون.

إذن، فالحج يصنع من الانسان عبداً متكاملًا صافياً نقياً، فهو:

۱- يعمق ارتباط العبد باللّه تعالى.

۲- وهو عبادة وتربية.

۳- وهو مؤتمر عالمى يلتقى فيه المسلمون على ما بينهم من اختلافات.

۴- والحج باب لطف لغفران الذنوب.

۵- وهو يحقق المساواة.

ومع كـلّ ذلـك، فالحـج يرسم لنـا صورة مصـغرة ليوم الحشـر، وصورة لمناسـك الحيـاة بشـكل عـام... ويرسم لنـا جملـة من الفرائض المتعددة الأبعاد ترتبط بالحياة الفردية والسـلوكيات الاجتماعية التى تؤثر فى النفس والفكر الانسانى وتهبه، لو أدّاها على أكملها، سمة كمالية تميزه فى أبعاد حياته الخاصة والعامة.

إضافة إلى ذلك، فالحجّ فيض هدى ورشاد، وسـيل فوائد ومنافع، وسـياج عزة ومنعة، وتجسـيد وحدة الانسانية، وتحقق أسمى ما تصبو إليه البشرية، وأعلى ما تسعى إليه، من تطبيقات التحرر والمساواة، والعدالة والأمن والرخاء، والاستقرار والازدهار.

وقد جاء فى الحديث عن أهل البيت عليهم السلام: «من أراد دنيا وآخرة، فليؤم هذا البيت» (۱).

۱- ۱ غوالى اللّآلئ العزيزية، ابن أبى جمهور الاحسائى ۱: ۴۲۷، مطبعة سيد الشهداء، قم، ايران.

ص: ۲۰۱

الحجّ يعمّق الارتباط باللّه

قيمة الحج الكبرى أنه يربط الانسان باللَّه تعالى ربطاً لا مثيل له، فهو فى بيته، بين يديه، تحت رحمته...
وقيمته الكبرى أيضاً، إنما يُذكر الإنسان، هذا المخلوق الغارق فى مشاغل الدنيا، يُذكره بيوم الحشر، يوم يجتمع الناس ضعافاً شاخصين إلى ربّ عظيم، يرجون رحمته...
فالحاج يرى هـذه الجموع الغفيرة، خائفـةً جميعاً من بارئها، بسـبب ما ارتكبته من المعاصـى والـذنوب، وهى الآن فى بيته، تطلب العفو والتوبـة، هـذه الجموع التى هى ضـيوف خالق الخلق بارئ الكون فتأخـذها الرهبة والخوف، يزيدها المنظر خوفاً ورهبةً وارتباطاً وإيماناً وقرباً من اللَّه تعالى ..
لقد جاءت هذه الجموع برحلة الروح والجسد، زادها التقوى التى أمر بها اللَّه تعالى .. أولى القلوب الواعية والعقول الفذة، وقد وصفهم اللَّه تعالى بأنّهم: الذين يخشونَ ربّهم ثم تلين جلودُهم وقلوبُهم إلى ذكر اللَّه ذلك هُدى اللَّه يهدى به من يشاء (۱)
.فالحـاج بمجرّد أن يحسّ أنـه فى بيـت اللَّه، بيـت خـالقه وبـارئه، يكفيـه أن يعيش القرب الإلـهى، ثـم أصـوات الملـبين والمكـبرين والمهللين، تجعله يخشـى ويلين، والآيـة أعلاـه تقول ذلـك هو الهـدى أن يتـأثر الانسـان بموقف الجموع الغفيرة التى تعبُـد اللَّه وحـده مخلصـين له الـدين، تنادى باسـمه وتناجى للوصول إلى قربه، تطلب التوبة والغفران والعفو بأصوات عالية، وقلوب وجلة ودموع هامرة، هذا المنظر المهيب

۱- ۱ الزمر: ۲۳.

ص: ۲۰۲

يجعل فى شعوره عظمة اللّه وجلاله، ويجره إلى القرب من الخالق العظيم الكامل المتعال؛ ليستمد منه القوة والكمال لروحه وبدنه فى هذه الرحلة السنوية أو رحلة العمر...

فالحج ليس مجرّد حركات وأعمال وألفاظ يؤديها الحاج، بل هى تقرب الحاج الى صاحب البيت، إلى المضيّف الكامل والاتصال الروحى والنفسى والمعنوى به «إنّ فلسفة الحج هى رؤية صاحب البيت، ولابُدَّ من أن يوجّه الحركات والأعمال التى تؤدى هناك فى هذا السبيل» (۱).

صورة للطائفين والخاشعين

قال تعالى ويذكروا اسم اللّه فى أيام معلومات (۲)

۱- ۱ ميقات الحج، مجلة اسلامية، العدد الأول: ۷۱.

۲- ۲ الحج: ۲۸.

ص: ۲۰۳

وقال تعالى وطهر بيتى للطائفين والقائمين والركع السجود (۱)

.والحج إضافةً إلى ما ذكرنا يصقل النفوس ويعلمها التواضع ويزيل عنها ال (أنا)، يقول الإمام الصادق عليه السلام:

«ما للّهعزّوجلّ منسک أحبّ إلى اللّه من موضع السعى وذلک أنه يذل فيه کلّ جبّار عنيد» (۲).

الحج عبادة وتربية

الحج فى الإسلام ليس مجرّد عبادة وارتباط باللّه تعالى فقط، وإنما هو إضافة الى ذلک، سبيل إلى السلوک القويم والتربية الصالحة التى تصبّ فى طريق اللّه القويم...

وهو تربية لسلوک الفرد وتهذيب نوازعه، ففى الحج يتعود الحاج الصبر، وتحمل المشاق، وحسن الخلق، والتواضع، واللين، وحسن المحادثة، والکرم، والتعاطف، والامتناع عند الکذب والغيبة والخصومة والجدال والتکبر وغيرها، وتنمو عند الحاج الروح الاجتماعية...

قال تعالى فلا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الحج (۳)

.فکما جعل اللّه تعالى الکعبة قياماً للناس، فکذلک جعل لا رفث ولا فسوق ولا جدال فى الإحرام إليها... «وترک الرفث والفسوق والجدال کما نطق به القرآن، والرفث اسم جامع لکلّ لغو وخنى وفحش من الکلام ويدخل فيه مغازلة النساء (۴) ومداعبتهنّ والتحدث بشأن الجماع ومقدماته، فإن ذلک يهيج داعية

۱- ۱ الحج: ۲۶.

۲- ۲ وسائل الشيعة، العاملى ۲: ۳۲۹.

۳- ۳ البقرة: ۱۹۷.

۴- ۴ الخنى: الفُحش، والمغازلة: المحادثة والمراودة.

ص: ۲۰۴

الجماع المحظور والداعی إلی المحظور محظور، والفسوق اسم جامع لکلّ خروج عن طاعة اللّه، والجدال هو المبالغة فی الخصومة والمماراة بما یورث الضغائن ویفرق فی الحال المهمة ویتناقض وحُسن الخُلق، وقد جُعل فی الحدیث طیب الکلام مع إطعام الطعام من برّ الحج، والمماراة تناقض طیب الکلام، فلا ینبغی أن یکون کثیر الاعتراض علی رفیقه وجمّاله وعلی غیرهما من أصحابه، بل یلین جانبه، ویخفض جناحه للسائرین إلی بیت اللّه، ویلزم حُسن الخُلق، ولیس حُسن الخلق کفّ الأذی بل احتمال الأذی وقیل: سمّی السفر سفراً؛ لأنه یُسفر عن أخلاق الرجال، ولذلک قیل لمن زعم أنه یعرف رجلًا: هل صحبته فی السفر؟ فقال: لا، فقال: ما أراک تعرفه» (۱).

وقال اللّه تعالی جعل اللّه الکعبة البیت الحرام قیاماً للناس (۲)

.فالدین الإلهی متبلور فی المجاهدة لا غیر، وجهاد الأعداء قیام، والتسلیم لهم أو الفرار منهم قعود وعجز، فالقیام فی هذه الآیة یعنی المقاومة والاستقامة، لا الانتصاب البدنی... فجعل اللّه تعالی العامل الهام لقیام الناس هو جعل الکعبة یُستقبل إلیها، ویحجّ بمناسکها ویُطاف حولها و «النظرُ إلی الکعبةِ عبادة» (۳).

ویعدّ الحج میثاقاً وعهداً إلهیّاً یتشرف به العبد، حیث الدعوة من اللّه علی لسان خلیله ابراهیم علیه السلام وحبیبه محمد صلی الله علیه و آله، والتلبیة لهذه الدعوة تکون من العبد المطیع للّهوللرسول، فالحج بماله من أسرار ورموز عظیمة یورث الخلق العظیم، ومن هذه الأسرار والرموز، الدعوة للضیافة لبیت اللّه من الرب إلی العبد، والتلبیة من العبد إلی الربّ، ثم المراسم الخاصة والعامة التی یقوم بها العبد التی یعلم سرّها

۱- ۱ المحجة البیضاء، الفیض الکاشانی ط بیروت ۲: ۱۹۱- ۱۹۲.

۲- ۲ المائدة: ۹۷.

۳- ۳ وسائل الشیعة ۸: ۴۰.

ص: ۲۰۵

ويثيب على رمزها ومعانيها خالق العباد...

يقول الراغب الأصفهانی: جعل اللَّه الكعبة قياماً أی قواماً لهم يقوم به معاشهم ومعادهم» (۱).

ويُقال: إنّ من علامة قبول الحج ترك ما كان عليه من المعاصی، وأن يستبدل بإخوانه البطّالين إخواناً صالحين، وبمجالس اللّهو والغفلة مجالس الذكر واليقظة (۲).

الحج مؤتمر عالمی کبیر

لكی يكون المسلمون كتلة واحدة، كتلة قوية متماسكة، لابدّ من اجتماع كبير يجمع القاصی والدانی، والغنی والفقير، والعالم والجاهل، فالاجتماع على هذه الصورة الضخمة يعطی صورة كبيرة ومهمة، وجليلة لقوة الإسلام والمسلمين، وكلّ الاجتماعات الأخرى كاجتماع صلاة الجمعة والعيدين وغيرها من المناسبات لا تعادل ذلك الاجتماع الكبير العام، اجتماع الناس فی مكة المكرمة والكعبة الشريفة «بيت اللَّه» فی يوم الحج الأكبر.

إنّه يوم عظيم وفرصة نادرة ومزيدة لالتقاء المسلمين على اختلاف مللهم ونحلهم على أرض واحدة، وأی أرض؟! أرض مكة وفی بيت اللَّه بالذات، ولا يمكن تصور هذه الحالة إلّامؤتمراً عالمياً شاملًا كبيراً...

ولا شك أنّ لهذا المؤتمر الضخم دوراً آخر غير الأدوار المحلية الكثيرة، التی يعيشها المسلم ويمارسها فی حياته العامة، فمن خلاله يستطيع أن يرفع ظلاماته أمام الآخرين، أمام المسلمين أنفسهم، وأمام العالم كلّه فی الوقت نفسه...

۱- ۱ المفردات فی غريب القرآن، الأصفهانی: ۴۱۷.

۲- ۲ المحجة البيضاء، مصدر سابق: ۱۹۶.

ص: ۲۰۶

وكمثل على ذلك، القضية الفلسطينية ومأساتها الكُبرى وعبث الصهاينة في مقدسات المسلمين، فأي مكان أفضل من مكة والكعبة الشريفة أن تحمل هذه القضية وتنطلق منها إلى كلّ العالم؟! وأيُّ مكان أفضل من مكان الحج لعرض المسلمين مشاكلهم وتداولها من واحد إلى آخر؟!

وفي هذه الفرصة السنوية المقدسة يستطيع المسلمون طرح وجهات النظر الفكرية، والاجتهادات العبادية، وحلّ الخلافات الداخلية للتقريب بين المذاهب، ووجهات النظر المختلفة في سبيل خلق أمة متحابة متعاونة على البر والتقوى

ولذلك فستكون كلمة الحاج أقوى وأكثر تأثيراً في النفوس من أي كلمات انطلقت من مؤتمرات أو مناسبات أخرى .. وهذا ما يضفي على عمومية الحج نوعاً من الشمولية والعالمية والخصوصية ما لم نجدها في أي مؤتمر في الدنيا... فهو- مؤتمر الحج- فريد في نوعه وفي شعائره وأهدافه وغاياته ورموزه ومغازيه...

الحج باب لطف للتوبة وغفران الذنوب

ألطاف اللَّه تعالى أكثر من أن يتصورها إنسان، وأن يستوعبها عقله القاصر... وهنا نقف على بابٍ عظيم من أبوابه وهي: باب غفران الذنوب، وباب التوبة، وإحدى جادات هذا الباب وأعظمها هي جادة الحج الأكبر، وقد كثرت الأحاديث والروايات عن الرسول صلى الله عليه و آله وعن آله الأطهار في هذا المجال، فقد جاء عن الرسول صلى الله عليه و آله، أنه قال: «أعظم الناس ذنباً من وقف بعرفة، وظنَّ أنّ اللَّه لم يغفر له» (۱).

هذا الحديث يؤكّد حتمية غفران ذنوب من دعا اللَّه الغفران على أرض وجبل عرفات.

۱- ۱ الفقيه ۲: ۱۳۷ ح ۵۸۷، والوسائل ۱۳: ۵۴۷، ح ۱۸۴۰۷.

ص: ۲۰۷

وقال الإمام على عليه السلام فى حتمية غفران ذنوب الحاج فى الحج: «من حجَّ ولم يرفث ولم يفسق خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه» (۱).

وعن الرسول صلى الله عليه و آله يبين أقل ما يحصل عليه الحاج، يقول صلى الله عليه و آله: «من أيسر ما يعطى مَنْ ينظر إلى الكعبة أن يعطيه اللَّه نظرة حسنة وتمحى عنه سيئة، وترفع له درجة» (۲). وأيضاً: «لا يزال على الحاج نور الحج ما لم يذنب» (۳).

وعن الإمام الباقر عليه السلام فى تفسير قوله تعالى ففروا إلى اللَّه إنّى لكم منه نذير مبين قال عليه السلام: يعنى: «حجّوا إلى اللَّه» (۴). واستغفروا ذنوبكم، وقال الإمام على عليه السلام: «ما من مُهلٍّ بالتلبية إلّاأهلَّ من عين يمينه من شىء إلى مقطع التراب ومن عن يساره إلى مقطع التراب، وقال له الملكان ابشر يا عبداللَّه وما يبشّر اللَّه عبداً إلّا بالجنة، ومن لبّى فى إحرامه سبعين مرّةً إيماناً واحتساباً أشهد اللَّه له ألف ملك ببراءة من النار وبراءة من النفاق، ومن انتهى إلى الحرم فنزل واغتسل وأخذ نعليه بيده، ثمَّ دخل الحرم حافياً تواضعاً للَّهعزّوجلّ محا اللَّه عنه مائة ألف سيئة، وكتب اللَّه له مائة الف حسنة، وبنى له مائة ألف درجة، وقضى له مائة الف حاجة، ومن دخل مكة بسكينة غفر اللَّه له ذنبه، وهو أن يدخلها غير متكبر ولا متجبر، ومن دخل المسجد حافياً على سكينة ووقار وخشوع غفر اللَّه له، ومن نظر إلى الكعبة عارفاً بحقها غفر اللَّه له ذنوبه وكفى ما أهمّه» (۵).

وهناك روايات كثيرة تؤكد أنّ الحج هو خير مكان لغفران الذنوب ومحوها،

۱- ۱ غوالى اللآلئ العزيزية، ابراهيم الاحسائى ۱: ۴۲۶ ح ۱۱۳، مطبعة سيد الشهداء، قم، ايران، والمستدرك، كتاب الحج، باب ۲۴ من أبواب وجوب الحج وشرائطه.

۲- ۲ وسائل الشيعة ۹: ۳۶۵.

۳- ۳ سفينة البحار ۱: ۲۱۱، الشيخ عباس القمى.

۴- ۴ المصدر نفسه.

۵- ۵ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانى ۲: ۱۴۸.

ص: ۲۰۸

يطيل بنا الحديث لذكرها...

وما أحوجنا- نحن البشر المذنبين- إلى اللجوء إلى هذا المكان العظيم الذى يطهرنا ويزكينا... إلى المكان الذى تظِلِلُهُ القدسية والنفحات السماوية... وأبواب اللطف الإلهية، نتقرب فيها ونطلب العفو والتوبة والغفران ونتوجه ونتوسل وندعو ونلحُ بالدعاء فى فرصة العُمر الثمينة.

الحج مظهر لوحدة الأُمة وأخوّتها

الحاج يشعر أنه يتقرب إلى اللَّه تعالى بعبادة جماعية مع إخوانه المسلمين التى تربطه وإياهم رابطة الدين والانسانية، وهذا يعنى أنّ الحج يلغى الامتيازات والمفاخرات الشخصية والقومية، ويجمع الأمة فى إطارٍ واحدٍ، ويظهرهم بمظهرٍ واحدٍ وأفعالٍ واحدةٍ وأعمالٍ مشتركةٍ، وتحت لواءٍ واحدٍ، لواء التوحيد والعبودية للَّه الواحد لا شريك له، فكلّهم يرددون: «لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك».

وهذه العبادة الجماعية والشعبية تجمع الملك والخادم، السيد والعبد، الغنى والفقير، الأبيض والأسود، الطويل والقصير، تجمعهم كلّهم تحت راية لا- إله إلّااللَّه محمد رسول اللَّه والقرآن كتاب اللَّه... كلّ هذه المشتركات تجمعهم فى أحبّ بقاع اللَّه إلى اللَّه تعالى «إن الأرض برحبتها مسجد طهور... وكان الانسان من أقدم الدهور يعبد اللَّه سبحانه فى أى قطر من أقطار الأرض كان، إلّاأنّ أول موضع اختصّ للتعبد الشعبى والخضوع الجماعى للَّههو البيت الذى قد أُسس فى مكة المكرمة على التوحيد، حيث قال تعالى إنّ أول بيت وضع للناس......» (۱).

۱- ۱ الحج حكمة ورموز، تحقيق: مظفر الاسلام خان، المعهد الاسلامى- لندن: ۳۳، بحوث الندوة الدولية عن الحج، عام ۱۹۸۲.

ص: ۲۰۹

وعلى هـذا يكون مكـان الحـج الإسـلامى من أفضل المقـدسات الاسـلامية لاجتماع الأخوة والغرباء والبعـداء المسـلمين؛ لأنّ مناسـكه وشعائره وتعاليمه تساوى فيما بينهم، وتجعلهم كتلة واحدة فى الحقوق والواجبات... و «الإطار الاجتماعى لأعمال الحج ومناسكه، يدفع الأفـراد نحو التماسـك والتعـاون الـذى يتحول لاحقاً لبنـةً من لبنات الدولـة الإسـلامية العالميـة، ولا شك أنّ النشاطات الشـرعية للحج الإسـلامى إنما تساعد جميع الأفراد على كسـر طوق الانعزال الاجتماعى والغربة الانسانية التى نلاحظ مساوئها النفسية فى عالم اليوم...» (۱).

ومناسك الحـج هى مناسك الحياة، وعلى الأُمـة الإسـلامية بمختلف قومياتها أن تصـبح إبراهيميـة؛ لتلتحق بركب أُمة محمد صلى الله عليه و آله وتكون واحدة ويداً واحدة (۲).

فالحج الإسـلامى يولد شـعوراً لدى الفرد الإسـلامى الحاج المندمج بمناسـكه وأفعاله بالوحدة الكونية للخلق والمخلوقات، ويشعره أنّ الخلق كلّهم خلقوا لهـدف واحـد وغايـة واحدة، عندما يرى الكلّ يطوف ويدور ويسـعى وينحر ويتحرك طائعاً لخالقه، وكأن الموقف يوحى إليه أنّ خلق اللّه قد حشروا جميعهم للحساب والجزاء.

الحج يحقق المساواة

خُلق الانسـان اجتماعيـاً، يحب أبنـاء جنسه، فهو اجتماعى بالفطرة، يحب الاختلاط مع نظائره، ولا يتحقق هـذا الأمر إلّابسـقوط الفوارق الوضـعية، وبسـقوطها يأنس مع من تساوى معهم فى الملبس والمنطق والـدين والعقيـدة، ويأنس أكثر عنـدما يتساوى معهم بالغُربة عن الأهل والوطن، بعيداً عن تربته

۱- ۱ الأبعاد الاجتماعية لفريضة الحج د. زهير الأعرجى: ۱۴۱.

۲- ۲ ميقات الحج/ مجلة إسلامية العدد ۱: ۷۱.

ص: ۲۱۰

ومأواه، يلقى الـذى ينـاظره، متجهـاً إلى مقصـدٍ يقصـده هو أيضـاً، مـدعواً من قِبل ربّ العزةِ والجبروت، خالق الخلق، جبار السـموات والأرض، إلى بيته؛ ليساويهم فى المظهر والجوهر، ليغفر ذنوبهم ويكفّر عنهم سيئاتهم ويجعل فيهم القوة والغلبة أمام أعدائه وأعدائهم، ولينصرهم أمام شياطين الإنس والجن...

والحج خير دورة تدريبية إنسانية، تدرب المسـلم على روح المساواة والشعور بالتواضع، والتخلى عن الأنا، فهو فى هذه الدورة لا يلبس ملبساً أفضل من ملبس اخوانه المسـلمين، ولا يتحـدث بألفاظ أفضل وأبلغ منهم، فالـذكر والتلبيـة يتلفظها الجميع بلغة واحدة، ولا ينظر إلى فخامـة بيته وسـيارته فهو يهرول على رجليه، حاله حال البقية، بعيداً عن الكرسـى والمنصب والجاه والأموال والبنين والزخارف وما إلى ذلـك ممـا يميزه عنهم... هـا هو يتسـاوى معهم، ويـا ليته يتخرّج من هـذه الـدورة المكثفـة فى تعاليمها وتربيتها، وهو يحمل روح العمـل والتطبيق بما أخـذ من المفاهيم فى (الـدورة الإلهيـة)، هـذا ما يقرّره الحاج نفسه أن يختار تطبيق تعاليمها أو يضـربها عرضاً كأنّ شيئاً لم يكن، يخرج منها صـفر اليدين، ويرجع إلى ما فرضـته الحياة عليه من المغريات واللذات، وما كان عليه قبل أدائه لهذه الفريضة العظيمة... وما كان عليه من التكبر والغرور والتمييز والعنصرية وما إلى ذلك...

وفى الحج يتحقق مفهوم الآية الكريمة: يا أيها الناس إنّا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شـعوباً وقبائل لتعارفوا إنّ أكرمكم عند اللّه اتقاكم (۱)

.وعلى هـذا تتحقق المساواة الحقيقيـة فى الحـج، ولعلّه أفضل مكان لهـذه المساواة التى تفتقر إليها كثير من الشـعوب، فالحاج المسـلم يشـعر بـأروع مظـاهر المسـاواة والتواضع والأخوة والإنسانيـة بإلغاء الفوارق والأزياء وخلع أسـباب الظهور الاجتماعى، والظهور باللباس العبادى الموحد، حيث يحسّ الجميع بوحدة النوع

۱- ۱ الحجرات: ۱۳.

ص: ۲۱۱

الانسانى، وإسقاط الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع البشرية: الإقليمية، والقومية، والعنصرية، فهم اليوم متساوون فى كلّ شىء، فى التكاليف والواجبات، وفى كلّ الفعاليات لا فرق بينهم، سوى القبول وعدم القبول التابع لنية الحاج وقصده فى الحج.

ب- أفضلية الحج فى الإسلام

اشارة

على الرغم من أنّ الحج فريضة من الفرائض الإسلامية الكبيرة، وفرع ضمن عدد من فروع الدين العديدة، من يؤده يؤدِ واجباً إسلامياً عظيماً، يكسب به جنان اللَّه تعالى ومرضاته، ومع كلّ ذلك، يمتاز الحج على غيره من الفرائض والفروع بمميزات كثيرة ذكرنا بعضها فى فصول سابقة، وستأتى أيضاً فى ثنايا الفصول اللاحقة بإذنه تعالى ..

وقد وردت روايات وأحاديث شريفة كثيرة تفضله على كثير من الفرائض...

روايات فى أفضليته على أهم فريضتين إسلاميتين هما الصلاة والصوم، وروايات وأحاديث أخرى تؤكد أن الذى يحج إلى بيت اللَّه العتيق، تعتق رقبته من نار جهنم وما أدراك ما نار جهنم، وإنّ هذه الفريضة... إضافة إلى الثواب الأخروى تضع المكلف فى موضع كريم فى الحياة الدنيا، فتخرجه من حالة الفقر، الحالة التى قد تؤدى إلى الكفر كما ورد فى الروايات الشريفة، تُخرجه إلى حالة الغنى ..

وبالتالى فالحج كما ورد فى الروايات أفضل تجارة يتاجر بها الانسان مع ربّه ليشترى بها الدنيا والآخرة، وأى تجارة أفضل من التجارة مع اللَّه عزّوجلّ؟! وأى ربح سيقدمه البارى تعالى إلى الذاهب لبيته الطالب عفوه ورضوانه وجنته ونعيمه الأبدى الخالد؟!

ص: ۲۱۲

الحج تجارة حقيقية... بل هو أعظم فرصة لمن يريد التجارة، ويريد المزيد...

فهى تجارة أخروية تبعده عن مشاكل التجارة الدنيوية وحلالها وحرامها ومشاكلها وشبهاتها التى لم يسلم منها تاجر دنيوى طالب لها حتى وإن جهد فى تجنب مزالق الخطأ والحرام... إنّ طمع الدنيا قريب من القلوب يجرّ الإنسان جرّاً إليه، ويبعده عن ربّه...

فما بالنا وباب التجارة مع اللَّه العلى القدير مفتوح على مصراعيه؟! وما بالنا لا ندخله، من خلال الذهاب إلى بيته وحضرته وألطافه التى لا تُعدّ ولا تُحصى !

لقد جاء الحج رحمة إلى عباد اللَّه... فهو دنيا وآخرة... وهو حقّ ونور وأفضل من كثير من عبادات اللَّه تعالى بل يجمع بين كلّ العبادات المكلف بها الإنسان فى حياته، وقد ثبت ذلك فعلًا وعملًا، وبالنصوص والروايات والأحاديث الكثيرة الواردة الينا وليس ذلك كلاماً خرافياً...

ومن هنا تميز الحج عن غيره من العبادات، ومن هنا جاءت أفضليته وفضيلته وإشعاعه الوهاج الذى غطّى على كثير من الفرائض الإسلامية والواجبات الدينية فهو:

١- أفضل من الصلاة والصوم، كما نصّت الروايات على ذلك.

٢- وهو يعتق الرقبة من النار.

٣- ويُخرج المكلف من الفقر وآفاته.

۴- وهو أفضل تجارة يتاجر بها العبد مع ربّه وخالقه.

وسنأتى على تفصيلها واحدة واحدة إن شاء اللَّه...

الحج أفضل من الصلاة والصوم

الصلاة والصوم من الأركان المهمة فى الإسلام ومن مبانى الدين الإسلامى

ص: ۲۱۳

وقواعده، فقد جاء فی الأحادیث الشریفهٔ والروایات عن الصلاهٔ، أنها عمود الدین وعصام الیقین وسیدهٔ القربات وغُرّهٔ الطاعات إن قُبلت قُبِلَ ما سواها وإن رُدت رُدّ ما سواها، وجاء عن الصیام أنه تمیز بخاصیهٔ النسبهٔ إلی اللّه تعالی من بین سائر الأرکان الدینیهٔ الإسلامیهٔ، إذ قال اللّه تعالی فیما حکاه عنه نبیه محمد صلی الله علیه و آله: «کلّ حسنهٔ بعشرِ أمثالها إلی سبعمائه ضعف إلّاالصیام فإنه لی وأنا أُجزی به» (۱).

وهناک الکثیر جدّاً من الآیات والروایات والأحادیث الشریفهٔ التی تؤکّد وتبین فضیلهٔ هذین الرکنین المهمین فی الإسلام، لا یسعنا ذکرها، بل نستفید منها کیف صار الحج أفضل بعد (۲۳) عاماً من تَعبد المسلمین بالصوم والصلاهٔ، حتی جاء الإذن بالحج فی عام (۱۰) ه، لیکون أفضل من هاتین العبادتین!

الحدیث الشریف یقول: «إنّ الحج أفضل من الصلاهٔ والصیام» (۲) نتساءل هنا لماذا هو أفضل منهما؟ یجیبنا الحدیث الشریف: «لأنّ المصلی إنما یشتغل عن أهله ساعهٔ، وأنّ الصائم یشتغل عن أهله بیاض یوم، وأنّ الحاج یشخص بدنه، ویضحی نفسه، وینفق ماله، ویطیل الغیبهٔ عن أهله ولا فی مالٍ یرجوه ولا إلی تجارهٔ» (۳).

ونضیف إلی ذلک أنّ عبادهٔ الحج عبادهٔ جماعیهٔ والعبادات الجماعیهٔ أفضل من العبادات الفردیهٔ فی کثیر من الأحیان، کصلاهٔ الجماعهٔ وصلاهٔ الجمعهٔ وصلاهٔ العیدین، والدعاء مع الجماعهٔ وغیرها.

الحج یُخرج المکلف من الفقر

من شروط الحج: الاستطاعهٔ المالیهٔ، وعُشاق بیت اللّه الحرام فی سعیٍ دائم وراء توفیر تلک الاستطاعهٔ، وهم یعلمون أنّ اللّه تعالی من خلال حجّهم لبیته

۱- ۱ المحجهٔ البیضاء، مصدر سابق ۲: ۱۲۱.

۲- ۲ الفقیه: ۲۰۹، تحت رقم ۷۰.

۳- ۳ المصدر نفسه.

ص: ۲۱۴

الحرام سيخرجهم من الفقر والعوز إلى غِنى الدُنيا والآخرة.

وإنَّ رمز ومغزى الاستطاعة الماليـة، تشـجع الأفراد على العمل الجاد من أجل التحصيل المالى والاكتفاء، وهـذا يكسـبهم مَلكة العمل ويبعـدهم عن الكسل والخمول والاعتماد على الغير، بل يكون محفزاً ومشـجعاً للعمل الجاد فى سبيل توفير ما يتطلبه الحج والسـفر إلى بيت اللَّه الحرام...

وقـد جاء فى الحـديث الشـريف: «إنّ من حـجَّ ثلاث حجج لم يصـبهُ الفقر أبداً، وأيما بعير حجَّ عليه ثلاث سـنين جُعل من نعم الجنة- روى سبع سنين-» (۱).

والحـج سـببٌ فى قضاء الـدَّيْن، فقـد سُـئِل الإمام الصادق عليه السـلام عن رجل ذى دَيْن، يسـتدين ويحجُّ؟ فقال عليه السـلام: نعم هو أقضى للدين» (۲).

وفى‌الصحيح عن‌معاوية بن عمّار عن الإمام‌الصادق عليه السلام قال: قال رسول‌اللَّه صلى الله عليه و آله:

الحـجُّ والعُمرة ينفيان الفقر كما ينفى الكير خبث الحديد، قال معاويه: فقلتُ: حجّةٌ أفضل أو عتق رقبة؟ قال: حجّةٌ أفضل، قلتُ: فثنتين؟ قال حجّةٌ أفضل، فلم أزل أزيد ويقول: حجّةٌ أفضل حتى بلغتُ ثلاثين رقبة، فقال حجّةٌ أفضل» (۳).

ومما يدلُ على أنّ الحج يخرج الانسان من الفقر إلى الغنى حديث الإمام جعفر الصادق عليه السلام عن إسحاق بن عمّار...

قال إسـحاق بن عمّار قُلتُ لأبى عبداللَّه الصادق عليه السـلام: إنى وطّنتُ نفسى على لزوم الحج كلّ عام بنفسى أو برجل من أهل بيتى بمالى، فقال وقد عزمتَ على ذلك؟ قلتُ: نعم، قال: إن فعلتَ ذلك فأيقن بكثرة المال وأبشر بكثرة المال» (۴).

۱- ۱ المحجة البيضاء نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸ تحت رقم ۴۸ و ۴۹.

۲- ۲ المصدر السابق نفسه، نقلًا عن الفقيه: ۲۶۲ تحت رقم ۵.

۳- ۳ التهذيب ۱: ۴۴۸.

۴- ۴ المحجة البيضاء، مصدر سابق، نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸ رقم ۵۲.

ص: ۲۱۵

الحج يعتق الرقبة من النار

الانسان مليءٌ بالذنوب نتيجة ما يرتكبه من المعاصي والآثام، وقد قيدت هذه الذنوب رقبته بسلاسل من نار جهنم التي أُعدت للمذنبين، لكنَّ اللّه تعالى الرؤوف الرحيم جعل مقابل هذا باب لطفٍ ورحمة وهى بابُ غُفران الذنوب والتوبة والعفو كما ذكرنا سابقاً، وإذا تاب اللّه عزّوجلّ عن عبده المذنب حُلّتْ رقبته من النار، وخير مكانٍ وأفضل فرصة لهذا العبد أن يحلَّ رقبته في موسم الحج إلى بيت اللّه العتيق الذى يعتق الرقاب من النار كما جاء في معنى البيت العتيق على لسان أهل اللغة (۱).

قال الإمام الصادق عليه السلام: «من حجَّ حجّة الإسلام فقد حلَّ عقدة من النار من عنقه، ومن حجَّ حجتين لم يزل في خير حتى يموت، ومن حجَّ ثلاث حجج متوالية ثم حجَّ أو لم يحج فهو بمنزلة «مُدّ» من الحج» (۲).

وعنه عليه السلام أيضاً انه قال: «قال رسول اللّه صلى الله عليه و آله: «إنّ من الذنوب ذنوباً لا يكفّرها إلّا الوقوف بعرفة» (۳).

وفى فضيلة النظر إلى الكعبة فى أداء الحج والعُمرة ومحو السيئات والذنوب، قال عليه السلام أيضاً: «إنّ من نظر إلى الكعبة لم يزل يُكتب له حسنة ويمحى عنه سيئة حتى يصرف ببصره» (۴).

وجاء فى الدعاء عن رسول اللّه محمد صلى الله عليه و آله وأهل بيته الأطهار: «فإذا بلغت مقابل الميزاب قل: اللهم أعتق رقبتى من النار، ووسّع علىَّ من الرزق الحلال،

۱- ۱ البيت العتيق: قالوا ضمن سبب التسمية: لأنه أقدم بيت، ولأنه يعتق الرقاب من النار.

۲- ۲ المحجة البيضاء: ۱۴۹، مصدر سابق، وعن الفقيه: ۲۰۸ تحت رقم ۴۸ و ۴۹.

۳- ۳ المصدر السابق نفسه.

۴- ۴ الكافى، الكلينى ۴: ۲۴۰ تحت رقم ۴.

ص: ۲۱۶

وأدرِئ عنّی شر فسقه العرب والعجم، وشرَّ فسقةِ الجنّ والانس» (۱) فإنّ الدعاء یستجاب حتماً (۲).

الحج أفضل تجارة

قال اللَّه تعالی فی محکم کتابه الکریم: یا أیها الذین آمنوا هل أدلکم علی تجارة تُنجیکم من عذاب ألیم* تؤمنون باللَّه ورسولِهِ وتجاهدون فی سبیل اللَّه بأموالکم وانفسکم ذالکم خیرٌ لکم ان کنتم تعلمون* یغفر لکم ذُنوبکم ویُدخلکم جنّاتٍ تجری من تحتها الأنهار ومساکن طیبة فی جنّات عدن ذلک الفوز العظیم* وأُخری تُحبّونها نصرٌ من اللَّه وفتح قریب وبشّر المؤمنین (۳)

.وخیر تجارة یتاجرها العبد المکلف مع ربّه، طاعةٌ وإیمان وجهاد بالمال والنفس. وأفضلُ ما یُرضی اللَّه تعالی حجُّ بیته الحرام الذی هو أول بیت وضع للناس للذی ببکة مبارکاً وهدًی ورحمة للعالمین، فهو خیر مکان یُطاع فیه اللَّه ویُعبد ویُبذل فیه المال والنفس.

جاء فی الصحیح عن أبی عبداللَّه الصادق علیه السلام: «أنّ رسول اللَّه صلی الله علیه و آله لقیهُ اعرابیٌ فقال: یا رسول اللَّه إنّی خرجتُ أُرید الحج ففاتنی وأنا رجلٌ میّلٌ (أی کثیر المال) فمرنی أن أصنع فی مالی ما أبلغ به مثل أجر الحاج، قال: فالتفت إلیه رسول اللَّه صلی الله علیه و آله فقال: انظر إلی أبی قبیس فلو أنّ أبا قبیس لک ذهبة حمراء انفقته فی سبیل اللَّه ما بلغت ما یبلغ الحاج، ثم قال: إنّ الحاجّ إذا أخذ فی جهازه لم یرفع شیئاً ولم یضعه إلّا کتب له عشر حسنات، ومحا عنه عشر سیئات، ورفع له عشر درجات، فإذا

۱- ۱ المحجة البیضاء، مصدر سابق ۲: ۱۷۰.

۲- ۲ أکدت الروایات عن الرسول صلی الله علیه و آله حتمیة استجابة الدعاء تحت المیزاب وعلی عرفة.

۳- ۳ الصف: ۱۰- ۱۳.

ص: ۲۱۷

ركب بعيره لم يرفع خفاً ولم يضعه إلّاكتب اللَّه له مثل ذلك، فإذا طاف بالبيت خرج من ذنوبه، فإذا سعى بين الصفا والمروة خرج من ذنوبه، فإذا وقف بعرفات خرج من ذنوبه، فإذا رمى الجمار خرج من ذنوبه [قال: فعدّ رسول اللَّه صلى الله عليه و آله كذا وكذا موقفاً إذا وقفها الحاجُّ خرج من ذنوبه ، ثم قال: أنى لك أن تبلغ ما يَبلغهُ الحاج؟

قال أبو عبداللَّه عليه السلام: ولا يكتب عليه الذنوب أربعة أشهر، ويكتب له الحسنات إلّا أن يأتى بكبيرة» (۱).

ويا لَها من تجارة، أن تكون بين العبد القاصر والخالق الكامل، العبد الفقير والخالق الغنى، العبد الذى لا يملك شيئاً والخالق المالك لكلّ شيء..!

وهذا الإمام الرضا عليه السلام يبين لنا: المتاجرُ بالحجّ مع ربّه صاحب الحج وصاحب البيت يقول:... مَن حجَّ أربع حجج لم تصبه ضغطة القبر أبداً، وإذا مات صوّر اللَّه عزّوجلّ الحجج التى حجّها فى صورة حسنة أحسن ما يكون من الصور بين عينيه تصلّى فى جوف قبره حتى يبعثه اللَّه عزّوجلّ فى قبره، ويكون ثواب تلك الصلاة لهُ. واعلم أن الركعة من تلك الصلاة تعدل ألف ركعة من صلاة الآدميين. ومن حجَّ خمس حجج لم يعذبه اللَّه أبداً، ومن حجَّ عشر حجج لم يحاسبه اللَّه أبداً. ومن حجَّ عشرين حجّة لم ير جهنّم ولم يسمع شهيقها ولا زفيرها، ومن حجَّ أربعين حجة قيل له: اشفع فيمن أحببت، ويفتح له من أبواب الجنّة، يدخل منه هو ومن يشفع له، ومن حجَّ خمسين حجّة بنى له مدينة فى جنّة عدن فيها ألف قصر، فى كلّ قصر ألف حوراء من حور العين، وألف زوجة، ويُجعل من رفقاء محمد والأوصياء صلوات اللَّه عليهم، وكان ممن يزوره اللَّه تبارك وتعالى كلّ جمعة، وهو ممن يدخل جنّة عدن التى خلقها اللَّه تعالى بيده، ولم ترها عين، ولم يطّلع عليها مخلوق، وما من

۱- ۱ التهذيب ۱: ۴۴۷.

ص: ۲۱۸

أحـد يكثر الحـج إلّابنى اللّه عزّوجلّ له بكلّ حجـة مدينـة فى الجنّة فيها غُرف فى كلّ غرفة منها حوراء من حور العين، مع كلّ حوراء ثلاثمائة جارية لم ينظر الناس إلى مثلهن حسناً وجمالًا» (۱).

۱- ۱ المحجة البيضاء، مصدر سابق، نقلًا عن الفقيه: ۲۰۸، رقم ۵۱.

ص: ۲۱۹

ص: ۲۲۰

ص: ۲۲۱

الفصل التاسع: الكعبة فى التاريخ

اشارة

لا أعتقد أنّ أحداً يجهل قِدم الكعبة الشريفة، فلهذا البيت الشريف تاريخ طويل وتاريخ عريق موغل فى القِدم، فهو- كما ذكرنا- أول بيت وضع للناس ليعبدوا فيه اللّه سبحانه، من هنا جاءت تسمية «بيت اللّه العتيق».

ولا- أظنّ أحداً يجهل القداسة التى تمتع بها هذا البيت الشريف، الذى حاز من الشرف فى امتداد تاريخه الطويل، أن يُعتق زائره وقاصده، من ذنوبه وآثامه ومعاصيه، ويخرج منه كيوم ولدته أُمه، ويحصل على مراده فى الدعوة فيه، إضافة الى ذلك فقد كان مركزاً لحج الملائكة قبل آدم عليه السلام بألفى عام، ثم حج إليه أبو البشر آدم عليه السلام وولده من بعده...

ولماجاءزمن نوح عليه السلام و الطوفان الكبير الذى حدث فى أيامه، زالتمعالم البيت، وقيل رُفع إلى السماء، وبقى أثره على الأرض فقط، حيث كان أكمة حمراء مدرة لا تعلوها السيول. والناس يعرفون أنّ هذا المكان هو موضع بيت اللّه الكريم، وكان يزوره المظلوم والهارب من جور الأرض وظلمها، فيدعو اللّه فيه فيستجاب له، حتى بوّأه اللّه تعالى لإبراهيم الخليل عليه السلام، ومَنَّ مرةً أخرى على عباده بالحج لهذا

ص: ۲۲۲

البيت الشريف المقدس والعبادة فيه والدعاء وطلب الحاجة من اللّه تعالى فيه للدنيا والآخرة ...

أما الموقع الجغرافى للكعبة الشريفة: فهى فى منتصف الجزيرة العربية الغربى، على بُعد ثمانية وأربعين ميلًا من البحر الأحمر فى وادٍ غير ذى زرع، تحيطها جبالٌ جرداء تكادُ تُطبقُ عليها من جميع الجهات، صيفها حار لا يُطاق. وموقعها هذا جعلها محطة صالحة فى طرق القوافل الطوال التى تجمع فى بعض الأحيان ألف جمل بعضها وراء بعض، والتى تحمل المتاجر بين جنوبى بلاد العرب (ومن ثم بين الهند وافريقية الوسطى وبين مصر، وفلسطين، وبلاد الشام. وكان التجار أصحاب هذه التجارة يؤلفون فيما بينهم شركات محاصة، ويسيطرون على أسواق عُكاظ (۱).

ويقومون بالشعائر الدينية المجزية حول الكعبة وحجرها الأسود المقدس (۲).

وقد وصف الإمام على عليه السلام فى نهج البلاغة الكعبة، بقوله: «أَلا ترونَ أنّ اللّه سبحانه اختبر الأولين من لدُن آدم- صلوات اللّه عليه- إلى الآخرين من هذا العالم بأحجارٍ لا تضر ولا تنفع، ولا تُبصر ولا تسمع، فجعلها بيته الحرام الذى جعله للناس قياماً، ثم وضعه بأوعر بقاع الأرض حجراً، وأقلّ نتائق الدنيا مدراً، وأضيق بطون الأودية قُطراً، بين جبالٍ خشنة ورمالٍ دَمِثة، عيون وشلة، وقُرًى منقطعة، لا يزكو بها خُفّ، ولا حافر ولا ظلف؟» (۳).

ثم بيّن عليه السلام قِدم الكعبة بقوله: «ثم أمر آدم عليه السلام وولده أن يثنوا أعطافهم نحوه، فصار مثابةً لمنتجع أسفارهم، وغاية لملقى رحالهم، تهوى إليه ثمار الأفئدة. من

۱- ۱ أسواق عُكاظ: أسواق تجارية مهمة، تدر بالأرباح المالية الهائلة خصوصاً فى موسم الحج قبل الاسلام وبعده.

۲- ۲ قصة الحضارة، وِل ديورانت مج ۱، ج ۱: ۱۸.

۳- ۳ نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ القاصعة: ۲۹۳ منشورات دار الهجرة إيران. قم

ص: ۲۲۳

مفاوزِ قفار سحیقة، ومهاوی فجاج عمیقة، وجزائر بحارٍ منقطعة حتی یهزّوا مناکبهم ذُللًا، یُهلّلون للّهحوله، ویرملون علی أقدامهم شُعثاً غُبراً له. قد نبذوا السرابیل وراء ظهورهم و... الخ» (۱).

وعن تاریخ بناء الکعبة وإعادة البناء وتجدیدها یحدثنا ول دیورانت قائلًا: «إنّ الکعبة بُنیت ثم أُعید بناؤها عشر مرات، فقد بناها فی فجر التاریخ ملائکة السماء، وبناها فی المرة الثانیة آدم أبو البشر، وفی المرة الثالثة ابنه شیث ثم بناها فی المرة الرابعة إبراهیم وإسماعیل... وبناها فی المرة السابعة قُصی زعیم قبیلة قریش، وبناها فی المرة الثامنة کِبارُ قُریش فی حیاة محمد صلی الله علیه و آله عام (۶۰۵) م وبناها المرتین التاسعة والعاشرة زُعماء المسلمین فی عامی ۶۸۱ و ۶۹۶ م والکعبة کما بُنیت فی المرة العاشرة هی کعبة هذه الأیام فی معظم أجزائها» (۲).

وفی‌بیان قِدم الکعبة یقول الإمام الباقر علیه السلام: «لما أراد اللّه تعالی أن یخلق الأرض أمر الریاح فضربن متن الماء حتی صار موجاً، ثم أزبد فصار زبداً واحداً فجمعه فی موضع‌البیت، ثم جعله جبلًا من زبد، ثم دحا الأرض من‌تحته وهوقول‌اللّه عزّوجل:

إن أول بیت... فأول بیت خُلق من الأرض الکعبة، ثم مدت الأرض منها» (۳).

هذا موجز سریع استعرضتُ فیه تاریخ الکعبة؛ لیکون مدخلًا ومقدمة لقراءتها من التاریخ وتمهیداً للتفصیلات اللاحقة...

هبوط آدم علیه السلام وبناء الکعبة

آدم علیه السلام، الکعبة الشریفة، قَدِما الینا من أعماق التاریخ، قَدِما مجملین، فقد ورد ذکر آدم علیه السلام ضرباً فی القرآن الکریم ووردت قصته وأمر خلقه وهبوطه‌الأرض،

۱- ۱ الخطبة نفسها.

۲- ۲ قصة الحضارة، وِل دیورانت مج ۷، ۱: ۱۸.

۳- ۳ الکافی، الکلینی ۱: ۱۸۹.

ص: ۲۲۴

ووردت الکعبة کمرکز مقدس هام فی القرآن الکریم أیضاً... ولکن متی بُنیت؟

وهل کان آدم علیه السلام فعلًا هو بانیها أم هناک غیره؟ فذلک ما حدثتنا بها الروایات، والروایات فی هذا الموضوع کثیرة تحکی صراحةً بأنّ بانی الکعبة الأول هو آدم، ومن هذه الروایات الکثیرة فی بناء آدم علیه السلام الکعبة حین هبوطه إلی الأرض، نذکر ما ذکره الأزرقی فی کتابه «أخبار مکة»:

فقد ورد عنه: «وحدثنی جدی قال: وحدثنی إبراهیم بن محمد بن أبی یحیی عن الزهری، عن عبداللّه بن عبداللّه عتبة بن مسعود، عن ابن عباس رضوان اللّه تعالی علیه قال: کان آدم علیه السلام أول من أسس البیت، وصلی فیه حتی بعث اللّه الطوفان ...» (۱).

وفی الروایات الأخری تفصیلات یطول ذکرها... ولکن الحقیقة أنّ القراءة الدقیقة والتفصیلیة، لا مجال لها فی هذا الموضوع، وإنما أردنا مجرد ذکر ما ورد فی تاریخ بناء الکعبة، وهذه روایة أخری عن ابن عباس ونکتفی بها؛ لأن ما جاء فی هذا الأمر روایات یشابه بعضها الآخر.

یقول ابن عباس: «لما أهبط اللّه تعالی آدم من الجنة کان رأسه فی السماء ورجلاه فی الأرض وهو مثل الفلک فی رعدته، قال: فطأطأ اللّه عزّوجل منه ستین ذراعاً، فقال یا رب مالی لا أسمع أصوات الملائکة ولا أحسهم؟ قال: خطیئتک یا آدم ولکن اذهب فابن لی بیتاً فطف به واذکرنی حوله کنحو ما رأیت الملائکة تصنع حول عرشی، قال: فأقبل آدم علیه السلام یتخطا، فطویت له الأرض وقبضت له المفاوز فصارت کلّ مفازة یمرّ بها خطوة وقبض له ما کان من مخاض ماء أو بحر فجعل له خطوة، ولم تقع قدمه فی شیء من الأرض إلّاصار عمراناً وبرکة حتی انتهی مکة فبنی البیت الحرام، وإنّ جبرئیل علیه السلام ضرب بجناحیه الأرض فأبرز عن أسٍ ثابت

۱- ۱ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۴۰.

ص: ۲۲۵

علی الأرض السُفلی فقذفت فیه الملائکة من الصخر ما لا یطیق حمل الصخرة منها ثلاثون رجلًا، وإنه بناه من خمسة أجبل: من لبنان، وطور سیناء، والجودی، وحواء، وطور زیتا حتی استوی علی وجه الأرض» (۱).

فإن‌صحت هذه‌الأخبار والروایات التی وصل إلینا منها الحشد الکثیر، فیکون البانی والمؤسس والحاج الأول للکعبة الشریفة هو أبو البشر آدم علیه السلام، ولکن القرآن الکریم لم یخبرنا بهذه التفاصیل إنما جاءت قصة آدم علیه السلام مجملة مختصرة...

إنّ ارتباط آدم علیه السلام بالکعبة الشریفة، ووجودها فی زمانه، وفی عمق التاریخ یعطیها أهمیة کُبری فوق أهمیتها الذاتیة الحقیقیة، التی أعطاها اللَّه تعالی ونسبها الیه عزّوجل...

لقد کرّمها اللَّه تعالی یومَ خُلقت، ویوم حجّها أول إنسان، والی الیوم ما زالت ذلک الصرح الإلهی المقدس العظیم...

زوال معالم الکعبة فی الطوفان

کلّ شیء آیل إلی التغیر والتبدل والزوال، علی مستوی الدنیا، ولا یبقی سوی اللَّه تعالی کلّ شیء هالک إلّاوجهه (۲) ویبقی وجه ربک ذو الجلال والاکرام (۳)

.ولکن عین اللَّه تعالی التی لا تنام، حارسة لمن تحب وما تحب وما ترید أن یبقی الی قیام الساعة.

فحین غضب اللَّه تعالی علی قوم نوح علیه السلام وطغی الطوفان الکبیر علی سطح

۱- ۱ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۳۶- ۳۷.

۲- ۲ القصص: ۸۸.

۳- ۳ الرحمن: ۲۷.

ص: ۲۲۶

الكرهٔ الأرضـيهٔ، لم تكن الكعبهٔ المشـرفهٔ بمنأى عن هذا الطوفان، فغرقت ضـمن ما غرق من موجودات الكرهٔ الأرضـيهٔ، ولكونها مركزاً إلهيّاً مقـدساً لم تكن كساير أشـياء الأرض التی غرقت وانتهی كلّ شـیء، وإنما أراد اللَّه لها شـيئاً آخر، أراد لها اللَّه بقاءً أبدياً إلی قيام الساعهٔ؛ لتكون نقطهٔ الاتصـال المركزيـهٔ بين العبـد وربّه، من هنا ومن خلال اللطف الإلهی الشامل لكلّ الوجود، قيض اللَّه لها نبياً من عظمـاء الأنبياء ألا وهو إبراهيم الخليل عليه السـلام وابنه الحليم اسـماعيل عليه السـلام ليعيـدا بناءها من جديـد، وليرفعا قواعـد البيت... وهكذا بلغ أمر اللَّه وتربعت الكعبهٔ علی سطح الكرهٔ الأرضيهٔ؛ لتكون شامخهٔ وعاليهٔ، وامتداداً بين السماء والأرض.

والقرآن الكريم لم يتحـدث عن الطوفان بشـكل مفصل، وكيف كانت الكعبـهٔ وكيف زالت (۱)، وإنما ذكر الموضوع بشـكل مجمل، تعرض بشكل أساس عن العبرهٔ والموعظهٔ دون التفاصيل والجزئيات والأجزاء والأماكن.

أما الروايات التی تحكی حال الكعبهٔ الشريفهٔ فی الطوفان الكبير فهی كثيرهٔ جدّاً، لا يسعنا سوی ذكر واحدهٔ أو اثنين ونكتفی بها.

عن ابن عبـاس رضوان اللَّه عليه قـال: «فكان أول من اسـس البيت وصـلّی فيه وطاف به آدم عليه السـلام حتی بعث اللَّه تعالی الطوفان: وكان غضـباً ورجساً. قال: فحيث ما انتهی الطوفان ذهب ريح آدم عليه السلام قال: ولم يقرب الطوفان أرض السند والهند، قال: فدَرَسَ موضع البيت فی الطوفان حتی بعث اللَّه تعالی ابراهيم واسماعيل فرفعا قواعده وإعِلامه...» (۲).

وفی روايهٔ مجاهد قال الأزرقی: قال: «بلغنی أنه لما خلق اللَّه عزّوجل السماوات

۱- ۱ ليس من اختصاصات القرآن الكريم ذكر التفاصيل فی طرح التاريخ وغيره، وانما يُشيرُ إليها بماينسجم والعبرهٔ والبيان، والتفاصيل تأخذ من الأحاديث الشريفهٔ والأخبار والروايات.

۲- ۲ أخبار مكهٔ، الأزرقی ۱: ۳۷.

ص: ۲۲۷

والأرض کان أول شیء وضعه فیها البیت الحرام وهو یومئذ یاقوتة حمراء جوفاء لها بابان أحدهما شرقی والآخر غربی فجعلهُ مستقبل البیت المعمور، فلما کان زمن الغرق رُفع فی دیباجتین فهو فیهما إلی یوم القیامة، واستودع اللَّه عزّوجل الرکن أبا قبیس قال: وقال ابن عباس: کان ذهباً فرفع زمان الغرق فهو فی السماء. وعن سعید عن مقاتل یرفع الحدیث إلی النبی صلی الله علیه و آله فی حدیث حدّثَ به آدم علیه السلام قال: أی ربّی إنّی أعرف شقوتی، إنی لا- أری شیئاً من نورک یعبد، فأنزل اللَّه عزّوجلّ علیه البیت المعمور علی عرض هذا البیت فی موضعه من یاقوتة حمراء، ولکن طوله کما بین السماء والأرض، وأمره أن یطوف به، فأَذهبَ اللَّه عنه الغم الذی کان یجده قبل ذلک، ثم رُفع علی عهد نوح علیه السلام» (۱).

ابراهیم علیه السلام یجدد بناء الکعبة

وجاء النبی العظیم أبو الأنبیاء خلیل الرحمن ابراهیم علیه السلام، جاء لیعید مجد الکعبة الشریفة التی درسها الفیضان والطوفان النوحی، ولکن من أین بدأ؟ وأین کان مکانها؟ وفی أیة بقعة من بقاع الکرة الأرضیة؟ إنّ موضع الکعبة کان قد خُفی ودرس فی زمن الغرق فیما بین عهد نوح علیه السلام وابراهیم علیه السلام، وقد ذکر مجاهد، کان موضع الکعبة أکمة حمراء مدرة لا تعلوها السیول غیر أنّ الناس یعلمون أنّ موضع البیت فیما هنالک ولا یثبت موضعه، وکان یأتیه المظلوم والمتعوذ من أقطار الأرض ویدعو عنده المکروب، فقلَّ من دعا هنالک إلّااستجیب له، وکان الناس یحجون الی موضع البیت حتی بوأ اللَّه تعالی مکانه لإبراهیم علیه السلام لما أراد من عمارة بیته وإظهار دینه وشرائعه، فلم یزل منذ أهبط اللَّه تعالی آدم علیه السلام إلی الأرض معظماً محرماً بیته تتناسخه الأُمم والملل أمة بعد أمة وملّة بعد ملّة، قال: وقد کانت

۱- ۱ المصدر السابق: ۵۰- ۵۱.

ص: ۲۲۸

الملائكة تحجهُ قبل آدم عليه السلام (۱).

وقد ذكرنا في الفصل الثالث، كيفية بناء إبراهيم عليه السـلام وابنه إسـماعيل عليه السلام البيت الحرام، والكعبة الشريفة بالتفصيل، وهنا نضيف كيفية مجيء ابراهيم عليه السلام إلى هذا المكان المقدس، كيف كان والى اين آل.

ابراهيم عليه السلام يسرى بزوجه هاجر وابنه اسماعيل صوب بيت اللّه الحرام

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقي ۱: ۵۲- ۵۳.

ص: ۲۲۹

ام اسماعيل تسعى بين الصفا والمروة بحثاً عن الماء، ومنبع الماء يظهر تحت قدمى اسماعيل عليه السلام

فقد خرج ابراهيم عليه السلام من الشام، أو من مدينة أورشليم «بيت المقدس» يحمل هاجر زوجه المظلومة (۱) وولده الوحيد اسماعيل عليه السلام، فخرج بهم ومعه جبرئيل عليه السلام يدله على موضع البيت ومعالم الحرم، يقول محمد بن إسحاق: «فخرج وخرج معه

۱- ۱ أقول هنا مظلومة: لأنها ظُلمت بغيرة سارة منها.

ص: ۲۳۰

لا يمرّ ابراهيم عليه السلام بقرية من القرى إلّاقال: يا جبرئيل أبهذا أُمرت؟ فيقول له جبرئيل عليه السلام: أمضه حتى قدم مكه وهى إذ ذاك عضاهٔ من سلم وسمر، وبها ناس يُقال لهم العماليق خارجاً من مكهٔ فيما حولها، والبيت يومئذ ربوهٔ حمراء مدرهٔ. فقال ابراهيم عليه السلام لجبريل: أهاهنا أُمرتُ أن أضعهما؟ قال: نعم! قال: فعمد بهما إلى موضع الحجر فأنزلهما فيه، وأمر هاجر أمّ اسماعيل أن تتخذ فيه عريشاً ثم قال: ربنا إنّى أسكنتُ من ذريتى بوادٍ غير ذى زرع (۱)

ثم انصرف إلى الشام وتركهما عند البيت الحرام (۲)، فى رعايهٔ اللّه ورحمته.

وقال ابن جريج: «وبلغنى أنّ جبرئيل عليه السلام حين هزم بعقبهٔ فى موضع زمزم قال لأُم اسماعيل:.. وأشار لها إلى موضع البيت- هذا أول بيت وضع للناس، وهو بيت اللّه العتيق، وأعلمنى أنّ ابراهيم واسماعيل يرفعانه للناس ويعمرانه فلا يزال معموراً، محرماً، مكرماً إلى يوم القيامهٔ، ويضيف ابن جريج: أنّ أمّ اسماعيل ماتت قبل أن يرفعه ابراهيم وإسماعيل، ودُفنت فى موضع الحجر» (۳).

زواج إسماعيل عليه السلام وولايهٔ أبنائه الكعبهٔ

ليس من المحتم أن نـدرك حكمـهٔ اللّه تعالى للوهلـهٔ الأولى فقـد يأمر اللّه أمراً يبدو فى الظاهر غيرمناسب، ولكن مناسبته وأهميته تظهر أخيراً، وقدأشارالقرآن الكريم إلى هذه الحالهٔ الإنسانيهٔ، إلى استعجال الانسان فى الأمور وطلب الحقيقهٔ فوراً دون تأنٍ، قال تعالى خلق الانسان من عجل سأريكم آياتى فلا تستعجلون (۴).

۱- ۱ إبراهيم: ۳۷.

۲- ۲ أخبار مكهٔ، الأزرقى ۱: ۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق: ۵۶.

۴- ۴ الأنبياء: ۳۷.

ص: ۲۳۱

وهذا ما حدث لهاجر زوجة النبى ابراهيم عليه السلام المؤمنة باللّه الطائعة لأمره وأمر نبيه، والدة اسماعيل عليه السلام الحليم الممتثل لأوامر اللّه تعالى وصاحب تلك الاطاعة المثالية فى الذبح وبناء الكعبة وغيرها من الأمور...

ولمثالية النبى اسماعيل عليه السلام وسلوكه القويم منحه اللّه تعالى ولاية أقدس بقعة من بقاع الأرض، وأحبّ بقاع الأرض إلى اللّه، الكعبة الشريفة ومن بعده ولاية أبنائه عليها...

وإذا رجعنا إلى قصة ابراهيم عليه السلام وزوجه هاجر ووحيدهما اسماعيل عليه السلام والمكان المقفر الذى أُنزلوا فيه، فسنجد الحكمة والموعظة والمعجزة.

لقد استجاب النبى ابراهيم عليه السلام لأمر ربه الكريم، إذ أخذ هاجر وطفلها الرضيع اسماعيل من الشام إلى أرضٍ قفراء خالية بعيدة عن العمران، ولا ماء ولا غذاء، فأنزلهما وقفل راجعاً، تبعته هاجر ملتاعة وقالت له، إلى أين تذهب؟

ولمن تتركنا بهذا الوادى الموحش المقفر؟ قالت له ذلك مراراً خائفة وجلة، مستعطفة، وهو يمضى فى سبيله، عندئذ قالت: اللّه آمرك بهذا؟ قال: نعم، قالت:

إذن لا يضيعنا اللّه، وحُسن ظنها وإيمانها باللّه تعالى طمأن قلبها، وقيل: إن جبرئيل عليه السلام طمأن قلبها، أن أخبرها أنّ هذا المكان سيكون مكان خير وبركة ومهوى الأفئدة.

وقد خطهُ اللّه تعالى لها ولابنها أن جعل البركة فى إسماعيل وحيدها، وجعله أمة، وجعل ذلك المكان المقفر تهوى إليه أفئدة الناس، وجعل الخير والبركة والأمن والأمان فيه.

عن ابن عباس قال: لما أخرج اللّه تعالى ماء زمزم لأم إسماعيل، فبينا هى على ذلك إذ مرَّ ركب من جرهم قافلين من الشام فى الطريق السفلى فرآى الركب الطير على الماء، فقال بعضهم: ما كان بهذا الوادى من ماء ولا أنيس، يقول ابن عباس،

ص: ۲۳۲

فأرسلوا رجلين لهم حتى أتيا أمّ اسماعيل فكلّماها ثم رجعا إلى ركبهما، فأخبراهم بمكانها، قال: فرجع الركب كلّهم حتى حيّوها فردت عليهم وقالوا: لمن هذا الماء؟

قالت أم اسماعيل: هو لی، قالوا لها: أتأذنين لنا أن ننزل معك عليه؟ قالت: نعم! (۱)

ويضيف ابن عباس قائلًا: قال رسول اللّه صلی الله عليه و آله: القی ذلك أمّ اسماعيل وقد أخبت الأنس، فنزلوا وبعثوا إلی أهاليهم، فقدموا إليهم وسكنوا تحت الدوح، واعترشوا عليها العرش فكانت معهم هی وابنها، حتی ترعرع الغلام وأنفسوا فيه وأعجبهم، وتوفيت أم اسماعيل، فلما بلغ أنكحوه جارية منهم (۲).

وقد ذكر المفسرون والمؤرخون، أنّ اسماعيل عليه السلام طلّقَ زوجته الأولی (تلك الجارية) بطلب من ابراهيم عليه السلام (۳)، وتزوج بأخری بنت مضاض بن عمرو الجرهمی، فولدت له اثنی عشر رجلًا. وقد ذُكرت أسماؤهم وأحوالهم فی كتب الصحاح وأخبار مكة وغيرها من كتب الخاصة والعامة. وجاء ما يشابه ذلك من الأسماء فی التوراة. والذی يهمنا من ولد اسماعيل عليه السلام «نابت» و «قيدار» كبار ولد اسماعيل ومنهما نشر اللّه العرب، وبعد وفاة اسماعيل عليه السلام تولی نابت إمارة البيت المعمور، وبعد أن توفی نابت بن اسماعيل عليه السلام ولیَ أمرها- أمر الكعبة- جده لأمّه (مضاض بن عمرو الجرهمی) وضمَّ بنی نابت وبنی اسماعيل عليه السلام إليه فصاروا مع جدهم أبی أمهم ومع أخوالهم من جرهم.

۱- ۱ أخبار مكة، الأزرقی ۱: ۵۷، وصحيح البخاری، عن ابن عباس عن النبی صلی الله عليه و آله.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ انظر، الأزرقی، أخبار مكة، ج ۱، وكتب الصحاح، وتفاسير القرآن الكريم، والتوراة، سفرالتكون وفی التوراة جاءت قصة اسماعيل وهاجر مع زيادات ونقصان كثير وكذب وتحريف أشهر من نارٍ علی علم.

ص: ۲۳۳

وهكذا توارث آل اسـماعيل (وهم فى الحقيقة آل ابراهيم عليه السـلام) الكعبة البيت الحرام. وهكذا كرّم اللّه تعالى ابراهيم واسـماعيل عليهما السلام.

جُرهم وولايتها الكعبة

بعـد وفاة اسـماعيل عليه السـلام وابنه نابت نصّبت قبيلـة جُرهم (الحارث بن مضاض بن عمرو الجرهمى) (۱) ملكـاً عليهم، وفى نفس الوقت ضـعنت قبيلة قطورا (وهم من العماليق) من اليمن إلى مكّة فولّوا عليهم (السـميدع) (۲) ملكاً، فلما نزلوا مكـة رأوا بلداً طيباً وماءً وشـجراً فأُعجبوا بها، فكان الحارث بن مضاض ومن معه قـد نزلوا أعلى مكـة وقعيقعان، ونزل السـميدع ومن معه أسـفل مكـة وأجياد، وكان (الحارث) يعشّـر (۳) من دخل مكـة من أعلاها، وكان السـميدع يعشّـر من يـدخل مكـة من أسـفلها، لا يدخل واحد منهما على صاحبه فى ملكه، ثم إنّ جرهماً وقطوراً بغى بعضـهم على بعض وتنافسوا الملك بها واقتتلوا بها حتى نشـبت الحرب بينهم على المُلك وولاة الأمر بمكـة، وصارت ولايـة البيت إلى العماليق، ثم كانت لجُرهم عليهم، وأقامت جُرهم بولايـة البيت نحو ثلاثمائـة سـنة، وكان آخر ملوكهم الحـارث بن مضـاض الأصـغر بن عمرو بن الحارث بن مضاض الأكبر وزادوا فى بناء البيت، ورفعته على ما كان عليه من بناء ابراهيم واسماعيل عليهم السلام (۴).

وقال ابن اسـحاق: ثم نشـر اللّه تعالى بنى اسـماعيل بمكـة، وأخوالهم من جُرهم إذ ذاك حكّام بمكة وولاة البيت، وكانوا كذلك بعد نابت بن اسماعيل عليه السلام، فلما ضاقت عليهم مكة وانتشروا بها، انبسطوا فى الأرض وابتغوا المعاش والتفسح

۱- ۱ قـال الأزرقى ونصـبت قبيلـة جُرهم مضاض بن عمرو فى أخبار مكـة، أما المسـعودى فقـد ثبتَعنـده أنه الحارث بن مضاض فى مروج الذهـب ۲: ۵۴.

۲- ۲ السميدع: هو ملك العماليق، وهو ابن هوبر بن لاوى بن قيطور بن كركر بن حيدلا، مروج‌الذهب، المصدر السابق.

۳- ۳ التعشير: هو ضريبة تعادل عُشر قيمة البضاعة يدفعها المار من الناس والتّجار لسيد الأرض، مروج الذهب، المصدر السابق.

۴- ۴ انظر أخبار مكة، للأزرقى ۱: ۹۰- ۹۳ منشورات الشريف الرضى، ومروج الذهب ۲: ۵۴.

ص: ۲۳۴

فى الأرض، فلا يأتون قوماً ولا ينزلون بلداً إلّاأظهرهم اللَّه عزّوجل عليهم بدينهم فوطئوهم، وغلبوهم عليها حتى ملكوا البلاد ونفوا عنها العماليق، ومن كان ساكناً بلادهم التى كانوا اصطلحوا عليها من غيرهم، وجُرهم على ذلك بمكة ولاة البيت لا ينازعهم إياه بنو اسماعيل لخولتهم وقرابتهم وإعظام الحرم أن لا يكون به بغى أو قتال (۱).

أما المسعودى فيقول: «وكثر ولد إسماعيل وصاروا ذوى قوة ومَنَعَة فغلبوا على أخوالهم جُرهم وأخرجوهم من مكة، فلحقوا بجُهينة، فأتاهم فى بعض الليالى السيل فذهب بهم، وكان الموضع يُعرف (بإضم) وقد ذكر ذلك أمية بن أبى الصّلت الثقفى فى شعر له فقال:

وجُرهم دفنوا تُهامة فى الد هر فسالت بجمعهم إضَمُ (۲)

خُزاعة وولاية الكعبة

حكمت جُرهم فترة طويلة فى مكة كما ذكرنا سابقاً مع ولايتها على الحرم والكعبة «ولما طالت ولايتهم استحلوا من الحرم أموراً عظاماً، ونالوا ما لم يكونوا ينالون، واستخفوا بحرمة الحرم، وأكلوا مال الكعبة الذى يُهدى إليها سِرّاً وعلانية، وكلّما عدا سفيه منهم على منكر وجد من أشرافهم مَنْ يمنعه ويدفع عنه، وظلموا من دخلها من غير أهلها» (۳).

ويذكر المؤرخون والرواة أنّ جرهم بعد أن صاروا أكثر سُكان مكة رجالًا وأموالًا وسلاحاً وأعزهم عزة، طغوا وتنازعوا أمرهم بينهم واختلفوا، وضعفوا

۱- ۱ انظر أخبار مكة، ۱: ۸۰- ۹۰.

۲- ۲ مروج الذهب ۲: ۵۵.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۹۰.

ص: ۲۳۵

بعد ذلك، فقام (مضاض بن عمرو بن الحارث بن مضاض الجُرهمی) ناصحاً لهم (۱). ولم ينفع النصح فيهم، فدخل عمرو بن عامر نازحاً من اليمن مع أهله وأمواله وكاهنة لهم تُدعى (طريفة الكاهنة) مُطاعٌ أمرُها عندهم، فكانوا لا يطأون بلداً إلّاغلبوا عليه وقهروا أهله حتى قاربوا مكة واقتتلوا مع جُرهم ثلاثة أيام فانتصروا وانهزمت جُرهم، فلم ينفلت منهم إلّاالشريد، وكان مضاض بن عمرو ابن الحارث قد اعتزل جرهماً ولم يعنِ فی ذلک، فرحل هو وولده وأهل بيته حتى نزلوا قنونا وحّلى أودية على ساحل البحر الأحمر.

وتشتت جُرهم، وفُنيت البقية الباقية بالسيف، وجاء دور خزاعة فی ولاية الكعبة، فحازت أمر مكة وصاروا أهلها، وجاءهم بنو اسماعيل فسألوا السكنى مع خزاعة فأذنوا لهم. فلما رأى ذلك (مضاض بن عمرو بن الحارث) أرسل خزاعة يستأذنها فی الدخول عليهم والنزول معهم بمكة فی جوارهم ومتَّ إليهم برأيه وتوديعه قومه عن القتال وسوء السيرة فی الحرم واعتزاله الحرب، فأبت خزاعة أن تقررهم ونفتهم عن الحرم كلّه ولم يتركوهم ينزلون معهم، فقال عمرو بن لحی وهو ربيعة بن حارثة بن عمرو بن عامر لقومه: من وجد منكم جرهمياً قد قارب الحرم فدمهُ هدر (۲).

وبذلک سيطرت خزاعة على مكة وأخرجت جُرهم منها ونفتهم عن آخرهم الى اليمن، وحزنت جُرهم حزناً شديداً، وندموا على ما فعلوا فی مكة ندماً ذريعاً، وبكوا على مكة وألفوا الأشعار فيها (۳).

هذا... وحازت خزاعة ولاية البيت الحرام والكعبة الشريفة، وحُكم مكة،

۱- ۱ يذكر الأزرقی خطبتهُ لهم فی كتابه أخبار مكة ۱، انظر ۹۰- ۱۰۳.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۱۰۵.

ص: ۲۳۶

ثلاثمائة عام، وقد تعرضت مكة إلى عدوان أرادوا تخريبها وهدمها، ودافعت خزاعة دفاعاً عظيماً، وقاتلت دونها قتالًا شديداً... وقيل: إن عمرو بن لحى الخزاعى كان يلى البيت وولده بعده خمسمائة سنة حتى كان آخرهم حليل ابن حبشة بن سلول بن كعب بن عمرو، الذى تزوج قصى بن كلاب ابنتهُ «حُبى (۱).

وقال المسعودى: كان أول من ولى البيت من خزاعة عمرو بن لُحى، واسم لحى حارثة بن عامر، فغيّر دين إبراهيم وبَدّله، وبعث العرب على عبادة التماثيل، حين خرج إلى الشام ورآى قوماً يعبدون الأصنام، فأعطوه منها صنماً فنصبه على الكعبة، وقويت خزاعة، وعمَّ الناس ظلم عمرو بن لُحى (۲).

ولمّا أكثر عمرو بن لحى من نصب الأصنام حول الكعبة، وغلب على العرب عبادتها، وانمحت الحنيفية منهم إلّالمعاً، قال فى ذلك شحنة بن خلف الجرهمى:

يا عمرو، إنك قد أحدثت آلهةً شتى بمكة حول البيت أنصابا

وكان للبيت رَبٌّ واحدٌ أبداً فقد جعلتَ له فى الناس أربابا

لتعرفَنّ بأنّ اللّه فى مَهَل سيطفى دونكم للبيت حُجّابا (۳)

ولاية قصى بن كلاب الكعبة

تذكر كتب التاريخ عن قصى عندما توفى والده كلاب كان طفلًا رضيعاً فتزوجت أمّه (فاطمة بنت عمرو) ربيعة بن حزام، فخرجت معه من مكة إلى بلاده

۱- ۱ المصدر نفسه.

۲- ۲ مروج الذهب، المسعودى ۲: ۶۱.

۳- ۳ المصدر السابق.

ص: ۲۳۷

أرض عذرة من أشراف الشام وحملت معها قصيّاً لصغر سنه، فولدت من ربيعة «رزاح» (۱) ولما شب قصى حدث بينه وبين رجل من قضاعة شيء، فقال له القُضاعى: ألا ـ تلحق بنسبك وقومك فإنك لست منا؟ فرجع قصى إلى أمه وقد وجد فى نفسه مما قال له القضاعى، فسألها عما قال له، فقالت: واللّه أنت يا بنى خيرٌ منه وأكرم، أنت ابن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، وقومك عند البيت الحرام وما حوله. فأجمع قصى للخروجقومه واللحاق بهم وكره الغُربة فى أرض قُضاعة (۲).

دخل قصى مكة فى شهر الحج أحد الأشهر الحُرم، وكان رجلًا جليداً حازماً بارعاً، فلما أنهى حجهُ دخل على حليل الخُزاعى خاطباً ابنتهُ «حُبى»، فلما عرف حليل نسب قُصى رغب فيه وزوجه، وحليل يومئذ ولىُ أمر الكعبة ومكة. ولما حضرت حليل الوفاة نظر إلى قصى والى ما انتشر له من الولد من ابنته، فرآى أن يجعل إمارة الكعبة وحكمها فى ولد ابنته فدعا قصياً، فجعل له ولاية البيت وسلّم إليه مفتاح الكعبة (۳).

وقال حليل لقصى: إنها لا تقوم بفتح الباب وغلقه (۴)، فجعل ولاية البيت إليها وفتح الباب وغلقه إلى رجل من خزاعة يُعرف بأبى غبشان الخزاعى، فباعه أبو غبشان إلى قصى ببعير وزق خمر، فأرسلت العرب ذلك مثلًا، فقالت: «أخسرُ من صفقة أبى غبشان» وفى بيعه لولاية البيت ببعير وزق من الخمر، ونقله ولاية البيت من قومه من خُزاعة إلى قُصى بن كلاب، يقول الشاعر:

۱- ۱ انظر أخبار مكة، الأزرقى ۱: ۱۰۴.

۲- ۲ المصدر نفسه.

۳- ۳ المصدر السابق ۱: ۱۰۷.

۴- ۴ أى «حُبى» لأن فتح الباب وغلقه تحتاج إلى قوة رجل أما الولاية فلها بالوراثة.

ص: ۲۳۸

أبو غبشان أظلم من قصيٍّ وأظلم من بنى فِهْرٍ خُزاعةْ

فلا تَلحوا قصياً فى شِراهُ ولوموا شيخكم إذ كان باعهْ (۱)

ولما مات حليل الخزاعى، أبت خُزاعة أن يكون قصـى ولى أمر الكعبة ومكة المكرمة، فأخذت المفتاح منه، فاستنصر قصى قريشاً وبنى كنانـة فأجابوه النصـر، وأرسـل إلى أخيه لأمه «رزاح» فخرج رزاح واخوته لأبيه فى حاج العرب مجتمعين لنصـر قصـى والقيام معه، فلما كـان آخر أيـام منى أرسـلت قضاعـة إلى خُزاعـة يسـألونهم أن يسـلموا إلى قصـى مـا جعـل له حليل، وعظموا عليهم القتال فى الحرم، وحـذرهم الظلم والبغى بمكـة، وذكروهم مـا كانت فيه جُرهم، وما صارت إليه حين ظلموا وبغلوا فيها، فأبت خزاعـة ذلك واقتتلوا قتالًا شديداً. آلَ الأمر بالنهاية أن يحكموا لقصـى بحجابة الكعبة وولاية أمر مكة وأسـلمت خزاعة لقصى، وتملك على قومه فملكوه، وكان قصـى أو رجل من بنى كنانـة أصابَ ملكاً وأطاع له به قومه، فكانت له الحجابـة، والرفادة، والسـقاية، والنـدوة، واللواء، والقيادة. وجمع قريشاً بمكة وسُمى بذلك مجمعاً أو قرشياً (۲). وقصى الجد الخامس للنبى محمد صلى الله عليه و آله وهو من بنى اسماعيل النبى عليه السلام بن إبراهيم الخليل عليه السلام (۳).

وقـد كانت ولاية البيت فى خُزاعة ثلاثمائة سـنة، واسـتقام أمر قصـى، وعشّـر من دخل مكة من غير قريش، وبنى الكعبة، ورتب قريش على منازلها فى النسب بمكة، وبيّن الأبطحىَّ من قريش، وهم الأباطح، وجعل الظاهرى ظاهرياً.

ظهور قريش واستيلاؤها على الكعبة

۱- ۱ مروج الذهب، المسعودى ۲: ۶۳.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۰۷.

۳- ۳ معجم الحضارات السامية: ۶۸۸.

ص: ۲۳۹

ظهرت قريش فى عهد قصى كما ذكرنا، وكان السبب فى تسميتهم لأن تفسير ذلك الأمن، وتقرّشت، والتقرش: الجمع، ومنه قول ابن حِلِّزة اليشكرى:

إخوة قَرَّشوا الذُنوب علينا فى حديث من دَهرِنا وقديم (۱)

وكانت قريش قبائل متفرقة جمعها قصى بن كلاب، فسميت قريشاً، فالتجمع فى بعض كلاب العرب يعنى التقرش، ويُقال: كان يُقال لقصى القرشى ولم يسم قرشى قبله، ويُقال أيضاً: إنّ النضر بن كنانة كان يُسمى القرشى وقد قيل: إنما سميت قريش قريشاً؛ لأنها كانت تجاراً تكتسب وتتجر وتحترش فشبهت بحوت فى البحر تسمى «قريشاً» (۲).

وظهرت قريش على ساحة مكة، فلما حاز قصى بن كلاب شرف مكة، وأنشأ دار الندوة، كانت قريش تقضى فيها أمورها، ولم يكن يدخلها من قريش من غير ولد قصى إلّاابن أربعين للمشهورة، وكان يدخلها ولد قصى كلهم، وحلفاؤهم، فلما كبر قصى ولّى ولديه عبدالدار وعبدمناف أمور الكعبة، فأعطى عبدالدار السدانة وهى الحجابة، ودار الندوة، واللواء، وأعطى عبد مناف السقاية والرفادة والقيادة.

وبعد وفاة عبدالدار جعل الحجابة بعده إلى ابنه عثمان بن عبدالدار، وجعل دار الندوة إلى ولده عبدمناف بن عبدالدار، ثم ولى أمورها عامر بن هاشم بن عبدمناف بن عبدالدار وجاء بعده عثمان، ثم وليها عبدالعزى بن عثمان بن عبدالدار،

۱- ۱ مروج الذهب ۲: ۶۵.

۲- ۲ أخبار مكة ۱: ۱۰۹.

ص: ۲۴۰

ثم وليها طلحة بن عبداللّه بن عبدالعزى ثم وليها ولده حتى كان فتح مكة، فقبضها رسول اللّه محمد صلى الله عليه و آله بن عبداللّه بن عبدالمطلب (۱) وحطّم أصنام الكعبة، وولى الأمور كلّها؛ ليعيد الحج الإبراهيمى الأصيل فيها بعد أن حُرّف وتغيرت معالمه.

عبادة الأصنام فى الكعبة الشريفة

اتفق المؤرخون والرواة، أنّ أول من نصب الأصنام فى الكعبة «عمرو بن لحى» وهو ربيعة بن حارثة بن عمر بن عامر من خزاعة وكان زعيماً لها، وقد نقل فكرة الوثنية من بلاد الشام التى زارها، ورأى وثنية أهلها، فتأثر بها وغيّبَ معالم التوحيد ودنّس البيت الحرام. وجاء بالصنم الكبير «هُبل» من هيت (۲)، من أرض الجزيرة فنصبه فى‌بطن الكعبة، فكانت قريش والعرب تستقسم عنده بالأزلام، وهو أول من غيّر الحنيفية دين إبراهيم عليه السلام وولده إسماعيل، فقد كان أمره عند عرب مكّة مطاعاً لا يُعصى وقد ذكرنا سابقاً أنه زعيم خزاعة، وانتصرت بقيادته على قبيلة جُرهم، وبلغ بمكة وفى العرب من الشرف ما لم يبلغ عربى قبله ولا بعده فى الجاهلية.

ذكر الأزرقى فى أخبار مكة عن هذا الرجل وتأكيده على الأصنام قائلًا: «إنّ جرهماً لما طغت فى الحرم، دخل رجل منهم بامرأة منهم الكعبة ففجر بها، ويقال:

إنما قبّلها فيها فمسخا حجرين اسم الرجل أساف بن بغاء، واسم المرأة نائلة بنت ذئب، فأخرجا من الكعبة، فنصب أحدهما على الصفا والآخر على المروة، وإنما نصبا هنالك ليعتبر بهما الناس، ويزدجروا عن مثل ما ارتكبا... فلما كان عمرو بن

۱- ۱ المصدر السابق: ۱۱۰.

۲- ۲ هيت: بلدة فى العراق.

ص: ۲۴۱

لحى (قد ولى الكعبة) أمر الناس بعبادتهما والتمسح بهما» (۱) (۲).

وظلَّ الحجاج من أهل مكة ومن غيرهم يعبدون هذين الصنمين المذكورين، ويتمسكون ويتمسحون بهما ويقدمون لهما النذورات والذبائح وينحرون لهما حتى جاء قصى بن كلاب، فصارت إليه الحجابة وأمر مكة، فنقلهما من الصفا والمروة، وجعل أحدهما بلصق الكعبة، وجعل الآخر فى موضع زمزم، وكان أهل الجاهلية يمرون بأساف ونائلة ويتمسحون بهما، وكانوا إذا طافوا بالبيت يبدأون بأساف فيستلمه الحاج، فإذا فرغ من طوافه ختم بنائلة فاستلمها، فكانا كذلك حتى كان يوم الفتح، فجاء رسول اللَّه صلى الله عليه و آله، فكسّرهما، وحين دخل الرسول صلى الله عليه و آله والمسلمون فاتحين مكة المكرمة، كان عدد الأصنام فيها «ثلاثمائة وستين صنماً» وقد كسرها رسول اللَّه صلى الله عليه و آله جميعاً (۳).

وفى ذلك يقول فضالة بن عمير بن الملوح الليثى فى ذكر يوم الفتح:

أوما رأيت محمداً وجنوده بالفتح يوم تكسر الأصنام؟!

لرأيت نور اللَّه أصبح بيننا والشرك يغشى وجهه الاظلام (۴)

حادثتا (تبع) و (الفيل) ومنزلة الكعبة

للكعبة الشريفة منزلة عظيمة عند اللَّه تعالى فقد حفّها برعايته، وخصّها بكرامات سجّلها التاريخ، منها صيانتها من الشر والخراب، فقد تشتت قوم جُرهم

۱- ۱ انظر أخبار مكة ۱: ۱۱۹- ۱۲۰.

۲- ۲ وذكر المسعودى فى مروج الذهب ۲: ۵۵، الخبر نفسه وأضاف وقيل: بل هما حجران نحتا ومُثّلا بمن ذكرنا وسميا بأسمائهما أساف ونائلة.

۳- ۳ أخبار مكة ۱: ۱۲۱.

۴- ۴ المصدر نفسه.

ص: ۲۴۲

لظلمهم فیها وطغیانهم، وخزاعة هی الأخری وکذلک قریش وکلّ من یحاول الاعتداء علیها أو الاستخفاف بها، فقد قضت حُرمة الکعبة علی قوم تبّع وأصحاب الفیل، أما تُبّع فهو اسم لأحد ملوک الیمن، والتبابعة لقب ملوک الیمن، وکان للتبابعة دولة وصولة فی الیمن وغیره، وکانوا أحسن حالًا وأکثر مالًا من قریش، ولما عتو عن أمر ربّهم أخذهم بالهلاک والدمار.

قال تعالی أهم خیر أم قوم تبّع والذین من قبلهم أهلکناهم إنهم کانوا مجرمین (۱)

.والتبابعة الذین أرادوا هدم الکعبة وتخریبها ثلاثة، وقد کان قبل ذلک منهم من یسیر فی البلاد، فإذا دخل مکة عظم الحرم والبیت.

وتُبّع الثالثة التی صممت علی هدم البیت الحرام کانت بالدّفِ من جمدان بین أمج وعسفان، دفت بهم دوابهم، وأظلمت الأرض علیهم، فدعا- تُبع ملکهم- أحباراً کانوا معه من أهل الکتاب، فسألهم فقالوا: هل هممتَ لهذا البیت بشیء؟

قالَ: أردتُ أن أهدمه. قالوا: فانوِ له خیراً أن تکسوه، وتنحر عنده، ففعل، فانجلت عنهم الظلمة (وإنما سُمی الدف من أجل ذلک)، فسار وتکررت الحالة ثلاثِ مرات، فقال الأحبار له: واللَّه ما أرادت هذیل (۲) فی دفعک بهذا إلّاهلاکک وهلاک قومک، إنّ هذا بیت اللَّه الحرام ولم یرده أحد قط بسوء إلّاهلک... فضرب تُبّع أعناق الهذلیین وصلبهم، فرآی فی المنام أنه یکسی الکعبة، فکساها کسوة کاملة، کساها العصب، وجعل لها باباً یُغلق بضُبة فارسیة. قال ابن جریج: کان

۱- ۱ الدخان: ۳۷.

۲- ۲ هذیل: قبیلة عربیة کبیرة قطنت شمالی الجزیرة، فریقٌ منهم حثَّ تُبعاً علی هدم الکعبة حسداًلقریش علی ولایتها البیت. لکنهم دافعوا عن الکعبة وقاتلوا قتالًا شدیداً حینما همَّ إبرهة الحبشی بهدم الکعبة، انظر معجم الحضارات السامیة هنری س. عبودی: ۸۸۲.

ص: ۲۴۳

تُبّع أول من كسا البيت كسوة كاملة (۱).

وقد جاء في الحديث عن الرسول صلى الله عليه و آله قال: «لا تسبوا تبعاً فإنه قد أسلم» (۲).

وروى عن الصادق عليه السلام قال: «إن تُبعاً قال للأوس والخزرج: كونوا هاهنا حتى يخرج هذا النبيّ، أما أنا فلو أدركته لخدمته وخرجتُ معه» (۳).

هذا ما كان لقوم تُبّع، أما قوم إبرهة الأشرم أو الحبشي (أصحاب الفيل) فقد ذكرهم القرآن الكريم وكيفية هلاكهم عن آخرهم نتيجة ما كانوا يكيدون للكعبة وتدميرها، وملخص ما جاء من أمرهم في تفاسير القرآن الكريم: أنّ الأحباش بعد أن انتصروا على ملك اليمن، وتسلط إبرهة الأشرم على اليمن، بنى القليس بناءً من الذهب والفضة محكماً يضاهي الكعبة، ودعا الناس للحج إليه بدل الكعبة، وانتشر خبره في العرب، فدعا رجل من بني مالك بن كنانة رجلين من العرب ليذهبا ويحدثا فيه، فدخل إبرهة البيت فرأى أثرهما فيه، فغضب وأقسم على هدم الكعبة، وتخريبها، فسار مع جيشه يتقدمهم فيل أو أكثر حتى وصلوا إلى مكان بالقرب من مكة يُقال له: «المغمّس» فنزلوا فيه، وأرسل إبرهة إلى قريش مَن يخبرهم بأنه لم يأتِ لحربهم، وإنما لهدم البيت والحرم، فإن لم يعرضوا له بحرب فلا حاجة له بدمائهم. وما أن همَّ إبرهة بهدم البيت أرسل اللّه عليه وعلى جيشه أسراباً من الطير ترميهم بحصى صغيرة لا تصيب أحداً منهم إلّاهلك، ومات وتناثر لحمه، فذعر الجيش وصاحبه، وفرّوا هاربين ومات إبرهة بعد أن وصل صنعاء، وسقط لحمه قطعة قطعة إلى أن انتهى (۴).

۱- ۱ أخبار مكة ۱: ۱۳۳- ۱۳۴.

۲- ۲ الميزان في تفسير القرآن، الطباطبائي ۱۸: ۱۵۴.

۳- ۳ المصدر السابق نفسه.

۴- ۴ انظر الكاشف مج ۷: ۶۰۹- ۶۱۰، والميزان، ومروج الذهب ج ۲، وأخبار مكة ۱: ۱۳۴- ۱۵۴، والطبري وغيرها من كتب التاريخ والتفسير.

ص: ۲۴۴

قال تعالی أَلم ترَ کیف فعل ربّک بأصحاب الفیل* أَلم یجعل کیدهم فی تضلیل* وأرسل علیهم طیراً أبابیل* ترمیهم بحجارة من سجیل* فجعلهم کعصفٍ مأکول (۱)

.یقول د. طه حسین فی کتابه «مرآة الإسلام»: «وفی هذه الموقعة أظهر عبدالمطلب من الصبر والجلد، ومن الشجاعة والثقة ما لم یظهره غیره من أشراف قریش، ذلک أنه قد أشار علی قریش أن تخلی مکة، فسمع له قومه، وأقام هو بمکة لم یعتزلها، وإنما أقام عند الکعبة یدعو اللَّه ویستنصره. ویقول الرواة: إنّ الجیش أغار علی إبل قریش فاحتازها، وجاء عبدالمطلب إلی إبرهة، ولما دخل علیه لم یکلمه إلّافی إبلٍ له، فصغر فی نفس إبرهة وقال له: کنتُ أظن أنک تکلمنی فی شأن مکة، وشأن هذا البیت الذی تعظمونه. قال عبدالمطلب: إنی أکلمک فی مالی الذی أملکهُ، أما البیت فإنّ له ربّاً یحمیه إن شاء. فأرسل اللَّه علی إبرهة وجیشه من تلک الطیر، التی ترمیهم بحجارة من سجیل فجعلهم کعصفٍ مأکول، وعادت قریش إلی مکة، فازداد إکبارهم لعبدالمطلب وشجاعته وثقته وثباته» (۲).

وبذلک حمی اللَّه تعالی بیته من إبرهة ومن کلّ من نوی لها سوءاً. وهکذا صمدت الکعبة الشریفة فی وجه أکبر الحوادث التاریخیة حیث فشلوا فی خرابها والقضاء علیها.

بعثة محمد صلی الله علیه و آله وفریضة الحج

ولد محمد بن عبداللَّه بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصی بن حکیم (کلاب) بن مرة بن کعب بن لؤی بن غالب بن فهر بن مالک بن النضر بن کنانة بن

۱- ۱ الفیل: ۱- ۵.

۲- ۲ نقله محمد جواد مغنیة فی تفسیر الکاشف ۷: ۶۱۰، عن مرآة الاسلام، د. طه حسین.

ص: ۲۴۵

خزيمة بن مدركة بن اللياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان بن أدد، وينتهى نسبهُ الشريف إلى اسماعيل بن ابراهيم عليهما السلام (۱)، ولد فى مكة وهى أشرف بقاع العالم، ولم يولد نبىّ قبله ولا بعده- حسب اطلاعنا- فى هذه البقعة المباركة الشريفة إلّا هو، وقد شرّفه اللَّه تعالى وكرّمه وجعله سيد البشر وسيد الأنبياء وخاتمهم وجعل تابعيه خير أمّة أخرجت للناس، وبعثه فى عامه الأربعين فى محل ولادته نبياً للناس كافة، قال تعالى

وما أرسلناك إلّاكافةً للناس بشيراً ونذيراً ولكن أكثر الناس لا يعلمون (۲)

.بُعث صلى الله عليه و آله فى قوم يعبدون الأصنام فى البيت الحرام، وكانت أصنامهم أساس الحياة خصوصاً عند قريش زعيمة العرب فى مكة آنذاك، إذ كانت القرابين تقدم لهذه الأصنام، وفى ذلك مصلحة اقتصادية وأدبية لقريش التى كانت تحمى الدار، فالقضاء على «الدين الوثنى» يعنى القضاء على منافع قريش وزعامتها.

لذلك كانت مهمة رسول اللَّه صلى الله عليه و آله فى نشر الدين الجديد مهمة شاقة جدّاً، كمهمة أبيه ابراهيم عليه السلام، فقد ندّد بالوثنية والمعتقدات التى لا تتلاقى مع وحدانية اللَّه، وأظهر فساد نظمهم الاجتماعية، مما أثار غضب قريش عليه ومقاومتها إياه مقاومة شديدة حتى قال صلى الله عليه و آله: «ما أوذى نبىّ مثل ما أوذيت».

ومضى محمد صلى الله عليه و آله يواصل الدعوة بثقة، ومضت الصفوة من الدعاة تواصل السير معه وتترسم خطاه المباركة، وقد أعيى قريشاً إصرارُ محمد صلى الله عليه و آله وأصحابه على تحدّيها فراحت تجدُّ فى تحطيم دعوته وتعذيب المؤمنين به، مما اضطره للهجرة

۱- ۱ الاعلام، الزركلى.

۲- ۲ سبأ: ۲۸.

ص: ۲۴۶

إلى يثرب، بعد أن هاجر مئتا مسلم بإذنٍ منه صلى الله عليه و آله قبل هجرته بشهرين، قسمٌ منهم هاجر إلى الحبشة، وقسمٌ آخر إلى المدينة. ثم استقر الجميع فى المدينة التى كانت تسمّى ب «يثرب» (۱) قبل هجرته صلى الله عليه و آله وتشرّفها به فسمّيت «مدينة الرسول».

وحين وصول النبىّ الأكرم إليها شرع ببناء الدولة الإسلامية حيث توفرت له عناصرها- الأرض، الأمة، السلطة السياسية المتمثلة بقيادته الحكيمة-، فأسس المسجد؛ ليكون منطلقاً للقيادة ومركزاً لبناء الدولة إلى جانب مهام المسجد العبادية والفكرية، وقد تمثل بناء الدولة فى الخطة الحكيمة التى وضعها رسول اللّه فى بناء الجبهة الداخلية بمؤاخاة المهاجرين والأنصار، والمساواة بينهم فى الحقوق والواجبات، وعقد معاهدة مع اليهود بعدم الاعتداء، ثم تكوين الجيش المسلم والقوة المسلحة للجهاد فى سبيل اللّه، وبناء جهاز إدارى متين، وعلاقات خارجية ببعث رسائل إلى بعض الملوك والحكام وغيرها من الأمور.

والذى يهمنا هنا أنّ الرسول صلى الله عليه و آله أصبح قوة لا تستطيع قريش مقابلتها، فجهّز جيشاً من عشرة آلاف مقاتل وسار سرّاً ليباغت قريشاً، وليصادر إمكانية الدفاع من يدها، ولئلا يقع قتال فى مكة الأمن والسلام.

وتحرك جيش محمد صلى الله عليه و آله صوب مكة فى العاشر من رمضان سنة ثمان للهجرة، واستخدم حرباً نفسية بإشعال النيران فى الصحراء على مقربة من مكة؛ ليُشعر قريشاً بقوة الجيش الإسلامى، ويثير الرعب فى نفوس طغاتها، ويحملهم على الاستسلام والخضوع من غير قتال (۲).

وهكذا دخل رسول اللّه صلى الله عليه و آله- الذى خرج من مكة مستخفياً يطارده كفارها-

---

۱- ۱ يثرب: مدينة زراعية تقع على بُعد أربعمائة وخمسين كيلومتراً إلى الشمال من مكة المكرمة.

۲- ۲ راجع تاريخ الطبرى، ومروج الذهب، وقصة الحضارة وغيرها من كتب التاريخ فى فتح مكّة.

ص: ۲۴۷

دخل فاتحاً محطّماً أعظم حصون الشرک والجاهلیة، ولم یستطع الذین حاربوه طوال واحد وعشرین عاماً أن یصمدوا أمام قوة الإیمان الزاحفة، فاستسلموا، وأتوا إلیه مذعنین، ودفعوا إلیه الجزیة التی فرضها علیهم صاغرین منکسرین.

وبهذا ثبتت الدولة والدعوة وأرکانها فی الجزیرة وتحقق الفتح المبین، واستلم الرسول صلی الله علیه و آله ولایة الکعبة وحطّم أصنامها، وصار یُطافُ بها کما طاف ابراهیم وابنه اسماعیل علیهم السلام من قبل حوالی خمسة آلاف من السنین، واستُجیبت دعوة ابراهیم علیه السلام: ربّنا وابعث فیهم رسولًا منهم یتلو علیهم آیاتک ویُعلمهم الکتاب والحکمة ویُزکّیهم... (۱)

.وأذّن محمد صلی الله علیه و آله بالناس للحج، کما أذّن جده ابراهیم ودعاهم إلیه، وعادت مناسک الحج الإبراهیمی کما خطّها جبرئیل لإبراهیم علیه السلام بإذن السماء...

الکعبة أحبّ بقاع الأرض إلی اللّه

لقد ورد فی الروایات الشریفة، عن خاتم الأنبیاء والرسل محمد صلی الله علیه و آله وعن آله الأطهار: أنّ أحبّ بقاع الأرض إلی اللّه تعالی هی الکعبة الشریفة. إضافةً إلی ما أشارت إلیه الآیات القرآنیة کما ذکرنا سابقاً...

قال رسول اللّه صلی الله علیه و آله حین هجرته إلی یثرب ملتفتاً وراءه ناظراً إلی الکعبة الشریفة مناجیاً إیاها: «واللّه إنّک لأحبّ البقاع إلی اللّه، ولولا أنّی أُخرجتُ منک ما خرجت» (۲).

وروی عن الإمام الصادق علیه السلام قال: «أحبّ الأرض إلی اللّه عزّوجلّ مکة، ما

۱- ۱ البقرة: ۱۲۹.

۲- ۲ أخبار مکة، الأزرقی ۱: ۵، ونقلتها بعض کتب التفسیر منه کالکاشف والمیزان وغیرها.

ص: ۲۴۸

تربـة أحبُّ إلى اللَّه عزّوجلّ من تربتها، ولا حجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من حجرها، ولا شـجر أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من شـجرها، ولا جبال أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من جبالها، ولا ماء أحبُّ إلى اللَّه عزّوجل من مائها» (۱).

وقـال عليه السـلام أيضـاً: «مـا خلق اللَّه تبـارک وتعـالی بقعـةً فی الأـرض أحبّ إليه منها- وأومأ بيـده نحو الكعبـة- ولا أكرم على اللَّه عزّوجلّ منها، لها حرّم اللَّه الأشهر الحُرم فی كتابه يوم خلق السماوات والأرض» (۲).

وهنـاک روايـات أخرى نسـتغنی عن ذكرهـا ونكتفی بما ذكرنا، ويكفی أن نسـتنتج حبّ اللَّه تعالى للكعبـة الشـريفة ممّا يعطيه لزائرها وللحاج إليها... فقد جاء فی الصحيح:

«الحـاج ثلاـث أصـناف: صـنفٌ يُعتقُ من النـار، وصـنفٌ يخرج من ذنوبه كيوم ولـدته أمّه، وصـنفٌ يُحفظ فی أهله وماله وهو أدنى ما يرجع به الحاج» (۳).

الحج بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله

ومما تقدم يتضح أن ليس هناک فرقٌ بين حج أبی الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السـلام وحج خاتم الأنبياء الحبيب محمد صلى الله عليه و آله؛ وهو حجّ واحد أصيل... بعيد كلّ البعد عن الإضافات البشرية والزوائد واللواحق الخارجة عن الحج الحقيقی...

ولكن للزمـان معـاوله وأنيـابه، وللإنسـان أهواؤه ورغباته الدنيويـة... وقـد لعبت فی الأصول والمقـدسات فحرفتها وأخرجتها فی أحيان كثيرة عن خطّها الطبيعی الذی وضعه اللَّه تعالى ..

۱- ۱ المحجة البيضاء، الفيض الكاشانی ۲: ۱۵۲، والفقيه: ۲۱۵ تحت رقم ۸.

۲- ۲ المصدر السابق نقلًا عن الكافی، الكلينی ۴: ۲۵۳، والتهذيب ۱: ۲۴۸.

۳- ۳ المصدر السابق نقلًا عن الكافی، الكلينی ۴: ۲۵۳، والتهذيب ۱: ۲۴۸.

ص: ۲۴۹

فقد شَوَّه أو حَرَفَ هذا الخط الإلهى (الحج) كثيرٌ من ولاة الكعبة الشريفة وغيرهم ممن جاؤوا (۱) بعد النبى ابراهيم عليه السلام فجعلوه مجرد طقوس خاوية وأفعال مادية جسدية محدّدة، وأخرجوه من معناه الروحى والقدسى الذى أراده اللَّه تعالى ..

فلم تعد الكعبة ذلك الصرح الإلهى العظيم الذى أقامه النبى إبراهيم الخليل عليه السلام ووضع قواعده، والهدف الإلهى الذى استهدفه من تأسيسها...

وإنما أصبحت مركزاً ومقراً للأفكار والأوضاع التى حملها العرب فى العصر الجاهلى بما يحملون من روح وثنية من خلال إدخالهم الأصنام فيها وعبادتهم لها، والتقرب من خلالها إلى اللَّه زلفاً، أو مركزاً للأعاجم من فرس وغيرهم ممن لم يؤمنوا إيماناً صحيحاً، وإنما جاؤوا لإحياء ذكريات أو لأغراض أخرى غير دينية ولا إلهية من قبيل التجارة أو الترويح عن النفس، أو لقضاء الحاجة من خلال تقديم النذور والقرابين مما ورثوه من عادات وعقائد...

وهكذا ابتعد الحج عن أهدافه السامية الأولى الروحية والمعنوية، وصار مجرّد شكل ومظهر مادى لا مضمون فيه ولا روح...

وبُعث النور الأعظم، النبى محمد صلى الله عليه و آله وغيّر الدنيا، وغيّر المجتمع، وإذا بالكعبة والحج الأصيل نفسه يعيد مجده السالف التليد الذى أرساه النبى ابراهيم الخليل عليه السلام وأبناؤه وأحفاده المخلصون...

جاء محمد بن عبداللَّه صلى الله عليه و آله ليضع الحج فى موقعه المناسب، الحج الأبدى، ما دام الإنسان حيّاً يجرى على سطح الأرض...

۱- ۱ نقصد بالذين جاؤوا بعد النبى ابراهيم عليه السلام فى منطقة الجزيرة من السدنة والولاة والحكام، وليس الأنبياء بين ابراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه و آله؛ لأنهم حجوا إليها كما حج ابراهيم عليه السلام وهو ما مرّ علينا سابقاً.

ص: ۲۵۰

جاء الحج فى لمساته الأخيرة ركناً مرتبطاً كامل الارتباط بالخالق البارئ عزّوجلّ، وممتداً امتداداً طويلًا إلى كلّ إنسان يجرى فى المعمورة؛ ليصوغ منه شخصية اجتماعية تستمد من الحج (ذلك الاجتماع الكبير) مفاهيم صادقة وقيماً عالية، تنظر إلى الآخرين نظرتها إلى نفسها... باعتباره عبداً من ملايين العبيد للّه عزّوجل...

وهكذا عاد الحج الإبراهيمى على يد رسول اللّه صلى الله عليه و آله بعد أن ابتعد عن ابراهيم عليه السلام رويداً رويدا وخلف عن سلف كما قال تعالى فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غياً (۱)

۱- ۱ مريم: ۵۹.

ص: ۲۵۱

ص: ۲۵۲

ص: ۲۵۳

الفصل العاشر: الحج فى النظرية والتطبيق والمشتركات والاختلافات

اشارة

الحج فى الإسلام لا يتكامل أساساً إلّامن خلال عدد من الممارسات والأفعال الميدانية الخاصة، يستمد قوته وتكامله من مصدر غيبى إلهى يتمثّل بالقرآن الكريم والسُنة النبوية الشريفة، ومصادر التشريع الإسلامى الأخرى ..

وهو على هذا الأساس المبين يصبح كياناً مقدساً له أهميته فى الشريعة الإسلامية وحياة المسلمين.

ولا شك أنّ الحج فى الديانات الأخرى إذا خضع لضوابط ذلك الدين وشعائره وممارسته التى استمدها من مصدر إلهى يكون- وبالطبع فى وقته، قبل الديانات الناسخة، وقبل مجىء الدين الإسلامى- شرعياً ومرضياً للّهعزّوجلّ ومبرئاً للذمة.

من هنا تكون نقطة الالتقاء بين الحج فى الدين الإسلامى المجيد والحج فى الديانات السماوية الأخرى أما الديانات الوضعية فلا لقاءَ بينها وبين الحج الإسلامى أبداً؛ لأنها غير إلهية وغير شرعية فى الأساس.

والحقيقة التى لابد من تأكيدها هى: أنّ الحج حاجة فطرية شرعها اللَّه تعالى

ص: ۲۵۴

استجابة للفطرة التی فطر الناس علیها. وقد کان معروفاً فی الأدیان ومارسه الأنبیاء جمیعاً، منذ آدم علیه السلام حتی خاتمهم کما ذکرنا سابقاً، وفی الوقت نفسه مارسته الأدیان الوضعیة والجاهلیة کما ذکرنا أیضاً لحاجتها النفسیة إلیه، ومن هنا جاء الفارق الکبیر بین الحج السماوی والوضعی، فهو فی الحالة الوضعیة لم یجعله الواضع موافقاً لحاجة الإنسان الفطریة بالشکل المتکامل؛ لأنّ الواضع قاصر ومحدود.

وکما ذکرنا سابقاً أنّ الدیانات السماویة کالیهودیة والمسیحیة وجدنا حجّها قد تعدد فیه الزمان والمکان، واختُلقت طقوس خاصة بین المذاهب المتعددة، کلٌ حسب توجهاته واعتقاداته، وألزموا أنفسهم بحجٍّ حرفه الأسلاف أو بالأحری ابتدعه الأسلاف، أما الدین الإسلامی فقد جعل من هذه الفریضة کمال الدین ووحدة المسلمین ووحدة الزمان والمکان، وبکلمة أخری فالحج الإسلامی، الحج الأکمل والأصفی والمتعالی علی الزمان والمکان، صلح لأبناء الإسلام، أمام الدعوة الإسلامیة الأولی وهو الیوم کذلک وسیکون للأجیال المستقبلیة القادمة أیضاً کما بدأ أول مرّة. وهذا هو الفارق الأساس بین الحج الإسلامی وغیره.

ویظهر الفارق جلیاً عندما تحسُّ النفس أنّ الطقوس التی تمارسها مستمدة من المطلق ومرتبطة بالغیب، وسیحصل القائم بها علی خیر الدنیا والآخرة، أو أنها مجرد سفرة مریحة للنفس مرفهة لها عن همومها وآلامها بمسکن موقت مرتبط بالأرض.

وعلی هذا یمکن القول: إنّ الحج فی الإسلام هو رمز نموذجی جاء لتلبیة الحاجة النفسیة الروحیة الملحة داخل الانسان، والتی تندک فیها الفکرة والمضمون فیصیران کلًا واحداً، لا یتحملان الفصل والافتراق والتباعد، فالفصل بینهما یحوّل الشعیرة الإلهیة إلی طقس مجرّد، وعادة فارغة من المضمون والروح، عادة لا تتجاوز ذاتها ولا تشع بأی إیحاء، کما نشاهد ذلک عند غیر المسلمین فی حججهم

ص: ۲۵۵

واكتضاض طقوسهم ورموزها الخالية المجردة، والتى هى أقربُ إلى الترفيه والترويح عن النفس منها إلى الحج الحقيقى الأصيل الذى يدور محوره حول الانسان نفسه وسلوكه ومرضاة اللَّه.

وبناءً على هذا الفهم يمكننا أن نصنف الدلالات الحقيقية للحج والممارسات اللازمة له، ويمكننا أيضاً أن نبين نقاط الاشتراك والاختلاف بين الحج فى الإسلام والحج عند غير المسلمين بصورة عامة:

فقد اشتركوا واتفقوا مع الحج الإسلامى فى نقاط، واختلفوا وتباعدوا وافترقوا فى نقاط أخرى يمكننا أن نعرض بعضاً منها:

نقاط الإشتراک

١- تلبية حاجة انسانية ضرورية

الانسان فقير وبحاجة إلى غنى، وناقص وبحاجة إلى كامل، وضعيف وبحاجة الى قوى يسنده. فالمسلمون عرفوا الغنى الكامل والقوى واتجهوا إليه، ولبّوا ما شرعه لهم و فَفروا إلى اللَّه (١)

ليغرس فى نفوسهم الأمن والأمان والطمأنينة والسلام والحرية والكمال، فاتجهوا نحو الكعبة بيته العتيق ليستمدوا فيض هدًى منه ورشاد وسيل فوائد ومنافع دنيوية وأخروية، ويصبح لهم- الحج- سياج عزة ومنعة أمام أعدائهم...

أما غير المسلمين، أصحاب الديانات المحرفة والوضعية فقد أحسّوا بهذه الحاجة الفطرية واتجهوا إلى ما صوره خيالهم أنه هو الحق؛ ليكملوا نقصهم به ويغنوا فقرهم بطلب جماعى يشعرهم بالقوة والطمأنينة؛ لوجودهم معاً فى مكان

١- ١ الذاريات: ٥٠.

ص: ۲۵۶

مقدس یشعرهم بالراحهٔ النفسیهٔ والشفافیهٔ الروحانیهٔ بعیداً عن المطالب المادیهٔ المنهکهٔ للنفس...

وقـد اتفقت البشـریهٔ فی کلّ زمان ومکان علی أهمیـهٔ هـذه الزیارهٔ الجماعیـهٔ السـنویهٔ للفرد والمجتمع، وما لها من أثر علی الفرد نفسـه وعلی مجتمعه...

یقول د. حسن ظاظا: «ومن المؤکـد أنّ الانسان فی العصور السـحیقهٔ قبل التاریـخ، کان یرتاد بقاعاً من الأرض یجـد لها رهبهٔ، أو راحهٔ نفسـیهٔ، أو شـفافیهٔ روحانیـهٔ، یحلق بها فی آفاق أسـمی من المطالب المادیـهٔ التی تحاصـره. ثم تبلور هذا الشـعور فی العصور التاریخیهٔ القدیمهٔ... الخ» (۱).

والحـج فی الواقع حالـهٔ تعبّر عمّـا یموج فی نفس الانسـان من الحاجـهٔ إلی سـمو النفس وترفعها عن الحیاهٔ المادیـهٔ إلی الحیاهٔ المعنویهٔ والروحیـهٔ.. وعن الحیـاهٔ الفردیـهٔ إلی الحیـاهٔ الاجتماعیـهٔ الـتی تزیـد النفس قوهٔ واطمئنانـاً وراحـهٔ، ثم خروج الهموم والغموم من داخل الانسـان من خلال البوح بها إلی معبوده المتکامل، وأمور أخری نفسـیهٔ واجتماعیـهٔ، بالرغم من الصـعاب والمشاق التی یواجهها الحاج خلال سفره إلی الحج.

هذه الحالهٔ، هی صـفهٔ انسانیهٔ مشترکهٔ... وهی صـفهٔ أساسـیهٔ تنبع من الفطرهٔ کما ذکرنا فی مقدمهٔ الفصل؛ لذلک وجدنا الحج فی کلّ زمـان ومکان فی الـدیانات السـماویهٔ الأخری والأخری الوضـعیهٔ یحتاجه صاحب النفس الصادقـهٔ، والقلقـهٔ علی السواء، المتـدین وغیر المتـدین، وبکلمـهٔ واحـدهٔ: إنّ الحـج هو تلبیـهٔ روحیـهٔ مزیـدهٔ تشـبع النفس وتروی الروح، ومن ذهب إلی الحج ومارس شـعائره، یبقی یعیش فی هذه التلبیهٔ بکلّ معانیها...

۱- ۱ الفیصل، طقوس الحج عند الیهود، مقال د. حسن ظاظا، العدد ۲۱۰: ۹.

ص: ۲۵۷

۲- القصد والزيارة

يتفق حج غير المسلمين مع المسلمين فى القصد والزيارة إلى أماكن معينة فى وقت محدد؛ لأنّ للحج نية فى القصد لارتياد تلك البقعة أو ذلك المكان إضافةً إلى الأعمال المقدسة فيه.

والحج ليس حالة سائبة وإنما تنظيم شعائرى وعقيدى يرمز لأصحابه ومعتقديه والقائمين به.

والقصد والزيارة إلى أماكن الحج من المشتركات فى كلّ أنواع الحج فى موكب الحضارات والأُمم والأديان المختلفة، وهذا القصد لا يكون فردياً، بل من شروطه الجماعة والمكان والزمان والطقس أو الشعيرة، وإن لم تتحقق هذه اللوازم للحج لا- يكون حجّاً، بل زيارات عادية من الممكن أن تحصل فى أى وقت والى أى مكان...

الحقيقة أنّ الفرق بين الحالتين، هو الفرق بين قانون أو ناموس قد يكون إلهيّاً وقد يكون من وضع البشر، وبين حالة بشرية عادية غير مرتبطة بناموس أو مصدر قانونى محدد...

إنّ الصفة الأولى ثنائية الزمان والمكان والجماعة أو الطقس والشعيرة وهى ما يعبر عنها (بالحج) والصفة الثانية هى انعدام هذه اللوازم وهى ما يعبر عنها (بالزيارات العادية).

إذن فالحج عند الجميع إضافةً إلى قدسيته وأهميته العقائدية والدينية، هو حالة شعائرية مؤطرة بإطار يميزها عن كثير من العبادات التى يتميز الكثير منها بعدم القيود والأطر الخاصة.

فالانفراد مثلًا فى أى مكان مقدس مسجداً كان أو مزاراً أو كنيسة أو معبداً أو بيتاً مقدساً أو جبلًا أو... لا يمكن أن نطلق عليه حاجاً، وإن بذل العابد فيه كلّ

ص: ۲۵۸

طاقاته وکلّ ما یملک فی ذلک المکان...

إذن، فارتیاد مکان فی زمان متفق علیه مع الجماعهٔ التی تربطها رابطهٔ العقیدهٔ والدین وممارسهٔ شعائر ذلک المکان، من مشترکات الحج عند المسلمین وغیرهم.

۳- الطقوس والشعائر

یتمیز الحج عن غیره من العبادات الکثیرهٔ أنه عمل ذو فعالیات عدیدهٔ ومتنوعهٔ خلافاً لکثیر من العبادات المحدودهٔ. ومن لم یمارس هذه الفعالیات علی أصولها الشرعیهٔ وأحکامها الدقیقهٔ التی شرعها الشارع المقدس أو وضعها الواضع الأرضی، لا یمکن أن یُطلق علیه اسم (الحج) بأی حال من الأحوال.

والمقصود بالممارسهٔ هی أداء فعل معین محدد علی وفق ما وضحه الدین (۱) للناس، والذی لا یمکن التلاعب به وتغییره إلّافی حدود ما یسمح به ذلک الدین.

وممارسهٔ الطقوس والشعائر تتمثل بأعمال متنوعهٔ حسب طبیعهٔ ذلک الحج وموقعه فی دینه أو حضارته، فهناک إحرام، ولباس معین، وذبائح، وطواف، ونزول أماکن معینهٔ فی وقت خاص، وعدم ممارسهٔ فعل من المباحات التی یجوز الإتیان بها فی أیام غیر أیام الحج، أما فی الحج فتصبح حراماً، وما إلی ذلک من الأعمال التی وردت فی الدراسات التی تناولت الحج فی التاریخ.

ویمکن أن نستشهد بنقطهٔ اشتراک أساسیهٔ فی الحج عند أغلب الأمم والأدیان: الطواف وتقدیم القرابین والأضاحی اللّذان یعتبران عمودین من أعمدهٔ الحج، بل یمکن القول: إنهما قوام الحج عند مختلف الأدیان والأمم.

وبالطبع طقوس الحج وشعائره مرّهً تکون حقیقیهٔ أصلیهٔ، ومرهً تکون

۱- ۱ نقصد بالدین هنا: أی المعتقد إن کان سماویاً أو غیر سماوی.

ص: ۲۵۹

مقتبسة، وتارةً أخرى تكون ابتداعية مختلفة، وفى كلّ الأحوال، يمكن القول: إنَّ من أساسيات الحج هو ممارسة أفعال وشعائر وطقوس، وبها يصبح الحج حجّاً، من حيث الشكل والمسمى وهذه من مشتركات الحج عند الجميع عبر التاريخ البشرى...

۴- الدعاء وطلب الحاجة والغفران

ما أضعف الانسان!

ما أضعفهُ تجاه كلّ شىء، وتجاه قوى الطبيعة، تجاه نفسه، تجاه ما حوله..!

فكيف به تجاه المطلق خالق كلّ شىء، قوى الطبيعة والحيوانات و... والكون كلّه. وقد صدق القرآن المجيد حين قال: خلق الإنسان ضعيفاً (۱)

!؟

إذن فالانسان كائن ناقص ضعيف، وفى الوقت نفسه يمكن القول: إنه كائن خائف، إن انفرد وحده دون قوة تدعمه وتحميه، وكان الانسان القديم يخاف قوى الطبيعة، الأشجار، الجبال، النجوم، الكواكب... ولعله عبدها خوفاً من قوتها ولضعفه تجاهها.

وقد ورد فى القرآن الكريم هذا المعنى فقد داوى الاضطراب والخوف بالاستناد إلى اللَّه تعالى إلى القوة المطلقة العظمى حيث عالج كلّ ذلك بذكر اللَّه تعالى قال عزّوجل: ألا بذكر اللَّه تطمئن القلوب (۲)

والاطمئنان حاجة نفسية كبرى ..

وهذه الفريضة الجماعية فى الاسلام، أو هذا الموقف أو الحالة الجماعية التى يلجأ إليها الانسان فى الأديان الأخرى ماذا تعنى؟ لا شك أنها تعنى أنّ هناك

۱- ۱ النساء: ۲۸.

۲- ۲ الرعد: ۲۸.

ص: ۲۶۰

حاجة نفسية فطرية أولًا- كما ذكرنا- ونواقص بشرية كثيرة يحاول الانسان أن يسدّها بمختلف الأسباب والأعمال والجهود لحبّه الفطرى للكمال، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فقد سعى الانسان ومنذ القدم، منذ عرف الحج أن يطلب ممن يقصده ويعتقد بقدسيته أن يقضى حاجاته ويغفر ذنوبه وسيئاته ويرزقه ما يسعده، إضافةً إلى حاجاتٍ كثيرة لا تنقضى بالحالات الاعتيادية والطاقات المحدودة.

فالنفس صاغية إلى ربّها والى معتقدها، وأى مطلب أهم من أن تطلب حاجاتها؟ فهذه الصفة مشتركة ومهمة أساسية من أساسيات الحج عبر القرون الطويلة والتاريخ الانسانى المديد...

۵- التقرب للمعبود

إذا أحبّ الانسان شخصاً أياً كانت درجته، نوعه، غناه، فقره، يحاول التقرب إليه والتحبب إلى حضرته بشتى السبل، ببذل المال، ببذل النفس، ببذل الجهد...

بكلّ إمكاناته المتوافرة بين يديه، ولا شك أن درجة التقرب تعتمد أساساً على قيمة ذلك المُتقرب إليه... فعلى قدر مستواه، تأتى درجة التقرب، فالانسان الطيب النفس يُتقرب له بدرجة معينة، والوالى الكريم بدرجة أكبر، والأنبياء والرسل لا شك تكون درجة التقرب لهم أكبر وأعظم... وهكذا...

فكيف بنا- نحن البشر- إن كان المُتقرب إليه هو اللّه تعالى خالقنا وبارئنا ومانحنا الحياة والوجود، وكلّ هذه النعم الظاهرية والباطنية؟!

إنها الدرجة الكبرى الدرجة المطلقة من التقرب؛ لأنه مطلق لا حدود لكرمه ونعمه.

ولكن أين يتقرب العبد إلى ربّه وخالقه...؟ لا شك أنه يتقرب إلى أحبّ شيء

ص: ۲۶۱

إليه وأحبّ مكان إليه، وأحبّ مكان إلى اللَّه عزّوجلّ منذ أن دحا الأرض- كما ذكرنا- هى بيته الحرام الذى جعله مثابةً للناس وقياماً لهم... هذا بالنسبة لمن أطاع ابراهيم عليه السلام وحفيده محمداً صلى الله عليه و آله وامتثل لأمر السماء وسُنة الأنبياء كما لاحظنا سابقاً.

أما حال غير المسلمين فهو مشابه إلى هذا، فلو رجعنا إلى اليهود مثلًا نجدهم يتقربون إلى اللَّه تعالى فى حجهم، رغم بِدعتهم للمكان والزمان، والنصارى كذلك، أما الأغلبية من النصارى فقد جعلوا مريم عليها السلام والسيد المسيح عيسى عليه السلام واسطةً بينهم وبين اللَّه وهو ما ذكرناه، كما فعلت بعض القبائل العربية فى الجاهلية بوضعهم الأصنام والأوثان واسطة بينهم وبين اللَّه...

أما غير الديانات السماوية فقد تقربوا فى حجهم إلى آلهتهم المختارة... وبذلك يكون من أساسيات الحج التقرب إلى المعبود سواء كان معبوداً حقيقياً أم خيالياً أو مصنوعاً.

وهذه النقطة الحساسة من مشتركات الحج عند الجميع مع فارق واسع بينهم وبين المسلمين.

فالحج عند المسلمين يأتى قمة التقرب إلى المعبود (اللَّه عزّوجل)، فهو- التقرب فى الحج- تجسيد لأحوال الحاج الباحث عن ربّه المتوجّه إليه أينما حلَّ وارتحل، يلتمس سبيل الوصول إليه ويتعرض لأنفاس رحمته، فالحاجّ منذ اللحظات الأولى التى ينوى فيها الحج ويرحل عن الأهل والدنيا وينقطع عن كلّ ما يجذبه إلى الدنيا، حتى الإحرام من الميقات فالطواف فالوقوف فالرمى، وفى كلّ حالٍّ ومرتحل له يبحث عن اللَّه ويطلب الزلفى إليه والقرب منه، فهو ضيفه الذى لبّى دعوة التوحيد كما لبت الأنبياء والرسل فى أعماق التاريخ، وحجت إلى البيت الحرام والكعبة الشريفة.

ص: ۲۶۲

۶- القرابین والأضاحی

عادة القرابین والأضـحیة، عادة بشـریة قدیمة، عرفها الانسان منذ عرف العبادة، فکانت إحدی أهم وسائل التقرب إلی المعبود، أیاً کان نوعه... والحقیقة نحن لا نعرف البدایة الأولی للأضاحی البشریة...

لکنّا نعرف أنّ کـلّ الحضـارات مـارست هـذا الطقس لتفتـدی الأحیـاء البـاقین من البشـر، وقـد کـانت أبشع الأضاحی والقرابین تلک القرابین البشـریة التی کان یذبـح فیها الضـحیة فداءً لإله مادی حجراً کان أو شـجراً أو ظاهرةً کونیةً طبیعیةً، وقد کانت هذه الحالة علی أشدّها فی حضارة أمریکا الوسـطی (المایا والأزتک) فکان الکهنة فی هذه الحضارة یأخذون الضحیة إلی قمة هرم المعبد، فیتقربون به إلی الإله (۱).

وکانت بدایـة فکرة القربان، هی الخوف من الموت الجماعی: فأخـذ الإنسان البـدائی یضـحی بالانسان کحلّ لهـذه الاشـکالیة العقلیة، حتی جاء دور إسـماعیل الولد الوحید والحبیب لنبی اللَّه إبراهیم علیه السـلام، فتأمر السماء إبراهیم علیه السلام أن ینحر ولده فی موسم الحج، وعندما عزم صادقاً من أعماق قلبه راضیاً بقضاء اللَّه تعالی بالتضیحة بولده، وتلّه للجبین ممراً المدیة علی نحر ولده، نودیَ: أن یا إبراهیم* قد صدّقت الرؤیا إنا کذلک نجزی المحسنین* إنّ هذا لهو البلاء المبین* وفدیناه بِذَبح عظیم (۲)

.وجاء الإعلان بالفداء الحقیقی أو التضحیة الواقعیة وهی ذبح الأنعام فی حالة

۱- ۱ انظر الفیصل، د. خالص جلبی، مقال: یوم الحج الأکبر، یوم میثاق السلام العالمی، العدد ۲۵۸: ۲۲- ۲۵.

۲- ۲ الصافات: ۱۰۴- ۱۰۷.

ص: ۲۶۳

التقرب والفداء، وكان هذا درساً للبشرية، درساً عظيماً، لكنَّ أكثر الناس لا يعلمون هذا المعنى وبقى أكثر الناس على حاله فى التضحية البشرية، وغلب عليهم عنادهم وشيطانهم على مدى الحضارات- كما ذكرنا سابقاً-، يقدمون الضحايا البشرية تقرباً للمعبود وحتى إنّ بعض المنتمين إلى الأديان السماوية كاليهود والنصارى يمارسون هذه العادة السيئة والبشعة لفترة طويلة من الزمن.

ولما جاء دور (الضحية) فى الاسلام وجاء معه الإعلان القرآنى بإيقاف «القربان البشرى» فى أى صورة هو، فى تضاعيفه إعلان ضمنى للسلام العالمى، وإذا كان ولابدّ فليضحَّ بالحيوان كرمز للقربان القديم، وتذكيره بالمرض القديم، مرض التضحية بالإنسان فى أى صورة من الصور (۱).

إذن، فالكلّ يضحى فى الحج إن كان بالانسان أو الحيوان، وهذه عادة قديمة جدّاً، بل من أساسيات الحج، ولم نقرأ حجّاً فى التاريخ لم يكن ضمن تعاليمه الضحية والقربان. وهذه نقطة أخرى من المشتركات بين أنواع الحج فى التاريخ.

۷- التعظيم للشعائر

الشعيرة فى اللغة: هى العلاقة (۲)، وهى هوية الجماعة وبيان انتمائها وتميزها عن الجماعات الأخرى والحقيقة أن الشعائر هى تعبير عن المظهر الخارجى للجماعة التى تربطها مصالح أو عقيدة أو فكرة مما تتبناه، فالشعائر إحدى الوسائل التى اعتمدها الانسان للتعبير عن عقائده، وقد ولدت بمولد الانسان على هذه الأرض، وارتبطت به، ورافقته خلال مراحل حياته المختلفة، وجمعت بين الايجابى

۱- ۱ الفيصل، د. خالص جلبى، مصدر سابق.

۲- ۲ لسان العرب، ابن منظور، مادة شعر، قم. منشورات أدب الحوزة. ايران.

ص: ۲۶۴

والسلبی، بین المفید وغیر المفید، والمعقول وغیر المعقول. فقد کانت الشعائر قبل الاسلام موزعهٔ علی عقائد شتی وکانت حصیلهٔ ما یعتقد به الانسان حول الکون والحیاهٔ والآخرهٔ والآلهٔهٔ والأرض و...

وقد اشترک الناس فی تعظیمهم لشعائرهم فی موسم الحج؛ لأنه مصدر إعلامی للمعتقد، ومصدرٌ یبرز فیه الانسان محبته ومدی تقربه وتقواه لمعتقده، وفیه مآربُ أخری نستغنی عن ذکرها هنا...

وقد تکون أصل الشعیرهٔ سماویهٔ ویقتبسها دین وضعی ویتبناها لینسبها إلیه، وبمرور الزمن تفقد الشعیرهٔ معناها ومغزاها، حتی یأتی أمر السماء ثانیهٔ فی تثبیتها، کما حصل ذلک عند المسلمین حین ظنوا أنّ الصفا والمروهٔ من أفعال الجاهلیهٔ؛ لأنّهم فی الجاهلیهٔ کانوا یسعون ویطوفون بهما مع وجود الأصنام علیهما. فأنزل اللَّه تعالی

إنَّ الصفا والمروهٔ من شعائر اللَّه (۱)

و من یعظّم شعائر اللَّه فإنها من تقوی القلوب (۲)

؛ لیبین للمسلمین أنها لیست من بدع الجاهلیهٔ، وإنما اقتبست من الحج الابراهیمی الأصیل، ونُسبت لأفعال الجاهلیهٔ.

فجاء الاسلام بدستوره العظیم- القرآن الکریم- لیبین أنّ هناک نوعین من الشعائر، منها للَّهومنها لغیر اللَّه، فمیز التی کانت للَّهوعدّها من تقوی القلوب، وصار للشعائر فی الحج وظائف خاصهٔ منبثقهٔ من عقیدهٔ التوحید، وقائمهٔ علیها، وأصبحت ممارستها وتعظیمها یجسّد تقوی الفرد وإیمانه ومدی ارتباطه باللَّه تعالی علی العکس من شعائر غیر اللَّه التی تکون إما اقتباساً- کما ذکرنا سابقاً- أو بدعهٔ یبتدعها انسان، وبمرور الزمن تتحول إلی عقیدهٔ، وتثبت لتتعامل معها الأجیال اللاحقهٔ المقلدهٔ للسلف، وتکون عقیدهٔ راسخهٔ لا تنفک عن الدین المتبع.

۱- ۱ الحج: ۳۲.

۲- ۲ الحج: ۳۲.

ص: ۲۶۵

إذن، فهذه نقطة اشتراک بين الحج الإسلامی وغير الإسلامی، ويمکن القول:

إنّ تعظيم الشعائر من صميم فکرة الحج وأفعاله، فکلّ الأمم والأديان تعظم شعائرها، وتبرز عقائدها من خلال الحج.

نقاط الاختلاف

اشارة

ومما سبق عرفنا المشترکات بين الحج الإسلامی والحج عند الأمم والأديان الأخرى والآن نستعرض نقاط الاختلاف بين الاثنين:

۱ – الانحراف عن خط الأنبياء والرسل

عرفنا مما سبق أنّ الأنبياء جميعاً وبدون استثناء توجهوا إلى الکعبة الشريفة فی حجهم، ولم يرد نصّ واحد يذکر أنّ نبياً من الأنبياء اتخذ له وجهة أخرى فی حجّه غير الکعبة، کالبيت المقدس مثلًا أو أی مکانٍ آخر...

وعلى هذا فإن حج غير المسلمين انحراف عن خط الأنبياء، وطريقهم الذی لا ريب فيه ولا شک. ومن الواضح أنّهم بُعثوا لخير البشر وهدايتهم ومحاربة الشرک وعبادة الأصنام، ولفهم هذا الأمر بشکل واضح يکفينا قراءة هذه الآية الشريفة:

وما أرسلنا من قبلک من رسول إلّانوحی إليه أنّه لا إله إلّاأنا فاعبدون (۱)

.وفی هذه الآية نجد توضيحاً جلياً لمهمة الأنبياء فی إزالة مظاهر الشرک بأنواعه فی کلّ آنٍ ومکان...

۱- ۱ الانبياء: ۲۵.

ص: ۲۶۶

وعلی هذا الأساس فالانحراف عن خط الأنبیاء والرسل هو الضلال المبین والتیه والضیاع والانحراف عن جادهٔ الحق.

وقد انحرف أکثر البشر فی الحج- کما رأینا ذلک فی الفصول السابقهٔ- انحرفوا عن الخط الصحیح؛ خط الأنبیاء والرسل فی التوجه فی الحج إلی بیت اللَّه الحرام، واتخذوا لهم وجهات متعددهٔ وأماکن مختلفهٔ کما قرأنا ذلک فی الفصول السابقهٔ فی حج الأمم والحضارات وحج الیهود والنصاری کلّ ذلک یُعدُّ ابتعاداً وانحرافاً عن الخط الذی رسمه اللَّه تعالی للأنبیاء، والذی أمرهم بتبلیغه للبشر، فمن لم یمتثل لهم فقد ضلَّ ضلالًا بعیداً وانحرف انحرافاً کبیراً، ولعلّ هذه أهم نقطهٔ اختلاف بین الحج عند المسلمین والحج عند غیرهم.

۲- التقلید الأعمی

وإذا قیل لهم اتبعوا ما أنزل اللَّه قالوا بل نتبع ما ألفینا علیه آباءنا أولو کان آباؤهم لا یعقلون شیئاً ولا یهتدون (۱)

.«الإلفاء، الوجدان أی وجدنا علیه آباءنا... وبیانه أنه قول بغیر علم ولا- تبیّن، وینافیه صریح العقل فإنّ قولهم: بل نتبع ما ألفینا علیه آباءنا، قول مطلق، أی نتبع آباءنا علی أی حال وعلی أی وصف کانوا، حتی لو لم یعلموا شیئاً ولم یهتدوا ونقول ما فعلوه حقّ، وهذا هو القول بغیر علم، ویؤدی إلی القول بما لا یقول به عاقل لو تنبه له ولو کانوا اتبعوا آباءهم فیما عملوه واهتدوا فیه وهم یعلمون: أنهم علموا واهتدوا فیه لم یکن من قبیل الاهتداء بغیر علم» (۲).

۱- ۱ البقرهٔ: ۱۷۰.

۲- ۲ المیزان فی تفسیر القرآن ۱: ۴۱۸.

ص: ۲۶۷

إن اتباع السلف بدون تفكير وتعقل لا شك يؤدى إلى الانحراف والابتعاد عن الحقيقة؛ لأنّ فى السلف الغث والسمين والصحيح والخطأ. وعليه فالحكمة والطريق الصحيح هو انتقاء الصحيح والمناسب الذى يُرضى اللّه تعالى ويحقق المصلحة والإيمان الذى أمر به اللّه عزّوجلّ، وإلّا عاش الانسان الجهل والخرافة كما عاش الأجداد، وبالنتيجة فهو بعيد عن الخط الصحيح الذى يرضى اللّه تعالى والأنبياء والرسل عليهم صلوات اللّه وسلامه.

وهذه نقطة مهمة أيضاً من نقاط الاختلاف بين حج المسلمين وحج غير المسلمين، حيث إنّ المسلمين اتبعوا سُنة محمد صلى الله عليه و آله فى الحج، وغيرهم اتبعوا آباءهم وأجدادهم فى الضلال والانحراف، واعتبروا سُنة الاجداد والآباء سُنة الحق والصواب، واتخذوا بيوتاً لهم غير بيت اللّه، وحجوا وطافوا، وقدموا القرابين والأضاحى، وأتعبوا أنفسهم بأمور لا تضر ولا تنفع، بل فى أحيان كثيرة تضرّ دنيا الانسان الطالب لها بالاضافة إلى آخرته.

۳- البِدع والخرافات

البِدعة: إدخال ما ليس من الدين فى الدين (۱).

الخرافة: اعتقاد أو فكرة لا تتفق مع الواقع الموضوعى بل تتعارض معه (۲).

والخرافة مفهوم عام يشمل عدداً من الأفكار غير العلمية، يشمل الشعوذات والأساطير والأوهام والفأل، ويرتبط بالخيال والكذب والابتعاد عن الواقع الموضوعى (۳).

۱- ۱ البِدعة، د. الشيخ جعفر الباقرى: ۱۳۶.

۲- ۲ التفكير الخرافى بحث تجريبى، منصور ابراهيم: ۱۸.

۳- ۳ مكانة الفلك والتنجيم، عبدالأمير المؤمن: ۲۸۰.

ص: ۲۶۸

ولو رجعنا إلى الفصول السابقة واستقرأنا خزعبلات الأمم السابقة فى الحج فلا نراها إلّامجموعة من البِدع والخرافات والاساطير والألاعيب والأكاذيب، وأحكام لم ينزل اللَّه بها من سلطان. وبهذا تحدث البدعة.

قال النبى صلى الله عليه و آله: «لا يذهب من السُنة شىء، حتى يظهر من البِدعة مثله، حتى تذهب السُنة، تظهر البِدعة، حتى يستوفى البِدعة من لا يعرف السُنة» (۱).

وقال صلى الله عليه و آله أيضاً: ما من أُمة ابتدعت بعد نبيها فى دينها بِدعة، إلّاأضاعت مثلها من السُنة» (۲).

كما قال الإمام على عليه السلام: «ما أحدثت بِدعة إلّاتُرك بها سُنة» (۳).

وقد مرَّ علينا ابتداع سُنة الحج إلى بيت المقدس وغيره عند اليهود والنصارى وأسباب نشوئها، وذكرنا أنها إما اسطورة خيالية أو خرافية أو نتيجة أوهام وكذب أو لمصلحة سياسية أو اجتماعية أو عنصرية، وما إلى ذلك من الخزعبلات...

يقول العلامة الطباطبائى: «وربما هيّج الخيال حسن الدفاع عن الانسان أو يضع أعمالًا لدفع شر هذا الموجود الموهوم ويحث غيره على العمل بها؛ للأمن من شره فيذهب سُنة خرافية. ولم يزل الانسان منذ أقدم أعصار حياته مبتلى بآراء خرافية حتى اليوم، وليس كما يظن من أنها من خصائص الشرقيين، فهى موجودة بين الغربيين مثلهم لو لم يكونوا أحرص عليها منهم» (۴).

إذن فالحج عند غير المسلمين هو مجموعة من الخيالات والبِدع والخرافات

۱- ۱ كنز العمال، علاء الدين الهندى ۱: ۲۲۲. ح ۱۱۱۹.

۲- ۲ المصدر السابق: ۳۱۹، ح ۱۰۱.

۳- ۳ نهج البلاغة، الخطبة ۱۴۵.

۴- ۴ الميزان فى تفسير القرآن ۱: ۴۲۲.

ص: ۲۶۹

یدخل فیها عامل العنصریهٔ؛ لیکون حجّاً مستقلًا عن بیت اللَّه الحرام الذی فرض حجه منذ زمن آدم علیه السلام.

۴- الشرک باللّه ومعصیته

الحج فی نظر الاسلام إعلان العبودیهٔ والولاء للّهوحده لا شریک له، والتحرر من کلّ آثار الشرک والجاهلیهٔ، بطریقهٔ جماعیهٔ حرکیهٔ، تؤثر فی النفس، وتشبع المشاعر والأحاسیس بمستوحیات الایمان، ومدالیل التوحید، وإذا خالف الحج هذا الإعلان فلا یمکن أن یسمی حجّاً، بل إجهاد النفس فی مقابل اللاشیء، کما یقول القرآن الکریم: والذین کفروا أعمالهم کسراب بقیعهٔ یحسبُهُ الضمآنُ مآءً حتی إذا جآءَهُ لم یجدهُ شیئاً ووجد اللَّه عنده فوفّاه حِسابَهُ واللَّه سَریع الحساب (۱)

.فأصحاب الأدیان الوضعیهٔ أشرکوا باللَّه فی حجّهم وأتعبوا أنفسهم وبذلوا أموالهم فی سبیل أحجار صامتهٔ لا تنفع ولا تضر، وأصحاب الدیانات السماویهٔ کالیهود والنصاری جعلوا واسطهٔ بینهم وبین اللَّه عزّوجلّ وجعلوها تقربهم إلیه، والنصّ التوراتی التالی یؤید کلامنا: «فأقبل رؤساء الیهود وسجدوا للملک، فأقرّهم علی ذلک، ثم ترکوا (بیت الرب) إله آبائهم وعبدوا عشتروت وسائر الأصنام، فحلّ غضبٌ علی یهوذا وأورشلیم لأجل معصیتهم هذه، فأرسل إلیهم أنبیاء لیردوهم إلی الرب. وأشهدوا علیهم فلم یسمعوا. وفاض روح اللَّه علی زکریا بن یویاداع الکاهن. فوقف أمام العشب وقال لهم: هکذا قال اللَّه: لِمَ تتعدون وصایا الربّ؟ إنکم لا تفلحون لأنکم

۱- ۱ النور: ۳۹.

ص: ۲۷۰

ترکتم الربّ، فترککم. فتجمعوا علیه ورجموه بالحجارة بأمر الملک وفی داخل بیت الرب» (۱).

والقرآن الکریم یبین أنّ بعض الناس یأخذون إحدی مخلوقات اللَّه تعالی من ناس أو حجارة أو غیر ذلک ویحبونها ویجعلونها نِدّاً للَّه‌تعالی ویتقربون إلیها کأنها خالقهم وصاحب نعمتهم.

یقول اللَّه تعالی فی القرآن الکریم: ومن الناس من یتخذ من دون اللَّه أنداداً یحبونهم کحب اللَّه والذین آمنوا أشدُّ حُباً للَّه‌ولو یری الذین ظلموا إذ یرونَ العذاب أنّ القُوةَ للَّه‌جمیعاً وأنّ اللَّه شدیدُ العذاب (۲)

.والندُّ هنا: یعنی الشریک والمماثل، وتصف الآیة الکریمة الذین یجعلون ندّاً للَّه، بالظالمین، یطیعون الند ویثقون به ویتوکلون علیه، ویتصورون أنه دفع عنهم الشر ویأتیهم بالخیر.

والآیة الکریمة أعلاه تبین أنّ هناک فریقاً آخر آمنوا باللَّه وکان حبّهم للَّه‌أشدَّ من حب الظالمین للشرکاء.

وهذا فرقٌ کبیر بین الحج عند المسلمین وحجّ من أشرک باللَّه تعالی من خلال هذه العبادة الجماعیة الکبری وفرقٌ عظیم؛ لأنّ الحج هو العبادة الخالصة للَّه، وحجّ هؤلاء یفتقد لهذا الشرط العظیم...

۵- الازدواجیة فی ممارسة طقوس الحج

أصل الحج تشریع إلهی، وشاع فی زمن النبی ابراهیم علیه السلام، ومن الصعب الوصول عبر النصوص أو الوثائق الباقیة أو الآثار إلی ما یمکن رسم حقیقة ما

۱- ۱ سفر أخبار الأیام الثانی، الاصحاح ۲۴، الفقرات ۱۷- ۲۱.

۲- ۲ البقرة: ۱۶۵.

ص: ۲۷۱

مارسه الأنبياء من أفعال قبل الخليل ابراهيم عليه السلام وبعده، وكلّ ما وصل إلينا بالشكل الواضح وعن طريق القرآن الكريم والسُّنة الشريفة هو الحج الإبراهيمى وما بقى من آثاره عند الجاهلية ثم الحج المحمدى.

والثابت عندنا أنّ جميع الأمم والأديان مارست الحج رغم ابتعادها وانحرافها عن سُنة الأنبياء، مارسته بالشكل الذى حلى لها... فكان فى بعض الأحيان يتخلله رقص وموسيقى ويقارن الذهاب إلى المكان المقدس شرب الخمر والفساد الأخلاقى وغيرها...

ولو استقرأنا طقوس الحج عند المنحرفين عن خط الأنبياء والرسل؛ لوجدنا الازدواجية فى ممارسة طقوس الحج واضحة، أوضح من نارٍ على علم، وإن دلَّ هذا على شيء، فإنما يدل على قصر الإنسان حين يُشرّع أمراً هو للّهوحده فى الأصل باعتباره عبادة يتقرب بها العبد إلى ربّه.

يقول د. حسن ظاظا فى وصفه طقوس الحج عند اليهود: «ويبدو أنّ وصول بنى إسرائيل إلى أماكن الحج كان مصحوباً برقص جماعى، وموسيقى إيقاعية احتفالًا بالوصول إلى المكان المقدس عندهم، بل كثيراً ما كانوا يشربون الخمر إلى درجة السكر البيّن» (۱).

۶- تعدد المكان والزمان

لو قارنا أماكن الحج عند غير المسلمين وعند المسلمين لاتضح لنا الفارق بين هؤلاء وأولئك، فالمسلمون يقطعون آلاف الأميال ويخترقون كلّ حواجز الحدود، ويجتازون كلّ الموانع التى صنعها الإنسان على أرض اللّه سبحانه... استجابةً لنداء

۱- ۱ الفيصل، طقوس الحج عند اليهود، د. حسن ظاظا، العدد ۲۱۰: ۷.

ص: ۲۷۲

العقيـدة، وتلبيـةً لهتاف الإيمان... فهم يستشـعرون وحـدة الأرض، ووحـدة الزمان، ووحدة البشـر، ويمثلون عملية إسـقاط الحدود التى صنعتها الأنانيات والأطماع البشرية: الإقليمية، والقومية، والعنصرية، وغيرها...

أما غيرهم فقـد تعـددت عنـدهم الأماكن، كأن يحـج قوم فى سـنة واحـدة إلى عـدّة أماكن، أو قوم ينتمون إلى دين واحد، ولكن كلٌ يتخذ له وجهة خاصة به وهكذا... فاليهود مثلًا حين تعددت فرقهم كلٌ اتخذ له وجهة خاصة، وفى بعض الأحيان خالف الفرقة الأخرى وعاداها، واعتبر وجهة نظره هى الأفضل والأصح... والنصارى كذلك وغيرهم أيضاً كما ذكرنا سابقاً-.

يقول د. حسن ظاظا عن أماكن الحج عند اليهود: «إنّ أماكن الحج عندهم تتغير مع الزمن. فإبراهيم عليه السـلام كان يقيم عند سنديانة قمرا بـالقرب من مدينـة الخليـل، ثم توقف يعقوب عنـد جبـل جرزيم بـالقرب من نـابلس، وبنى هنـاك معبـداً اشـتهر بـاسم «بيت اللّه» وبالعبريـة «بيت إيـل»، فصـار حرماً له وللأسـباط. وتوقف موسـى عنـد نبع عين قـديس (قادش) فصار مكان حـج أيضاً، وتبرك اليهود بنخلة دبورة البنية، وبجبل سـعير فى إقليم غزة، ثم بقبور السلف الصالح فى الخليل إلى أن تمَّ تشييد هيكل سليمان بالقدس. ومع ذلك مـا زال اليهـود يحجـون إلى قـبر العُزير فى العراق، وقـبر المتصـوف اليهودى أبى حصـيرة فى دمنهور، وقـبر فقيههم عَمْرام فى المغرب بالقرب من وزّان، بل قبر المتصوف بَعَلْ شِمْ طُوف فى فلنيوس بليتوانيا» (۱).

وهذا فارقٌ كبير بين حج المسلمين على اختلاف مذاهبهم وثنائية الزمان والمكان التى التزموا بها وبين حج غير المسلمين.

۱- ۱ طقوس الحج عند اليهود، الفيصل، مقال د. حسن ظاظا، العدد ۲۱۰: ۸.

ص: ۲۷۳

۷- الانصهار فی الهوی

وینحرف الإنسان أحیاناً نتیجة لاستسلامه لضغوط قوة الهوی علیه، وقد یندفع کذلک إلی ما هو أبشع من ذلک، تلبیةً للنزعات الأنانیة الکامنة فی نفسه، أی أنه یعرف الحق ولا یتبعه، ویحرف تعالیم السماء وهو یعلم أنها الحق، یحرفها وفق أهوائه ومیوله الخاصة لکی یُتبع ویضل الآخرین لیبرز علیهم، فیردی ویُردی الآخرین إلی هاویة الضلال...

قال تعالی ومن أضلُّ ممن اتبع هواه بغیر هُدًی مِنَ اللَّه (۱)

.فالنفس الإنسانیة تتجاذبها تیارات وشهوات متعددة، وهی تنساق مع مغریات الحیاة وملاذّها، وتستعصی علی الحق، وتأبی قبوله، والسیر علی هداه؛ لما فیه من منعٍ للنفس عن أهوائها، ومشتهیاتها الفانیة...

قال الإمام الباقر علیه السلام فی قوله تعالی قل هل ننبئکم بالأخسرین أعمالًا الذین ضلَّ سعیهم فی الحیاة الدنیا وهم یحسبون أنهم یُحسنون صُنعاً (۲)

قال علیه السلام:

«هم النصاری والقسیسون، والرهبان، وأهل الشبهات والأهواء من أهل القبلة، والحروریة، وأهل البدع» (۳).

وعنه علیه السلام أیضاً فی قوله تعالی والذین کسبوا السیئات جزاء سیئةٍ بمثلها وترهقهم ذِلةٌ ما لهم من اللَّه من عاصم (۴)

قال علیه السلام: «هؤلاء أهل البدع والشبهات والشهوات، یسوّد اللَّه وجوههم، ثم یلقونه» (۵).

۱- ۱ القصص: ۵۰.

۲- ۲ الکهف: ۱۰۳- ۱۰۴.

۳- ۳ تفسیر القمی، علی بن ابراهیم القمی ۲: ۴۶.

۴- ۴ یونس: ۲۷.

۵- ۵ تفسیر القمی ۱: ۳۱۱.

ص: ۲۷۴

فإذا تمکنت الأهواء من الانسان وتحکمت الشهوات علیه وخضع واستسلم لها عرضته للسقوط والانحراف عن جادهٔ الاستقامهٔ، وتحول الانسان حینئذ مصدراً للشر فی علاقاته وحیاته، وحتی علاقته مع خالقه. فالهوی حرف کثیراً من البشر عن جادهٔ الحق فی الحج.

خاتمهٔ

وفی نهایـهٔ المطاف، وبعـد جولـهٔ سـریعهٔ فی رحاب فریضـهٔ إلهیهٔ متمیزهٔ، تمتاز علی غیرها بمواصـفات خاصهٔ أهمها اجتماعیتها والتقاء أکبر عدد من المسلمین فی عمل واحد وهدف واحد وروح واحدهٔ و...

بعـد هـذه الجولـهٔ، لابـدّ من القول: مـا هی غایتنـا من هـذا الـدخول فی طقوس الحـج عنـد الحضـارات والأُـمم المختلفـهٔ؟ هل لمجرّد استعراض تاریـخ جزء من دیانـاتهم وأفکـارهم وسـلوکهم، وبالتـالی یصـبح خزینُنـا من التاریـخ کبیراً وشاملًا؟ هل لمجرّد إشـباع حبّ الاستطلاع الملحّ داخل العقل والنفس؟ هل لشیء أو أشیاء أخری

بالتأکیـد أنّ هـذا الـذی أوردناه داخلًا فی غایتنا وهـدفنا من هـذه الدراسـهٔ المتواضـعهٔ، ولکنْ هناک هـدف آخر أکبر داخل فی طبیعهٔ تفکیرنا الاسلامی المتمیز بالصدق والعلمیهٔ والمنهجیهٔ.

هدفنا هو محاولهٔ معرفهٔ الحج الحقیقی الصحیح بین أنواع الحج الکثیرهٔ، معرفهٔ علمیهٔ برهانیهٔ، نقرأها قراءهٔ من خلال التاریخ وما فیه من تنوعـات، وإلّا فلیس هنا شک فی أن الحـج الحقیقی هو الـذی أتی به الاسـلام ضـمن الـدین الإسـلامی، وجعله رکناً غایـهٔ فی الأهمیهٔ ضمن دین اللّه الحنیف الذی هو الاسلام.

قال تعالی إنّ الدین عند اللّه الاسلام.

ص: ۲۷۵

إنّ أنواع الحج الأخری الکثیرة، سواء منها الحج المحرّف فی الدیانات السماویة أو أنواع الحج الوضعیة التی تفرضها الفطرة الانسانیة، هی التی تضع أصابعنا علی الحج الحقیقی، من باب التضاد، فمن خلال الخطإ نعرف الصواب، وممَّا تمجهُ النفس نحس بما تحبه الروح وهکذا...

من هنا تتضح الغایة الأساسیة من هذا البحث، تتضح بشکل جلی وواضح، ینعزل فیه الباطل عن الحق، والخطأ عن الصحیح.

وهکذا یتبین الحج الذی جاء به الدین الإسلامی، بأعلی درجات الوضوح... یتبین من خلال طقوس وعادات وأهواء الآخرین... یتبین حجّاً إلهیاً کبیراً کبر الدین الإسلامی وأهدافه العظمی التی انفردت وتعالت علی کلّ الأدیان.

فأین هو من حج أولئک الذین صنعوا لأنفسهم حجّاً خاصاً غذّوه من خرافاتهم وخزعبلاتهم وأوهامهم، فبنوا بأیدیهم أماکن خاصة مُلئت بطقوس وأعمال ما أنزل اللَّه تعالی بها من سلطان.

المحصلة النهائیة من کلّ ما ذکرنا، ومن دراسة کلّ أنواع الحج الأخری وأشکاله، هو أنّ الحق والصدق فی الحج الإسلامی... الحج الذی أجمله القرآن الکریم وفصلته سُنة الرسول الأکرم صلی الله علیه و آله وآل بیته الکرام، وأخیراً لابدّ وأن نقرأ الآیة المبارکة الآتیة ونلتزم بها:

ومن یبتغ غیر الإسلام دیناً فلن یقبل منه وهو فی الآخرة من الخاسرین (۱)

۱- ۱ آل عمران: ۸۵.

ص: ۲۷۶

ص: ۲۷۷

مصادر الکتاب

۱- القرآن الکریم.

۲- الکتاب المقدس: العهد القدیم والعهد الجدید.

الکتب العربیة

۳- إبراهیم أبوالأنبیاء، عباس محمود العقاد، منشورات المکتبة العصریة، بیروت- صیدا.

۴- أخبار مکـة، محمـد بن عبداللّه المعروف بأبی الولید الأزرقی المکی، تحقیق رشدی صالح ملحس، دار الأندلس، بیروت ۱۹۸۳ ط ۳.

۵- أصول الکافی، محمد بن یعقوب بن إسحاق أبو جعفر الکلینی.

۶- الأبعاد الاجتماعیة لفریضة الحج، د. زهیر الاعرجی، ط: أمیر- قم، الطبعة الأولی

۷- الاسلام فی مسائل الحلال والحرام، کتاب الحج، المحقق الحلی.

۸- الأنس الجلیل فی تاریخ القدس والخلیل، القاضی مجیر الدین الحنبلی.

۹- بحار الأنوار، العلامة المجلسی، الطبعة البیروتیة.

۱۰- البدعة، د. الشیخ جعفر الباقری، ط: أمیر- قم، الطبعة الأولی

۱۱- البیان والتبین، الجاحظ.

ص: ۲۷۸

۱۲- تاریخ الطبری، أبو جعفر محمد بن جریر الطبری.

۱۳- تاریخ الیعقوبی، أحمد بن إسحاق الیعقوبی.

۱۴- ترتیب القاموس، مادهٔ حجّ.

۱۵- تفسیر فی ظلال القرآن، سید قطب، دار الشروق، طبعهٔ عام ۱۹۹۸.

۱۶- تفسیر القمی، علی بن إبراهیم القمی.

۱۷- تفسیر الکاشف، محمد جواد مغنیهٔ، دار العلم للملایین، بیروت.

۱۸- المیزان فی تفسیر القرآن، العلامهٔ الطباطبائی، الطبعهٔ البیروتیهٔ.

۱۹- التفکیر الخرافی فی بحث تجریبی، منصور إبراهیم.

۲۰- التهذیب، الشیخ الطوسی.

۲۱- الجواهر، محمد حسن النجفی.

۲۲- الحجّ عبادهٔ وتربیهٔ، منشورات دار التوحید، الکویت، الطبعهٔ الأولی ۱۹۷۸ م.

۲۳- الحجّ حکمهٔ ورموز، تحقیق ظفر الاسلام خان، المعهد الاسلامی، لندن ۱۹۸۲ م.

۲۴- الحجّ علی مختلف المذاهب، محمد جواد مغنیهٔ، ط: سپهر- إیران، عام ۱۹۷۹ م.

۲۵- الحجّ وآثاره علی الحیاهٔ الاجتماعیهٔ، الشیخ التسخیری والشیخ محمود قالصنوهٔ ط: سپهر- ایران.

۲۶- الحجّ ودوره الهام فی حیاهٔ الانسان، ط: سپهر- ایران ۱۹۹۷ م، رابطهٔ الثقافهٔ والعلاقات الإسلامیهٔ.

۲۷- حجّهٔ الوداع، ابن حزم.

۲۸- حقائق وأباطیل، محمد فوزی، دار الصفدی- دمشق، سوریا.

۲۹- الروضهٔ البهیهٔ فی شرح (اللمعهٔ الدمشقیهٔ)، الشهید الأول- محمد بن جمال الدین المکی العاملی، ج ۱، باب الحجّ، الطبعهٔ السادسهٔ، مکتب الإعلام الإسلامی.

۳۰- زوال إسرائیل حتمیهٔ قرآنیهٔ، أسعد بیوض التمیمی، منشورات أوین پرس المحدودهٔ، لندن، عام ۱۹۸۴ م.

ص: ۲۷۹

۳۱- سفينة البحار، شيخ عباس القمى.

۳۲- سنن ابن ماجة، محمد بن يزيد القزوينى، ابن ماجة.

۳۳- شرايع الاسلام، المحقق الحلّى، باب الحجّ، منشورات الأعلمى- طهران.

۳۴- الطبقات الكبرى ابن سعد.

۳۵- صحيح مسلم، أبو الحسن مسلم بن الحجاج القشيرى، شرح النووى.

۳۶- غوالى اللئالى العزيزية، إبراهيم الإحسانى ج ۱، مطبعة سيد الشهداء- قم.

۳۷- عقائد الإسلام، السيد مرتضى العسكرى.

۳۸- العرب واليهود فى التاريخ، د. أحمد سوسة، دار إحياء التراث العربى، الطبعة الثانية.

۳۹- الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ابن حزم الأندلسى.

۴۰- فقه القرآن، للراوندى.

۴۱- الفقيه، للشيخ الصدوق.

۴۲- قصص الأنبياء، عبدالوهاب النجار، دار إحياء التراث العربى، بيروت.

۴۳- الكافى، الكلينى.

۴۴- الكامل فى التاريخ، ابن الأثير ج ۱.

۴۵- كتاب التعريفات، الجرجانى.

۴۶- كتاب الأصنام، أبو منذر هشام بن محمد الكلبى.

۴۷- نهج البلاغة، الخطبة ۱۹۲ (القاصعة).

۴۸- لسان العرب، ابن منظور، منشورات أدب الحوزة، قم، مادة (شعر).

۴۹- اللمعة الدمشقية، العاملى، باب الحجّ.

۵۰- المحجّة البيضاء، الفيض الكاشانى، مؤسسة الأعلمى- بيروت.

۵۱- المختصر النافع فى فقه الإمامية، المحقق الحلى، ت ۶۷۶ ه، منشورات المكتبة الاسلامية الكبرى وقسم الإعلام الخارجى للمؤسسة طهران- إيران.

ص: ۲۸۰

۵۲- المستدرك، كتاب الحجّ، باب ۲۴، من أبواب الحجّ وشرائطه- حديث ۲۲.

۵۳- مسند أحمد، أحمد بن حنبل.

۵۴- المصباح المنير، الفيومى، منشورات دار الهجرة- ايران- قم. معالم المدرستين، العلّامة مرتضى العسكرى، المجمع العلمى الإسلامى، ط: الكلينى.

۵۵- مع الأنبياء، عفيف عبدالفتاح طبارة، انتشارات الشريف الرضى- قم.

۵۶- معجم البلدان، ياقوت الحموى، مجمع اللغة العربية بالقاهرة.

۵۷- المعجم الوسيط، دار إحياء التراث العربى- بيروت- لبنان.

۵۸- مفاتيح الجنان، الشيخ عباس القمى، دعاء السمات، الطبعة الإيرانية.

۵۹- المفردات، الراغب الاصفهاني، ت ۵۰۲ ه، دفتر نشر الكتاب- ايران.

۶۰- مروج الذهب، المسعودى ج ۱.

۶۱- الملل والنحل، الشهرستانى، ت ۵۴۸ ه، منشورات الشريف الرضى- قم.

۶۲- من لا يحضره الفقيه، الشيخ الصدوق.

۶۳- الموسوعة العربية الميسرة، إشراف محمد شفيق غربال، الطبعة الثانية، دار الشعب، القاهرة، عام ۱۹۷۲ م.

۶۴- موسوعة كشاف اصطلاحات الفنون والعلوم، محمد على التهانونى ج ۱.

۶۵- مهذب الأحكام، السيد السبزوارى، ج ۱۴، الفائدة الثالثة.

۶۶- ميزان الحكمة، محمد محمدى رى شهرى، مكتب الإعلام الإسلامى.

۶۷- الوثنية فى الأدب الجاهلى، د. عبدالغنى زيتونة.

۶۸- وسائل الشيعة، العاملى.

۶۹- اليهود واليهودية، د. على عبدالواحد وافى، دار نهضة مصر للطبع والنشر.

الكتب المترجمة إلى العربية

۷۰- بابل تاريخ مصور، جون اوستى، ترجمة: سمير عبدالرحيم الحلبى، دائرة الآثار

ص: ۲۸۱

والتراث ۱۹۹۰، ط. دار الشؤون الثقافیة- بغداد- العراق.

۷۱- تاریخ الحضارات العام، موسوعة، منشورات عویدات- بیروت.

۷۲- دائرة المعارف الإسلامیة، ج ۷، باب الحاء، ط: دار المعرفة.

۷۳- عظمة بابل، د. هادی شاکر، ت: د. عامر سلیمان إبراهیم، ط: مؤسسة دار الکتب للطباعة والنشر- العراق.

۷۴- قصة الحضارة، ول وایرئیل دیوارنت، دار الفکر.

۷۵- معجم الحضارات السامیة، هنری س. عبودی، جروس برس- طرابلس- لبنان.

۷۶- المنجد، لویس معلوف، دار الشروق، بیروت، لبنان.

۷۷- موسوعة علم الآثار، کلینی دانیال، ت: لیون یونس، ط: دائرة الاعلام بغداد، سلسلة المأمون.

۷۸- موسوعة المورد، منیر البعلبکی، دار العلم للملایین.

المجلات العربیة

۷۹- إکتوبر، الصادرة عام ۱۹۷۶ م، الجمهوریة العربیة المصریة.

۸۰- الطاهرة، العدد ۷۰، طهران- ایران.

۸۱- العربی، العدد ۳۴۳، الکویت، الصادرة ۱۹۸۷ م.

۸۲- الفیصل، العددان ۲۱۰ و ۲۵۸، المملکة العربیة السعودیة، الصادرة عام ۱۹۹۸ م و ۱۹۹۶ م.

۸۳- الهلال، العدد ۵، الجمهوریة العربیة المصریة، الصادرة عام ۱۹۷۵ م.

تعريف مركز

بسم الله الرحمن الرحيم

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبيلِ اللَّهِ ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَيهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْيَا أمْرَنَا... يَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ يُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ كَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنـادِرُ البِحـار – فی تلخيص بحـار الأنـوار، للعلاّمـة فيض الاسـلام، ص ۱۵۹؛ عُيونُ أخبـارِ الرِّضـا(ع)، الشـّيخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائميّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إيرانَ: الشهيد آية الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – كان أحداً من جهابذة هذه المدينة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَعَفِهِ بأهل بَيت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَيهِم) و لاسيَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (عليه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللّهُ تعالی فرجَهُ الشَّريفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درايته، فی سَنةِ ۱۳۴۰ الهجريّة الشمسيّة (=۱۳۸۰ الهجريّة القمريّة)، مؤسَّسةً و طريقةً لم يَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ كلَّ يوم.

مركز "القائميّة" للتحرّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إيرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنةِ ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجريّة القمريّة) تحتَ عناية سماحة آية الله الحاجّ السيّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّيجی الحوزات العلميّة و طلاب الجوامع، بالليل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دينيّة، ثقافيّة و علميّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشيعة و تبسيط ثَقافة الثَّقَلَين (كتاب الله و اهل البيت عليهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزيز دوافع الشَّباب و عموم الناس إلی التَّحَرّی الأدَقّ للمسائل الدّينيّة، تخليف المطالب النّافعة – مكانَ البَلاتيثِ المبتذلة أو الرّديئة – فی المحاميل (=الهواتف المنقولة) و الحواسيب (=الأجهزة الكمبيوتريّة)، تمهيد أرضيّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافيّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البيت –عليهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققين و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِج العلوم الإسلاميّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهيل رفع الإبهام و الشّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

- مِنها العَدالة الاجتماعيّة: التی يُمكِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحديثة متصاعدةً، علی أنّه يُمكِن تسريعُ إبراز المَرافِق و التسهيلاتِ – فی آكناف البلد - و نشرِ الثّقافةِ الاسلاميّة و الإيرانيّة – فی أنحاء العالَم - مِن جهةٍ اُخرَی.

- من الأنشطة الواسعة للمركز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ كتبٍ، كتيبة، نشرة شهريّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقيقيّة و مكتبية، قابلة للتشغيل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثيّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّكة و... الأماكن الدينيّة، السياحيّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائميّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضيّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمريّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعيّة، الاخلاقيّة و الاعتقاديّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسيم النظام التلقائیّ و اليدویّ للبلوتوث، ويب كشك، و الرّسائل القصيرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراكزَ طبيعيّة و اعتباريّة، منها بيوت الآيات العِظام، الحوزات العلميّة، الجوامع، الأماكن الدينيّة كمسجد جَمكرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفيذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِكين فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعليميّة عموميّة و دورات تربية المربّی (حضوراً و افتراضاً) طيلة السَّنةَ

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع"مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع"پنج رَمَضان "ومُفترَق"وفائی/"بنایة"القائمیّة"
تاریخ التأسیس: ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریة القمریّة)
رقم التسجیل: ۲۳۷۳
الهویّة الوطنیّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶
الموقع: www.ghaemiyeh.com
البرید الالکترونی: Info@ghaemiyeh.com
المَتجَر الانترنتی: www.eslamshop.com
الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)
الفاکس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)
مکتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)
التّجاریّة و المَبیعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹
امور المستخدمین ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

المیزانیّة الحالیّة لهذا المرکز، شَعبیّة، تبرّعیّة، غیر حکومیّة، و غیر ربحیّة، اقتُنِیَت باهتمام جمع من الخیّرین؛ لکنّها لا تُوافِی الحجمَ المتزاید و المتّسعَ للامور الدّینیّة و العلمیّة الحالیّة و مشاریع التوسعة الثّقافیّة؛ لهذا فقد ترجّی هذا المرکزُ صاحِبَ هذا البیتِ (المُسمّی بالقائمیّة) و مع ذلک، یرجو مِن جانب سماحة بقیّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرَجَهُ الشَّریفَ) أن یُوفّقَ الکلَّ توفیقاً متزائداً لِإعانتهم - فی حدّ التّمکّن لکلّ احدٍ منهم – إیّانا فی هذا الأمر العظیم؛ إن شاءَ اللهُ تعالی؛ و اللهُ ولیّ التوفیق.